رواية

مكتبة نوميديا

ظلل العائلة

محمود شقير

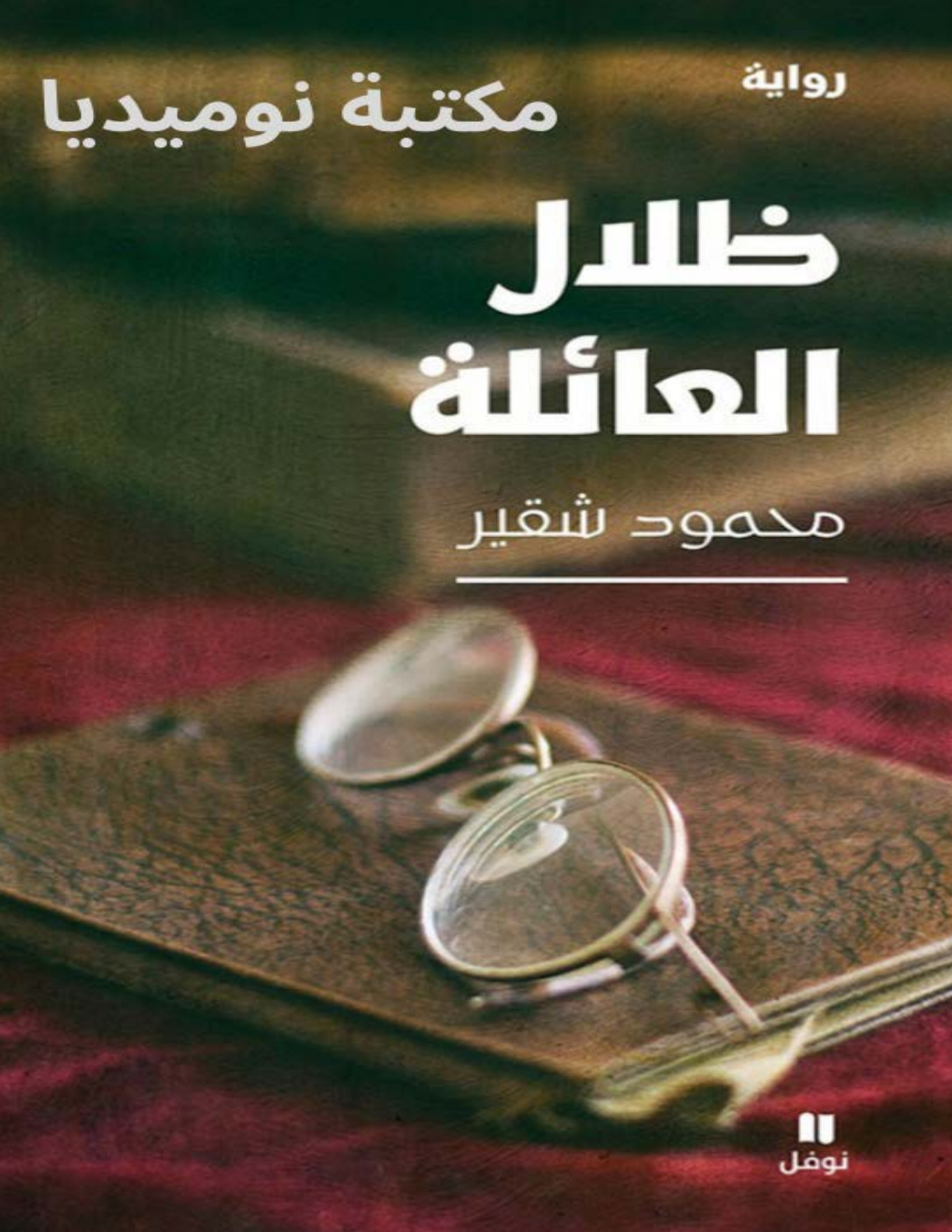

نوفل

رواية

ظلال العائلة

محمود شقير

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© **هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019**
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: © **Jill Ferry / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-286-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-287-5

باستثناء الشخصيّات العامّة والمعلومات المستقاة من مصادرها، فلا علاقة لهذه الرواية بأشخاص أو بوقائع خارجها، وأيّ تشابه في الأسماء والوقائع ليس مقصودًا، وهو من باب الصدفة المحض.

أسماء الأعلام المعْرَبة لا تخضع لقواعد اللغة في حالة النصب.

مرَّة أخرى
إلى مهدي، حفيدي الرابع عشر.

«إنَّها ساعة التعب
حيث يفيء الشجر نفسه إلى الظلِّ.»

أدونيس

«أحلم أحيانًا بأنّني مستيقظ، وهكذا أحلمُ حلمَ حلمي.»

أنطونيو بورشيا

ظلّ

كمقهى صغير على شارع الغرباء –
هو الحُبُّ... يفتحُ أبوابه للجميع.
كمقهى يزيد وينقُصُ وَفْق المُناخ:
إذا هَطَلَ المطرُ ازدادَ رُوَّادُهُ،
وإذا اعتدل الجوُّ قَلُّوا ومَلُّوا...
أنا ههنا – يا غريبةُ – في الركن أجلس

محمود درويش

1

انتظرتُ ليلى ساعة وأربعين دقيقة.

كنت أسير إلى موعدي معها قريبًا من باب الخليل، وأنا غير متأكّد ممّا سيسفر عنه اللقاء. كانت دوريّة للجنود تراقب الناس هناك. تذكّرت الغزاة الذين جاؤوا إلى القدس ودخلوها من هذا الباب، ثمّ خرجوا منه أو من غيره من أبواب المدينة.

استوقفني الجنود وفتّشوني بحثًا عن سلاح ناريّ أو سكِّين. كنت صامتًا عابس الوجه وهم يفتّشونني، سمحوا لي بالمرور، دخلتُ ميدان عمر بن الخطَّاب الذي يعجُّ بالمستوطنين وبالجنود، الجنود الذين قد يطلقون النار على نحو عشوائيّ لأيِّ سبب، النار التي قد تقتلني برصاصة طائشة فتعلن ليلى الحداد عليّ وتمتنع عن الزواج سبع سنين، مثلما فعلت معزوزة، إحدى بنات عائلتي التي أعلنت الحداد على حبيبها الشهيد. هل تعلن ليلى الحداد عليّ؟! ربّما، مع أنّني لا أحبّذ ذلك، لا أحبّذ بقاءها أسيرة للحزن عددًا من السنين.

كان المساء ينشر ظلّه على الأمكنة، والقدس في هذا الشتاء القاسي تتسربل بغموضٍ ما وتعب، تعب مؤقَّت كما أتوقَّع، لكنّني لا أعرف كم سيطول. انتظرتُها في المقهى الذي يتردَّد عليه السيَّاح، هنا لن ترانا عيون المتلصِّصين.

تشاغلتُ، وأنا أنتظرها، في تأمّل حيطان المقهى، كما لو أنّني أراها للمرّة الأولى، حيطان قديمة تمَّ ترميمها لتقاوم وطأة الزمن. على صدر

الحائط الذي على اليمين صورة للأب الكبير، صاحب المقهى الأوّل، جدّ إميل، وإلى جواره ابنه، والد إميل. لهما في الصورتين شوارب كثّة مبرومة، وفي عيونهما حزم وتصميم، فكّرتُ لو أنّ لي شاربين كثّين، ثمّ استبعدتُ الفكرة.

على الحائط كذلك، صورة للميدان عمرها قريب من مئة سنة، التُقِطتْ في العام 1918، يظهر فيها جنود بريطانيّون وجمهرة من الفلسطينيّين. لهذه المدينة تاريخ غاصٌّ بالغزاة الذين احتلّوها ودمرّوها مرارًا عبر آلاف السنين، وكانت في كلّ مرّة تنبعث من جديد. أنا ولدت في حيّ راس النبع الذي لا يبعد كثيرًا من سور المدينة العتيق، ليلى ولدت في حيّ بيت حنينا الجديدة. لم أكن أعرفها ولم تكن تعرفني مع أنّنا ننتمي إلى المدينة نفسها.

تشاغلتُ بالنظر إلى الساحة وإلى الرصيف، على هذا الرصيف مشى كاتب المدينة خليل السكاكيني، مجنون سلطانة. ربَّما مشت سلطانة معه على الرصيف، وربّما جلسا معًا في هذا المقهى.

بعد انتظار طويل، لم تجئ ليلى. اعتراني همٌّ وقلق.

كنّا التقينا هنا قبل أسبوع. حدّثتها عن السرّ الذي كتمته عنها، وكنت أخشى أن تنفر منّي. يومها فوجئتْ ليلى، غادرنا المقهى على أمل اللقاء فيه مرّة أخرى.

وها أنذا أجيء إلى موعدي معها وهي لم تجئ. حاولتُ مهاتفتها، وكان هاتفها مغلقًا. أرسلت إليها رسائل عدّة على الـ«واتس أب»، ولم أتلقَّ أيَّ جواب. وكان حسابها على الـ«فايسبوك» صامتًا منذ أيّام.

أنا مجنونها، منذ تعرّفتُ إليها ووقعت في حبّها وأنا أتقمّص بين الحين والآخر شخصيّة ذلك الشاعر الذي ظلّ متيّمًا بليلاه حتّى مات، وأعتقد أنّها تتقمّص شخصيّة تلك المعشوقة التي تحمل اسمها.

وأنا أحبُّها في زمن مريب، يحرص فيه الفلسطينيّ على عِرْضه حدّ الهَوَس، لأنّ أيّ عبث بهذا العِرض يعني الفضيحة، والفضيحة هنا أهونُ منها الموت.

غيرَ أنّها لم تجئ.

لاحظ إميل ارتباكي وأنا ممعن في الانتظار، وخمّن بحسّه المرهف أنّ ثمّة مشكلة. شربتُ فنجان قهوتي الثالث وغادرت المقهى.

كانت الريح شديدة البرودة، وأضواء المدينة توحي بحالة من الاطمئنان، ولم يكن ذلك إلّا وهمًا، تبدّده الريح وتزعزعه المفاجآت.

***

فكّرت بالعودة إلى البيت، ثمّ أقصيتُ الفكرة كي لا تتكدّر أمّي حين تراني محبطًا. بقيتُ أعمل حتّى وقت متأخّر. كان برد الشتاء قارسًا والليل لا يُؤتمن، نقلتُ في سيّارتي أصنافًا من البشر إلى أحياء المدينة المختلفة، مررتُ بحواجز طيّارة مؤقّتة للعسكر، وانتظرتُ وتذمّرت وشتمت، وعند العاشرة ليلًا، عدتُ إلى البيت.

كان أبي يشاهد الأخبار ويرفع صوته بتعليقات ساخطة. وكانت أمِّي قلقة عليّ، قالت للمرّة العاشرة: «ليتك تجد لنفسك مهنة أخرى أكثر أمنًا وأمانًا».

حاولت طمأنتها كما في كلّ مرّة: «لا تقلقي، أنا أتصرّف بحذر وانتباه».

أمِّي تلوب الآن في البيت مثل نحلة، تفتح نافذة أخرى من نوافذ الصالة، برغم البرد، لكي تطرد دخان السجائر التي يدخِّنها أبي. تقترب من التلفاز، تتابع خبرًا ما ثمّ تبتعد وهي ترسم على ثغرها ابتسامة جرَّاء ما تسمعه من تعليقات. شقيقتي لمياء تجلس في ركن الصالة، تتابع التلفاز على نحو متقطِّع، ثمّ تنشغل بهاتفها المحمول، وتكتب شيئًا ما على حسابها في الـ«فايسبوك». ما الذي يدور في رأسها؟! لا أدري.

كانت ميّالة إلى الصمت في أغلب الأحيان.

تأمّلتُ أمّي وأبي وشقيقتي وقلتُ لنفسي: إنّها أسرة مستقرَّة لولا انعدام الأمن والأمان، ولولا الوسواس المتسلّط على أبي الذي ينهض في الليل عددًا من المرّات لكي يتأكّد من أنّه أغلق باب البيت بالمفتاح.

تبادلنا أحاديث عابرة، وكانت أمِّي تدقّق في ملامح وجهي لعلّها تتوصّل إلى جواب، ابتسمتْ كما لو أنّها عرفت أين كنتُ ومع مَن كنت.

كذبت عليها وقلت: «كلّ شيء تمام، إلّا إذا...».

قاطعتني وقالت: «اترُكنا من إلّا إذا».

لم يتنبّه أبي إلى الكلام، أو هذا ما اعتقدتُه. أبي تعنيه الأخبار أكثر من أيّ شيء آخر، يبدو وهو جالس أمام التلفاز، بشعر رأسه الذي يختلط بياضه بسواده، كمن يحمل هموم الدنيا على كتفيه. لكنّه فاجأني حين التفت نحوي وقال: «أنت تسير على خطى أبيك».

نظر إليّ مبتسمًا وأنا فهمت قصده، فقد وقع هو الآخَر في حبّ أمّي حين كان سائق سيّارة أجرة. واصل متابعة الأخبار، وظلّت لمياء صامتة، تنوب أصابع يدها عن صوتها وهي تكتب تعليقًا هنا ورسالة هناك، ربّما لأحد الأصدقاء أو لإحدى الصديقات.

كنتُ مثل حشرة سحقتها قدم لا ترحم.

كتمتُ خيبة أملي إلى حين.

2

عرفتُها قبل أشهر معدودات بمحض الصدفة. اتّهمني زميلي رهوان بأنّني أنصب فخًّا لاصطيادها.

كنّا في فصل الخريف، فصل الأسى والمشاعر الرهيفة والتوق إلى اقتحام المجهول، وكان الوقت بعد العصر بقليل. حركة السيّارات في الشوارع وعند المنعطفات على أشدّها، وثمَّة على الأرصفة نساء عائدات إلى بيوتهن، وهنّ يتخطّرن بأزياء متباينة الأشكال، بعضهنّ بالجلابيب وبعضهنّ بفساتين زاهية الألوان، ولدى كلّ منهنّ سيرة حياة وتاريخ، تاريخ يضاف إلى تاريخ المدينة فتصبح عصيَّة على التحلّل والذوبان في هويّة أخرى غريبة. وكانت السماء مجلَّلة بغيوم بيضاء، والقدس لا تفصح عمَّا يدور في خاطرها، وهي تتحمل مصيرها ولا تتشكَّى لأحد.

كنت أنتظر داخل سيَّارتي قرب باب العمود لعلِّي أظفر براكب أو راكبة. وكان يحدوني أملٌ ما.

جاءت وفتحَت باب السيَّارة الخلفيّ وجلسَت في المقعد وهي ترتدي الجلباب وعلى رأسها منديل. طلبت منّي أن أوصلها إلى بيت حنينا الجديدة. قدتُ سيَّارتي وسط زحام السيّارات، وكنت أسترقُ النظر إليها من خلال المرآة. وقعتْ عيناي على عينيها مرَّتين أو ثلاثًا، ولم أفعل ذلك إلّا لأنّني انجذبتُ إليها. تذكّرتُ قريبًا لي، اسمه عبد الرحمن ولَقَبه القنفذ، يقول: «أنتم شوفيريّة السيّارات لا تتركون امرأة إلّا تحرّشتم بها». ويقول: «أراهنُ على أنّكم ضاجعتم نساء بعدد الشعر الذي في

رؤوسكم»، فأجيبه في كلّ مرّة: «دعْكَ من هذا الكلام»، وأضيف: «أصابع يدك ليست على الشاكلة ذاتها».

– هل أنتِ سكرتيرة في مكتب؟

– أنا معلِّمة في مدرسة داخل البلدة القديمة، تابعة لفلسطينيّين أرثوذوكس.

كان هواء خفيف يتسلَّل إلينا من النافذة التي على يساري، وكنت مُحرجًا من مواصلة الحديث معها خوفًا من صدمةٍ ما أو من سوء ظن. أوصلتها إلى البيت، بيت كبير بنوافذ كثيرة، راسخ في المكان. نقدتني الأجرة ومضت. كان في مشيتها اعتداد وثقة، وكانت بيوت الحيّ تتجاور على نحو مريح، ومن حولها حدائق وأسوار، ما يشير إلى بسطة في العيش ورخاء. عدتُ إلى باب العمود وأنا أفكِّر فيها، يأسرني صوتها الرقيق، والخجل الذي في عينيها، وتبهجني قامتُها السامقة.

جاءت بعد أيّام ثلاثة، بالقامة نفسها وبخجل العينين نفسه، والخريف يوحي بأنّ الحياة حافلة بالأسرار. تكرَّر المشهد، وكَبُر في قلبي الفضول. أدركتُ مذ أقللْتُها أوّل مرّة في سيّارتي أنّها ابنة عائلة موسرة، أكّد ذلك لي بيت أهلها الرصين، فهل كانت في داخلي رغبة خفيّة في التقرّب من الناس ذوي الغنى والجاه؟! لست أظنّ ذلك، إنّما جذبتني هذه المرأة بما لديها من رقّة وجمال، وبما تتّسم به من مشاعر دافئة لا تخفى على سائق سيّارة أجرة نقَل في السنوات القليلة الماضية أعدادًا كثيرة من الرجال والنساء إلى أماكنَ شتّى، داخل المدينة وخارجها.

– ماذا تُدرِّسين؟

– اللغة العربيَّة، درَستُها في الجامعة.

تذكّرتُ ابن عائلتي القنفذ وثرثراته السمجة، فإنْ كرّرها على مسمعي فسوف أطلب منه أن يتّقي الله وأن يكفّ عن نهش أعراض الناس، أنا هنا في حضرة فتاة محترمة.

– درَستُ اللغة العربيَّة في معهد للمعلِّمين، وكما تريْن، أعمل سائقًا لسيَّارة أجرة.

وبعد لحظة أضفت: «أحاول أن أكون كاتبًا، اسمي قيس».

لفتَت انتباهها كلماتي الأخيرة.

لفتَت كلماتُه انتباهي وغيَّرتْ مجرى تفكيري وصرتُ معنيَّة به. لفت انتباهي اسمه وما ينطوي عليه من مفارقة حين يُضاف إلى اسمي. قلت من باب اللياقة: اسمي ليلى.

سألتني:

– هل أنت شاعر؟!

– أحاول كتابة رواية.

أبدت إعجابها بخفّة مفاجئة:

– واااااو!

ظلَّ صوتها الخلَّاب يتردَّد في داخلي طوال أيّام. ظلّ اسمها كذلك يثير في نفسي أسمى المشاعر. وبعد أسبوع جاءت، ابتسمتُ لها وابتسمتْ لي. وكنتُ كمن عثر على كنز، لأنّ لحظة الانسجام تلك لا يمكن تقديرها بثمن.

قلت: «أنا سعيد بالتعرّف إليك».

فكّرتْ في كلماتي لحظة كما لو أنّها تحاذر من الوقوع في فخ، ثمّ قالت: «سائقو سيَّارات الأجرة ليس لهم أمان».

كلامها أحضر شبح قريبي القنفذ ووضعه أمامي مباشرة. عجبتُ كيف ساءت سمعة سائقي سيّارات الأجرة إلى هذا الحدّ! وتذكّرتُ زميلي في المهنة، ابن عائلتي، رهوان، ومغامراته التي لا تنتهي مع النساء.

تذكّرتُ كذلك محمّد الأصغر، عمّ أبي، وزوجتَه سناء عندما طلبا منّي قبل يومين أن أوصلهما إلى مبنى المسرح الوطني. أوصلتُهما، فنسي العمّ محمّد في السيّارة دفترًا سميكًا (نسيه بالفعل أم قصدَ أن يتناساه لسبب ما؟!). دفعني الفضول إلى قراءة ما فيه قبل أن أعيده إليه. قرأت تفاصيل كثيرة، بعضها سارٌّ ظريف، وبعضها الآخر محيّرٌ مثيرٌ للتأمّلات.

***

لم تغب عنّي إلّا بضعَ ساعات. جاءت، وجاء معها جمالها الفتَّان وأطياف عائلتها الموسرة.

جئتُ، ولم أكترث لتزمّت الأهل ولا لدوريّات الجنود المنتشرين في الطرقات. غادرت فراشي، فتحتُ الباب وخرجتُ بخفّة فراشة.

كان قمرٌ شاحب يطلُّ علينا من بين الغيوم. الهدوء يخيِّم على الأمكنة، ونحن متلاصقان على مقربة من شجر كثيف. لم نعرف كيف جئنا إلى هنا! ضحكنا كما لو أنّنا قادمان من قلب إحدى الحكايات، وقلنا هي الليالي تفعل بنا ما تشاء. سمعنا خرير ماء، أضفى الخرير رونقًا على جلستنا. قالت: «إنَّه النبع الذي بلّل ماؤه جسدي حين كنت طفلة».

نعم، حين كنت طفلة، رفعتُ فستاني إلى ما فوق ركبتيّ، ثمّ خلعتُ الفستان وبلّلتُ جسدي بالماء.

سحبتني من يدي واقتربنا من النبع، كان ماؤه ينساب نحو بساتين في الجوار. غمرَتْ ساقيها في الماء. اقتربتُ منها وغمرتُ ساقيّ، وكنّا مثل طفلين لاهييْن، ثمّ حلمتُ أثناء حلمي بأنَّني أستيقظ، ربَّما لبرودة الماء، وربَّما لسبب آخر. وبقيتُ أرقبها والماء يفيضُ من حلمها.

كان يرقبني والماء يبلّلني.

بعد وقت، قلت لها: «هيَّا بنا نرجع إلى المدينة».

تساءَلتْ في عتاب: «نرجع هكذا وساقاي مبلولتان؟!».

أخرجتُ منديلًا أبيضَ من جيبي، بقيتُ أنشِّف ساقيها حتّى لم يبق عليهما أثر للماء، ثمّ رجعنا، ورأيناهما معًا، هو والمرأة، قرب السور، ثمّ وهما يدخلان الميدان. في يده دفتر سميك أظنُّ أنّني قرأت ما فيه من قبل، وهي تسير إلى جواره بخيلاء، وفي يدها كتاب.

تبعناهما، وكان غبش خفيف يغلِّفُ الأمكنة. قلت: «أنا أعرفهما».

وقلتُ: «دفتره مثير للفضول، وفيه أسرار كثيرة».

لم تنطق بأيِّ حرف. لكنّها كانت معنيَّة بهما، ربّما تساوقاً مع رغبتي.

كنتُ معنيَّة بهما لأنّني أبتهج حين أرى رجلًا وامرأة على هذه

الدرجة من الانسجام.

دخلا مقهى قريباً من باب الخليل، دخلنا في أثرهما واخترنا طاولة قريبة منهما وجلسنا. تظاهرنا بأنّنا لا نعيرهما أيّ انتباه.

همست في أذنها: «إنّه محمّد الأصغر، عمّ أبي، ومَن ترافقه هي زوجته سناء».

فتح الدفتر وراح يكتب فيه وسناء ترمقه بإعجاب، أو هذا ما توقّعتُه. ثمّ لم تلبث أن فتحت كتابها وراحت تقرأ فيه.

واصلنا، أنا وليلى، مراقبتهما بحذر. كان دفتره السميك على مسافة حلم منّا أو حلمين.

3

استيقظتُ في الصباح المبكر، تذكَّرتُ بعض أحلامي، وكانت ليلى في قلبها، وتذكّرت دفتر العمّ محمّد الأصغر. غادرتُ فراشي واتَّجهت إلى الحمَّام.

اغتسلتُ وارتديت ملابسي، شربتُ القهوة وخرجت من البيت. كان الخريف يعلن عن نفسه بجلاء: أوراق صفراء متساقطة هنا وهناك، نسائم خفيفة مصحوبة ببرودة محتملة، وغيوم شاحبة في السماء، وبيوت راس النبع تتراكم وتتجاور من دون نظام، ومن دون تفكير بأيّ جماليّات، ما يدلِّل على ازدحام قابل لتوليد انفجارات عصبيَّة. وأنا أعجب بيني وبين نفسي: كيف تتنوَّع مصائر الناس! وثمّة حقيقة جارحة تتربّع فوق رؤوس الجميع: هذه المدينة ما زالت تحت الاحتلال منذ سنوات.

فتحتُ باب السيَّارة وجلستُ خلف عجلة القيادة. التقطتُ ركّابًا من أهل الحي، موظَّفةً في البريد اسمها أمل، شعر رأسها يتطاير على هواه، وثلاثة ركّاب آخرين. جلستْ أمل في المقعد الأماميّ، يفوح منها عطر أخَّاذ، وتكدَّس الركّاب الثلاثة في المقعد الخلفيّ: تاجر صغير اسمه عزّام، تفوح منه رائحة عطر رخيص الثمن، بجواره مزارع اسمه عوّاد، ما أن استقرّ في مقعده حتّى راح يشكو من تأخّر موسم المطر هذا العام، وابن عائلتي القنفذ، الذي تنبعث منه روائح مخمَّرة عالقة بملابسه من أغنامه التي يلازمها كلّ نهار. ظلّ القنفذ يتابع الإشارات الضوئيّة، يرسل إلي تعليماته كلّما تحوّلت الإشارة من الأحمر إلى الأخضر قائلًا: انْهَرْ.

ثمة فرسٌ تركض في رأس قريبي هذا، لأنّ كلمته هذه لا تقال إلّا حين يركب امرؤ دابّة، ثمّ ينهرها لكي تغذّ السير. لم يلبث أن كشف توقه إلى الماضي حين قال: «الله يرحم جدّنا عبد الله، كانت لديه فرس تحدّثَتْ عنها أجيال وأجيال».

سألني: «سمعت عن فرس جدّنا يا قيس؟»

قلت: «نعم، سمعت».

أمعنَ القنفذ في الترحّم على الأجداد، وأطلق التاجر عزّام حكمته المعتّقة: «لم يعد الزمان هو الزمان، نحن الآن في زمن الطائرات».

أطلقتْ أمل، موظّفة البريد، ضحكة خافتة وقالت بصوت عذب: «لم أركب طائرة في حياتي».

التقط عزّام المبادرة على نحو أثار هواجس السامعين، إذ باغتها قائلًا: «لك رحلة في الطائرة على حسابي».

فوجئتْ بكلامه وشكرته.

ثمّ انقطع الحوار بعد أن تحوّلت آخر إشارة ضوئيّة من الأحمر إلى الأخضر، وارتفع الصوت الآمر: «إنهرْ».

قدتُ سيّارتي إلى أن وصلتُ باب العمود. هناك أنزلتُ الركّاب.

كنت ما زلت أرتدي ملابس خفيفة: بنطالًا بنيّ اللون وبلوزة بكمّين قصيرين، وكانت نسائم الخريف تداعب شعري وتجعل مزاجي رائقًا. تبادلتُ أحاديث عابرة مع زميلي رهوان وبقيّة الزملاء، تأمَّلتُ في الوقت ذاته المدينة التي تعجُّ بالناس، ولا يعكِّر صفوها سوى الجنود، الحاملين بأيديهم معادن صقيلة لسفك الدماء. على الأرصفة والأدراج رجال حذرون، لهم همومهم ومسرّاتهم الصغيرة، أو هكذا خيَّل إليّ، وبنات وأولاد ذاهبون إلى مدارسهم، ونساء متَّجهات إلى داخل البلدة القديمة للتسوّق أو للالتحاق بوظائفهن، أغلبهنّ يخفين أجسادهن في فساتين فضفاضة وجلابيب، ويغطّين رؤوسهنّ بالمناديل، ولا أدري بماذا يفكّرن الآن.

ولم يكن الصباح يحلو لي إلّا حين أرى ليلى وهي قادمة بمشيتها

الرشيقة فوق الرصيف، ثمّ وهي تضع قدمها على أوَّل الدرج النازل إلى باب العمود، في طريقها إلى المدرسة التي تُمضي فيها نهارها لتعلِّم البنات والأولاد دروس اللغة.

هذا الصباح رأيتها، حجابها الورديّ ينعقد بإحكام على شعر رأسها ويحيط وجهها برشاقة لافتة، وجلبابها الخريفيّ ينسدل بوقار على جسدها، عاجزًا برغم ذلك عن إخفاء تضاريس الجسد. نظرتُ نحوها ونظرتْ نحوي، تبادلنا ابتسامتين حذرتين. كان حبّنا ما زال طريًّا مثل نبتة صغيرة نديّة. ولم تكن عينا رهوان غافلتين عمَّا حولهما. التفتَ نحوي، تأمَّلني بفضول ثمّ سألني: «هل ابتسمت لك امرأة جميلة قبل قليل؟».

حدَّقتُ في وجهه ولم أجب. اكتفيت بابتسامة خافتة تحتمل أكثر من معنى.

قال: «أنا أطلعك على أسراري، وعليك ألا تخفي عنّي شيئًا».

ثمّ أمعن في الهذر وفي الإسفاف كعادته.

***

كنت سبقتها إلى المقهى الذي اتّفقنا على اللقاء فيه.

زبائنه على الأغلب من السيّاح، وهو يستقبل الرجال والنساء من دون تمييز. كان حبّنا ما زال مثل طفل يحبو ويجرّب في الوقت ذاته المشي ويحاذر السقوط.

مشيتُ مسرعًا في ميدان عمر بن الخطّاب، وثمّة مستوطِنات ومستوطِنون يتدفَّقون في الميدان وعلى الأرصفة، وثمّة جنود شعرت وكأنّ الميدان يئنّ تحت وطأة أقدامهم مثل خشب عتيق.

جاءت ليلى وكان لنا لقاء.

التقينا، وكنتُ مدفوعة للاقتراب من هذا السائق الذي ينطوي على قدر غير قليل من الوسامة، ويكتب رواية لا أعرف شيئًا عن مضمونها، إلّا أنّني معنيَّة بقراءتها حالما ينتهي منها. وها أني آتي إليه في هذا المقهى برغم القلق الذي يساورني، إذ كيف

تأتي امرأة شابّة ترتدي الجلباب إلى مقهى لتجلس فيه مع رجل؟! بالطبع، أعرف أنّني أخالف المألوف.

– أنت لم تعرفي إلّا اسمي الأوّل حتّى الآن.

– يكفيني اسمك الأوّل.

قلت وأنا راغب في أن أزيدها اطمئنانًا:

– أنا قيس بن منّان بن عطوان بن منّان بن محمد العبد اللات.

ابتسمتُ، وكنتُ أشعر بأنّه لا يخلو من طيبة مفرطة وسذاجة نابعة من أصول ريفيَّة أو بدويَّة.

ثم تابعت حديثي:

– جئت إلى الدنيا في العام 1989، ولم يكن ممكنًا نقلُ أمِّي إلى المستشفى بسبب حظر التجول المفروض على المدينة من أوَّل الليل حتّى مطلع الفجر، جرّاء الانتفاضة التي كانت تعمُّ البلاد.

شجَّعها كلامي على البوح، فقالت:

– أنا ليلى بنت محمّد حسن القانع. جئتُ إلى الدنيا في العام 1993، ولدتني أمِّي في مستشفى القدس عصر يوم صيفيّ حارّ، ولم يكن حظر التجول قد حلَّ بعد في ذلك اليوم.

أصغيت إليها بانتباه، وبقينا نتبادل الحديث ساعة أو أكثر قليلًا، كان حديثًا ممتعًا أشهى من اللوز والجوز والعسل، ثمّ غادرنا المقهى. مشينا على رصيف الشارع مسافة قصيرة، لكن كان لا بدّ من أن نفترق خوفًا من العيون، ومن نزق العائلة، عائلة ليلى ذات الشرف الرفيع والمكانة المرموقة.

***

ما هي إلّا ساعات حتّى التقينا، رغم كلّ شيء. قلت لها: «أتزوّجك الآن». تمنّعت وقالت: «لا، ليس الآن». احترمتُ قرارها ومشينا معًا على رصيف المدينة، ثمّ رأيناهما وهما يتقدَّمان ببطء نحو المقهى. تبعناهما وراقبناهما من مسافة ما.

هي ودَّعتْ عهد الشباب منذ زمن، غيرَ أنّها ما زالت تحتفظ بأنوثة لا تغيب، وباعتداد بالنفس يتبدَّى في مشيتها، وباستقامة ظهرها الذي لا اعوجاج فيه. وهو بقامته الطويلة وشعر رأسه الأبيض الذي يضفي عليه نضجًا ومهابة.

جلسا في المقهى وجلسنا في الركن البعيد. فتح دفتره السميك، وانكبَّ عليه كاتبًا.

تسلَّلتُ مثل قطّ واقتربتُ منه، كانت سناء تجلس إلى جواره وهي تقرأ في كتاب، شعر رأسها ينسدل على صدرها بسلاسة وانسياب، ورائحة عطرها تملأ فضاء المكان.

دقَّقتُ النظر في صفحة الدفتر، لكني لم أتمكَّن من قراءة ما تخطّه يده. كانت الكلمات تنداح من قلمه مثل ماء جدول. فركتُ عينيّ لعلِّي أستطيع القراءة ولكنْ من دون جدوى. اقتربتْ ليلى.

نعم، اقتربتُ وحدَّقتُ في صفحة الدفتر، ولم أستطع القراءة. لم أوجِّه لنفسي أيّ لوم بسبب هذا الفضول.

لُمنا حلمنا ولم نتمكّن من تبديله بحلم آخر مطواع.

في اللحظة الأخيرة رأيته يتوقَّف عن الكتابة، ويتأمَّل صفحةً في الدفتر فيها أسطر مكتوبة بخطٍّ كبير. تبيَّنتُ فيها بعض الأسماء، وبعض الشروحات: «أمِّي وَضْحا... أخي فليحان.... ماريا زخاروفا... قيس بن الملوّح وحبيبته ليلى العامريَّة... رهوان؟؟؟!!!... نفيسة، ابنة العائلة... قيس منّان، ابن عائلتي، وحبيبته ليلى محمّد القانع؟؟؟!!!!!، أصلها من يافا، جاء أهلها إلى القدس بعد نكبة 1948 مباشرة، جاؤوا ومعهم أموالهم التي خبّأوها في صدور النساء وتحت سراويلهن، فلم يتعرّضوا للمهانة مثل غيرهم من المهجّرين الفلسطينيّين الذين ذاقوا مرارة الجوع والحرمان، استأنفوا أعمالهم التجاريّة في المدينة وسكنوا بيوتًا مستأجَرة في القدس القديمة سنتين أو ثلاث سنين، ثمّ اشتروا أرضًا في بيت حنينا، قريبًا من الشارع الذي يربط القدس برام الله، وبنوا بيوتًا حديثة

هناك. ابنتهم ليلى وقعت في حبّ ابننا قيس، حبّ معرّض لمخاطر وزعازع، وقد لا تُكتب له حياة».

دُهشتُ من وجود اسمي واسم ليلى في الدفتر، ومن وجود أسماء أخرى. دُهشتْ ليلى أيضًا حين استطاعت قراءة الأسماء. قلت لها: «هكذا يفعل الكتّاب وهم على وشك أن يشرعوا في كتابة رواياتهم، يدوّنون بعض ملاحظات وأسماء». سألتني عن وضحا وفليحان، قلت لها إنّهما من عائلتي، عائلة العبد اللات. سألتني عن نفيسة، كتمتُ عنها نصف الحقيقة وقلت: «هي من بنات عائلتي ولا أدري لماذا ورد اسمها في الدفتر».

بعد ساعة، نهضا، كانت قامتها مساوية لقامته في الطول. وضع يدها في يده وسارا معًا، ربّما إلى البيت، أو إلى مطعم، أو إلى نزهة في شوارع المدينة، وبقينا، أنا وليلى، نتابعهما إلى أن خرجا من حلمنا.

4

كان لي نهار طويل في المدينة، نقلتُ في سيّارتي نساء ورجالًا إلى شتّى الجهات، بعض الرجال ميّالون إلى الثرثرة ونثر التعليقات، أما النساء فأكثر ميلًا إلى الصمت عمومًا، ربّما لئلا يُفهمنَ خطأ إذا ما تبسّطنَ في الكلام.

كنت أرتدي بنطال جينز أزرق وبلوزة رماديّة، وكنت معتدًّا بقوَّة ساعديّ وبتناسق مظهري الذي يغبطني عليه الأصحاب. حين اقترب وقت العصر، جلستُ خلف عجلة القيادة في انتظار ركّاب آخرين، في الموقف القريب من باب العمود. لم أكن ممَّن يهدرون الوقت.

أخرجتُ كتاب «شارع الأميرات»، كنت وضعته في جيب السيَّارة لكي أقرأ فيه كلَّما وجدتُ وقتًا لذلك. انهمكت في القراءة بعد أن أقصيت نفسي عمّن حولي، وكنت معجبًا بعلاقة الحبّ التي نشأت بين لميعة العراقيّة وجبرا الفلسطيني.

بعد عشرين دقيقة، رفعتُ عينيّ عن الكتاب. كانت حركة الناس فوق الأرصفة على أشدّها، والمدينة تعيش يومها بامتلاء، كما لو أنّها تعلن رفض كوْنها مدينةً تحت الاحتلال.

أعدتُ الكتاب إلى مكانه، وكانت أجواء السيرة المبثوثة فيه ما زالت تبعث في نفسي أبهى المشاعر. تأمَّلتُ ما حولي بعينيّ عاشق ولهان.

فجأة، ظهرت ليلى وهي تسير نحوي على الرصيف. لم أصدِّق عينيّ للوهلة الأولى. كانت ترتدي جلبابها الرماديّ، وتغطِّي كعادتها شعر رأسها

بمنديل له لون سماء مزينة بغيوم. ولم تكن تتلفَّت إلى يمين أو إلى شمال، تجنّبًا لتعليقات قد تطاولها من بعض المارّة. كان طولها الفتَّان يشي بامرأة فائقة الجمال، وهي تمشي بخطى موزونة رائقة.

لم يكن الأمر مجرّد صدفة. كان هذا واحدًا من تدابير النساء حين تلحّ عليهنّ رغبة ما. فتحتُ الباب الخلفيّ للسيَّارة.

جلسَت وقالت: خذني إلى البيت لو سمحت.

لم أكترث لنظرات الفضول من بعض زملاء المهنة الواقفين على مقربة من سرب السيّارات، ولا ليلى اكترثت لنظراتهم.

شغَّلتُ المحرِّك وانطلقت السيَّارة في الشارع الرئيس. كنت أشمُّ رائحة صابون نابلسيّ قادمة من جسدها. كانت هذه الرائحة تذكّرني بأشجار الزيتون. وكنت أشكر في سرّي المصادفة التي جعلت ابنة عائلة موسرة تقع في حبّ سائق سيّارة أجرة، كان ذلك بشيرَ سَعْدٍ ومسرّة. واعتقدت في بعض الأحيان أنّني أحيا في حلم، وأنّ ليلى ليست سوى وهم لذيذ.

في الطريق، تمازحنا ببراءة وانسجام، مددتُ يدي إلى الخلف لتلمُّسِ يدها. تعانقت يدانا.

قلت وأنا أتقمَّص شخصيّة صاحب السيرة:

– أنت لميعة المسلمة وأنا جبرا المسيحي.

ردّت على الفور:

– أنا ليلى العامريّة وأنت قيس المجنون.

راقني ردّها، ثمّ راقبتُ تعابير وجهها عبر المرآة، وبدت حائرة بعض الشيء، سألتني:

– هل تقصد لميعة العسكري وجبرا إبراهيم جبرا؟!

خفّفتُ سرعة السيَّارة، ومددتُ يدي اليمنى إلى الجيب المغلق، فتحته وأخرجت كتاب السيرة، عرضته عليها وقلت:

– نعم، أقصدهما، وهنا قصَّة حبّهما.

أثار الكتاب فضولي، طلبت منه أن يعيرني إياه حين يفرغ من

قراءته.

وعدتُها بأن أعيرها الكتاب، حلَّت لحظات صمت. نظرتْ نحو الخارج ثمّ ارتدَّ بصرها نحوي وقالت:

– الخوف يتربَّص بي في كلِّ وقت.

قالت إنّ أباها منذ أن فارَ جسدها في وقت مبكر، لم يعد مطمئنًّا، وحين كبرتْ وصارت امرأة ناضجة الأنوثة، صار شقيقها مصطفى على قناعة بأنّها ستجلب ذات يوم عارًا للعائلة. اشترى مسدَّسًا وأخفاه في مكان سريّ.

قالت:

– كنت أتأمّل جسدي في المرآة، وأستغرب نفور أبي وشقيقي منه وهو على هذا القدر من الوداعة والوفرة والجمال.

راقني وصْفُها جسدَها، لكنّني ابتلعتُ ريقي، وشعرتُ بقلق. أوقفتُ السيَّارة قريبًا من البيت. قلت:

– تفضّلي يا ليلاي.

قالت وهي تنزل من السيّارة:

– شكرًا لك يا مجنوني.

ابتسمتُ، وبقيتُ أتابع خطوها الرشيق إلى أن غابت عن نظري، ثمّ غادرتُ المكان وأنا أفتقد طمأنينة تحضر حينًا وتغيب آخر، وأقول لنفسي: أنا مجنون ليلى، وعليّ أن أجازف من أجل ليلى بكلّ شيء.

***

جاءت في الليل. فرحتُ حين التقيتُها، كانت بلا جلباب وبلا حجاب. ولم يكن هناك رقيب. اقتربتْ منّي ووقفنا معًا قرب الشبَّاك.

بياض جسدها يتلامح من تحت قميص النوم، وشعرها منعوف على وجهها وعلى صدرها. قالت باعتداد: أنا لا أخاف.

ران علينا صمت، تلفتُّ في كلّ اتجاه، ولم أستطع تحديد المكان. سألتها: «هل تعرفين أين نحن الآن؟»، قالت: «لا، ولكنّني ما زلت في

قميص النوم!».

بقينا حائرَيْن نبحث عن جواب. في الأثناء، رأينا العمّ محمّد الأصغر يتّجه صوبنا ويجلس على مقعد قريب، ورأينا سناء تجلس إلى جواره وتفتح كتابها لتقرأ فيه. قلت: «نحن في مطعم خارج سور المدينة، وها هي ذي نادلة جميلة تتفقّد الزبائن لتعرف ماذا سيأكلون». قالت: «سأخلع قميص النوم إذن وأرتدي الفستان». قلت: «لا يهمُّ يا ليلى، ابقَيْ كما أنت».

سكتتْ على مضض، ورحنا نتابع العمّ محمّد. رأيناه يفتح دفتره السميك، يكتب فيه بضعة أسطر، تندلع من بين الأسطر صيحةٌ ممطوطة لرجل يتألّم مثل حيوان جريح، تملأ صيحاته فضاء حلمنا. ارتعش جسدي، وبدا جسد ليلى كما لو أنّه تعرَّض لانتهاك.

حين أنهى الكتابة أغلق دفتره وتأمَّل وجه زوجته الجالسة إلى جواره.

قالت ليلى: «كأنَّه يكتب عن حادثة مؤلمة».

قلت: «ربّما».

وأضفتُ: «كأنَّني سمعت هذه الصيحات من قبل».

رحت أتذكَّر أين سمعتُها، رأيت شبحًا لفتاة غاضبة. قلت: «كأنّها شقيقتي لمياء»، ثمّ غاب الشبح، وبقيتُ مبلبَلَ الذهن. اقترحتُ على ليلى أن نغادر المكان. قبضتُ على يدها وركضنا في الشارع المحاذي لسور المدينة، وحين تعبنا من الركض اتجهنا نحو المقهى وجلسنا فيه، ثمّ جاء العمّ محمّد الأصغر وسناء، وعجبنا كيف أنّنا تركناهما في المطعم ثمّ ها هما يظهران هنا من جديد. كانت تتقدَّمه بخطوات. نظرتْ في المرآة المثبّتة قرب باب المقهى، ربّما لكي تطمئنَّ إلى ما تبقّى لها من جمال. هو أيضًا فعل الشيء ذاته، ربّما لكي يطمئنَّ إلى أنّه ما زال قادرًا على الصمود في وجه الزمن.

قلت لليلى وأنا أنقِّب في ثنايا حلم سريع: «إنّها زوجته، عاشت حياتها معه من دون أن تنجب ولدًا أو بنتًا».

ثمّ لمتُ نفسي لأنّني ذكرت الإنجاب، إلّا أنّ ليلى لم تكترث لذلك ولم تعلِّق عليه.

فجأة، ظهرت ممرِّضة، اعتقدتُ للوهلة الأولى أنّها أمِّي. بدت كما لو أنّها خرجت من دوامها في المركز الصحيّ القريب، وجاءت إلى المقهى لاستراحة قصيرة.

قالت ليلى: «لو لم تكن زوجته لما استطاعت الجلوس معه في مقهى».

رددتُ على الفور: «لكنّكِ لست زوجتي وأنت تجلسين معي».

ابتسمت وقالت: «أنا متمرِّدة».

تلمَّستُ شعر رأسها بحنان، ثمّ واصلنا النظر إلى العمّ محمّد.

فتح دفتره السميك وراح يكتب فيه، وكانت الممرِّضة تضع ساقًا على ساق، تتأمَّل بياض ركبتها التي انحسر عنها معطف التمريض. حدَّقتُ فيها وراقتني الوداعةُ التي تجلِّل وجهها وتتبدَّى في عينيها وهي تشرب الشاي، وكنت أتصرَّف بحذر وانتباه كي لا تغضب منّي ليلى.

فجأة، خرج من ثنايا الدفتر ذلك الصوت الذي يشي برجل يتألَّم مثل حيوان جريح، ثمّ سمعناه يتلفَّظ بكلام مبهم: «ابنتي، ماذا؟ ابنتي؟!».

اقشعرَّ بدن ليلى. همستُ في أذنها: «أظنُّ أنّني أعرف ماذا جرى، وأعرف أنَّ دمًا سال من أطراف هذه الحكاية، لكنّني لست متأكِّدًا من شيء الآن».

5

وكان الصباح غامضًا مثل نحاس قديم، أو ربّما كنتُ متطيّرًا لسبب أو لآخر. نظرتُ نحو الجنود المتأهّبين لإطلاق النار قريبًا من باب العمود، كما لو أنّهم في جبهة للقتال. أمامهم نساء وأطفال ورجال عُزّل يمضون في كلّ اتّجاه ببراءة متناهية، وكان المشهد ينطوي على تناقض غريب.

كانت في الطقس برودة ما، وثمَّة غيوم في السماء لا تفصح عمَّا في بالها من رغبات، ولم يأتنا ركّاب طوال ساعة، مع أنّ حركة الناس على الأرصفة وافرة مثل سيل لا يكفُّ عن الجريان. تذكَّرتُ ابنة عائلتي نفيسة وتأسّيتُ لما وقع بيني وبينها. وتذكّرتُ اسم ماريا زخاروفا، الاسم الذي رأيته مدوَّنًا في الدفتر السميك. دوَّنتُ اسمها على شاشة هاتفي المحمول. ظهرت بوجهها الجميل. قرأتُ عنها بعض معلومات، شاهدتها وهي ترقص بفستانها الأسود القصير. كانت بارعة في الرقص، عجبتُ من اهتمام العمّ محمّد الأصغر بها، وتساءلت: ما علاقتها بما نحن فيه من أوضاع...؟

بقي تساؤلي معلَّقًا حين اقترب منّي رهوان، ووقف أمامي يتأمّلني بفضول.

قال: «أنت تخفي عنّي شيئًا».

ظلَّ يحدجني بعينيه ويمعن في الصمت، ربّما لكي يستفزّني أو يُحدث في نفسي التأثير المطلوب. بعد ذلك قال: «لديك صديقة جميلة».

وأضاف بعد صمت مقصود: «لا تنسَ أنّني قريبك وصديقك، وحين يتعلّق الأمر بالنساء فمن واجبك أن تطلعني على كلّ شيء».

ثم أردف: «ربّما كانت لها صديقة تعرّفني إليها، ونصير أحلى أربعة».

لم أعرْ كلامه أيّ اهتمام. ثم جاءت راكبة ومعها طفلتها، وكان دوري لنقل الركاب.

***

كنّا اتّفقنا على زيارة الوالدة، كان ذلك بطلب منّي حدّ الإلحاح.

لوالدتي سحر خاصّ، وكنت معنيًّا بأن تتعرّف ليلى إليها، وأن تتعرّف هي إلى ليلى، لعلّ هذا يعزّز أواصر العلاقة بيننا. كنت أخشى أن تطير ليلى من بين يديّ.

حدّدنا موعدًا وذهبنا إليها. جلستْ ليلى في المقعد الخلفيّ، وكان حضورها الطاغي يملأ فضاء السيَّارة، وكنت أرغب في أن أراها إلى جواري، امرأة شابّة في الثالثة والعشرين، جمالها خلَّاب، تحبُّ سائق سيَّارة أجرة، وتمضي معه لزيارة أمِّه... لعلّ ذلك يضع العلاقة الناشئة بينهما على الخطِّ الصحيح.

كنت أشعر بأنّ قصَّة حبّنا هذه ليس لها مثيل، ثمّ أعود إلى نقض هذا الشعور لأقول لنفسي إننا – أنا وليلى – لسنا على بال أحد، وحبّنا هذا أصغر من أن تكترث له المدينة، ثمّ أنقضُ هذا الاستصغار من جديد فأشعر بأنّ المدينة لا تسعني، وأنّني هائم بحبّ ليلى.

قدتُ السيَّارة من باب العمود نحو باب الساهرة، ثمّ انعطفت بها نحو اليسار نازلًا مسافة ليست قصيرة، ومن ثمّ رحت أصعد في طريق الجبل، والمدينة مضغوطة على نفسها، محاصرة بالمحتلّين الذين يتغلغلون فيها من كلّ الجهات. ورغم ذلك، كانت فرحتي بليلى أكبر من ألم الحصار، كنتُ أشعر كما لو أنّني أطير، وكم كنت مبتهجًا وأنا أترقَّب اللقاء الذي سيتمّ بعد وقت قصير!

وصلتُ نهاية الشارع الصاعد وانعطفتُ نحو اليمين إلى مستشفى الأمل. كانت ليلى مرتبكة لأنّها ستقابل امرأة تراها للمرّة الأولى.

كنت مرتبكة بالفعل، وقلت إنّني أشعر بالخجل.

قلت لها لأخفِّف من ارتباكها: «أمِّي إنسانة متواضعة، محبَّة للناس، وستفرح للقائك والتعرُّف إليك».

دخلنا المستشفى. تنشَّقنا روائح الأدوية وراقنا هدوء المكان. تعاطفنا مع مخاوف المرضى ومع الشحوب البادي على وجوههم، ثمّ اتّجهنا إلى القسم الذي تعمل فيه أمِّي. قيل لنا إنّها في غرفة العمليَّات، وبعد قليل تخرج هي والأطبَّاء وبقيَّة الممرّضات.

جلسنا في إحدى صالات الانتظار، تلهّينا بمتابعة الناس الداخلين إلى غرف المرضى والخارجين منها، وبالنظر إلى الممرِّضات اللواتي يدرجن هنا وهناك مثل حمَامات بِيض. انتظرنا من دون ملل إلى أن خرجت أمِّي وهي ترتدي معطف التمريض. ابتهجتُ لمنظرها، كانت مثل وردة متفتِّحة في وضح النهار. ورغم انقضاء السنوات الطوال إلّا أنّها ما زالت محتفظة بجمالها وبرشاقتها.

حين رأتنا مشت نحونا برصانة وثقة، قبّلتُ خدَّيها وقبَّلتْ جبيني، ثمّ احتضنَتْ ليلى وقبَّلتها، وتأمَّلتْ وجهها بمحبّة وإعجاب.

تأمّلتُ وجهها البهيّ وابتسامتها العذبة. وجدتُ في ملامح قيس كثيرًا منها.

ذهبنا معًا إلى مقصف المستشفى لنشرب الشاي، مشت أمّي وليلى في الأمام، ومشيت خلفهما مثل حارس أمين. شعرتُ بأنَّ هذا الحبّ الذي جمعني بليلى يسير على قدميه من دون منغِّصات حتّى الآن.

6

جاء رهوان.

رأيناه من بعيد وهو يقود سيَّارته وسط سيل من زحام السيَّارات، وكان عليه أن يمضي نحو الدوّار، ثمّ ينعطف ويعود في الاتِّجاه المعاكس ليوقف سيَّارته خلف سيَّاراتنا في الموقف المحاذي للرصيف.

تابعته بعينيّ وهو يزاحم بسيّارته بقيَّة السيَّارات، تذكّرتُ في حياد أنّه أحد أبناء عائلتي، اختار أبوه، عليوان، الذي يعمل آذنًا في إحدى المؤسّسات، أن يقيم في المدينة مع امرأة قرويّة اسمها زهيّة كانت تبيع الخسّ وورق الدوالي والزعتر والنعناع في السوق. أحبّها باستماتة، وكان يقول لأقاربه إنّ لها جسدًا يذكِّره بالأرض البكر. تزوَّجها، واستأجرا بيتًا قريبًا من المسجد الأقصى، وسكنا فيه.

مع تكاثر النسل وتفرّع العائلات، انقطعت الصلة مع هذا الفرع من العائلة، ولم يعد عليوان معنيًّا بما يجري من أحداث في راس النبع، حيث تقيم عائلة العبد اللات. ولم تكترث العائلة لانفكاك عليوان من الرابطة العائليَّة، اعتبرته خاسرًا ولم تأسف عليه، وحين كان يمرُّ ذكره في ديوان العائلة لم يكن أحد يتلفّظ باسمه الصريح، صار لقبه منذ تخلّى عن العائلة: زوج زهيّة، ولا يذكرون ابنه رهوان إلّا لمامًا.

قام رهوان بالانعطافة المألوفة، أوقف سيَّارته ونزل منها، وكان منفرج الأسارير، والصباح الرخيّ يوحي بأنَّ حياتنا في هذه المدينة على ما يرام، وهي ليست كذلك، لكنَّه كرم الطبيعة في بلادنا التي تمارس طقوسها

باعتدال ومن دون مفاجآت، تشهد على ذلك حجارة سورها القديم التي صمدت في وجه الزمن.

حين لا يكون ثمَّة راكب أو راكبة نجلس أنا ورهوان وبقيّة زملاء المهنة على السور الحجريّ الواطئ المحاذي للرصيف والمقابل لسور المدينة، نتبادل شتَّى الأحاديث. كان رهوان أبرعنا في سرد الحكايات، وله تميُّز خاصّ في سرد أخبار النساء.

فاجأني هذا الصباح حين قال لي:

– أين وصلت مع غزالتك الجميلة؟

رجوته بهدوء وانضباط ألّا يتدخَّل في ما لا يعنيه.

ظلَّ مصرًّا على موقفه. قال:

– تعنيني أمور النساء، وغزالتك تستحقُّ الانتباه.

كان الصباح الأبلج يفرض منطقه عليّ، فلم أشأ أن أعكِّر صفوه. فتحت باب سيّارتي وجلست خلف مقودها، ورحت أفكّر بليلى.

***

في يوم عطلتها الأسبوعية جاءت.

رأيتها وهي تمشي على الرصيف، فتحتْ باب السيّارة وجلستْ في الكرسي الخلفيّ، وكنّا اتّفقنا من قبل على الذهاب إلى البرّيّة.

حين ابتعدنا عن المدينة، أوقفتُ السيّارة على يمين الشارع، نزلتْ ليلى وركبت إلى جواري. كنتُ منتشيًا وهي ترافقني إلى المكان الذي عاش فيه أجدادي وكانت لهم فيه صولات وجولات. كانوا بَدْوًا مقيمين في أرض لهم في البرِّيَّة قبل أن يرحلوا منها إلى مشارف القدس ويشيّدوا بيونًا من حجر في راس النبع.

أنا لا أعتبر نفسي بدويًّا، لأنّني لم أولد في البرِّيَّة، ولم أولد في بيت من شَعر. ليلى تعتبر نفسها يافاويَّة برغم أنّها لم تولد في يافا. أحيانًا حين يبلغ حبُّها القدس أقصى مداه تقول إنّها مقدسيَّة.

ذهبنا إلى هناك، وكانت أشعّة الشمس تغمر الجبال البعيدة وتجعلها أكثر بهاء. قدتُ سيَّارتي بانفعال، خوفًا من متلصِّص يظهر لنا على غير توقّع فيراها معي ويجعل حياتها مع أهلها عُرضة لاهتزاز. كانت تغطّس جسدها في المقعد، ولا تترك فرصة لأحد كي يتعرَّف إلى وجهها.

وحين ابتعدنا كثيرًا من محيط المدينة عدَّلتْ جلستها، وراحت تتأمَّل الجبال التي تزيّنها الأشجار، الأشجار التي تتنافس على الحيِّز المتاح من الأرض مع البيوت، البيوت التي تحفُّ بها أشجار من مختلف الأنواع.

أوقفتُ السيَّارة على مقربة من أرضٍ لعائلتي في البرّيّة، ومشينا.

كانت الأعشاب جافَّة، والخريف يفعل فعله فيها ولا مطر بعد، والبرِّيَّة بسهولها وجبالها تبدو مترامية الأطراف، وتوحي بالمهابة وبتاريخ لا يمكن اختصارُه بجرَّة قلم، أو إقصاؤه بالكذب وتزوير الحقائق، وهي مسربلة بسكون رهيف، ولا يعكِّر جمال المشهد سوى مستوطَنة غريبة عن المكان، تزحف مثل خلايا السرطان نحو أرض البرِّيَّة، تقضمها على مهل، ولست أدري كيف يطيب العيش لسكّانها وهم يعلمون أنّهم يحيون فوق أرض ليست لهم.

رغم ذلك، كنت مزدهيًا وأنا أرى ليلى تدرج إلى جِواري مثل حمامة. اقتربنا من قبور الأجداد والجدَّات التي يلفّها صمت مهيب، جلسنا قريبًا من قبر أحد أجدادي: محمّد العبد اللات. اهتزَّت مشاعري وأنا أتذكَّر ما قيل لي عن هذا الجدّ الذي تشبّث بمتع الحياة الدنيا حدّ الإفراط، ثمّ زهد في كلّ شيء، بعد أن شعر بدنوِّ أجله، وبأنّ ثمَّة موتًا يتربَّص به.

فكَّرتُ بأن أحدِّثها عن هذا الجدّ وعن زوجته صَبْحا التي كانت تروي الحكايات، فكَّرتُ بأن أقفز عن زمن الأجداد لأحدِّثها عن أمِّي زهور، التي تعرّفَتْ إليها قبل أيّام، وعن استياء العائلة من أبي لأنّه تزوَّج ممرِّضة تكشف، بمقتضى مهنتها، عن أجساد الرجال. لكنّي وجدتُها منصرفة إلى تأمُّل جمال البرِّيَّة، فقلت لنفسي: لن أصرفها عمَّا هي فيه.

كنت مبهورة بجمال الطبيعة، وكنت أدرك أنّ لدى قيس ما يرغب في قوله، فلم أُطِلِ التأمُّل في ما حولي من جمال.

بعد دقائق، انتبهتْ لي ليلى، راقني جمال خدّيها وعينيها في هذا النهار الخريفيّ، حدّثتها بإيجاز عن الجدّ عبد الله الذي قتل عند بئر الماء، عن فرسه التي عادت إلى مضارب العشيرة وهي تضرب بقائمتيها الأرض، عن زوجته مهيوبة التي أعلنت الحداد عليه سبع سنوات. واصلنا الجلوس جنبًا إلى جنب، وكانت سيرة الأجداد تحيط بنا وتتمدّد في تفاصيل المكان، حدّثتها عنهم باختصار، وكان لجسدها حضور فتّان طغى على كلّ ما حوله. كنّا نصمت حينًا، ونضحك ونتكلم أيّ كلام حينًا آخر إلى أن مرّت ساعتان، ثمّ عدنا إلى المدينة، وتفرّقنا، هي إلى بيتها في بيت حنينا الجديدة، وأنا إلى بيتي في راس النبع. كنت أشعر بأنّني محظوظ، وبأنّ حياتي توشك على دخول مسارٍ لم يكن في البال.

غيرَ أنّ الوسواس تلبّسني على نحو مفاجئ: كيف ستكون حالي إنْ طارت ليلى من بين يديّ؟! كأنْ تعتقلني سلطات الاحتلال مثلًا وتحكم عليّ بالسجن، فلا تنتظرني ليلى وتصبح في حلّ من علاقة الحبّ التي نسجناها معًا، أو كأن يرفضني أهلها ويعتبروا أنّني لستُ كفؤًا لهم، أو كأن تكتشف السرَّ الذي ما زلت أكتمه عنها حتّى الآن، سرّي مع ابنة عائلتي نفيسة.

وكنت في بعض الليالي أحلم حلمًا لطالما تكرّر وأضناني: أرى فتاة ممشوقة القوام تقطع الشارع من أمامي وأنا أقود سيّارتي، وبدلًا من الضغط على دوّاسة الفرامل أقع في خطأ مريع فأضغط على دوّاسة البنزين، فتزداد سرعة السيّارة فتصطدم بالفتاة وتطوّحها في المدى المنظور، ولا تتوقّف إلّا بعد الارتطام بشجرة معمّرة في حقل قريب، فيتجمّع من حولي الناس وهم يقولون: ماتت الفتاة، قتلها هذا السائق، ومات بدوره، أنهض من موتي وأحدّق في وجه الفتاة، فأرى حبيبتي ليلى، وأمعن في البكاء، ثمّ أصحو من نومي وأنا خائف مذعور، فلا يهدأ بالي ولا يأتيني نوم إلّا بعد عناء.

7

وصل رهوان، غادر سيّارته بعد أن أوقفها خلف سيّاراتنا.

كان متدثِّرًا بمعطف، وعلى رأسه طاقيَّة من صوف يناسب برد الأسابيع الأخيرة من فصل الخريف. جلس على حافّة السور الواطئ غير بعيد منّا. أخرج علبة السجاير ودخَّن سيجارة وهو لا يلتفت إلى أحد. بدا كأنّه ممثّل في فيلم سينمائيّ صامت.

احترمنا صمته، ولم نشأ أن نعكّر مزاجه بطرح الأسئلة عليه. ظلّ يدخِّن سيجارته ونحن نتبادل أطراف الحديث، ولربّما كان يسمعنا، بل من المؤكّد أنّه كان يسمعنا، لكنّه لم يشأ أن يشارك في الحديث، وكان ضجيج المدينة أعلى من المعتاد، أو هذا ما شعرت به في ذلك النهار.

دخَّن سيجارة ثانية ثمّ ثالثة، وكان بين الحين والآخر يُخرج هاتفه المحمول من جيب معطفه، يفتحه ويتابع كما يبدو حسابه على الـ«فايسبوك»، يضع الإعجابات سريعًا ثمّ يغلق الهاتف ويعود إلى التدخين. من خلفه كان الجنود يرقبون حركة الناس في غدوّهم ورواحهم. لم يكن المشهد مُريحًا بأيّ حال.

كدتُ أُشركه في حديثنا عن عسف الجنود الذين قتلوا خلال الأشهر الأخيرة عددًا من الشابّات والشبّان عند باب العمود، على مسافة قريبة من موقعنا هذا الذي نشغله. بعض عمليّات القتل هذه تمَّت على مرأى من عيوننا، ولم نستطع فعل شيء.

وجدتُه مستغرقًا في حوار داخليّ، فلم أشأ أن أقطع حواره. ثمّ جاء دوره لنقل الركّاب. وقفت امرأة قرب سيّارته وفتحت الباب، فهبَّ مسرعًا، فتح باب السيّارة وجلس خلف عجلة القيادة، ومضى نحو جهة ما.

***

عاد بعد ثلاث ساعات، وهو على غير الحالة التي كان عليها في الصباح.

أدركْنا أنّ لديه ما يقوله. كنّا ندير ظهورنا لسور المدينة، وقف في مواجهة السور فبتنا نرى ملامحه بوضوح وهو يتلفَّظ بالكلام، كان بريق عينيه ينمّ عن مفاجأة سارّة.

قال إنّ المرأة طلبت منه أن يوصلها إلى بيتها في الحيّ الشمالي الواقع على تخوم مستوطنة «قمَّة الذئب» القريبة من القدس.

– دار بيني وبينها حديث وأنا أنظر عبر المرآة إلى وجهها الذي يشي بأسى خفيف. سألتها إنْ كان لديها عمل تؤدِّيه فقالت إنّها تعمل في البيت.

ثمّ راح يخلط كلامًا في كلام، قال:

– كنت في الصباح متعكِّر المزاج لأنَّ امرأة صدَّتني حين أبديتُ إعجابي بجمالها ودعوتها إلى لقاء، هدَّدتني بأشقَّائها. اعتذرتُ منها ولم تقبل الاعتذار، إلّا أنّها كما يبدو كتمت الأمر ولم تخبر أحدًا، ولم يخفِّف من نكدي سوى تلك المرأة التي جلست في الكرسي الخلفيّ، وقالت إنَّ اسمها فريال.

تابع:

– أثارت فضولي، سألتها عن طبيعة حياتها هي وبقيّة سكّان الحيّ الصغير الواقع على تخوم المستوطَنة.

قالت إنّهم لا يختلطون بالمستوطنين ولا يقيمون أيّ علاقة معهم، لكنّهم يرمون قمامتهم أمام بيوت الحي في بعض الأحيان.

قال:

– تعاطفتُ معها وأبديتُ استيائي ممّا يفعله المستوطنون، طلبتْ منّي أن آخذ الأمر ببساطة، وقالت إنّ بإمكاني الدخول معها لكي أشرب فنجان قهوة في البيت.

أوقفتُ السيَّارة في ساحةٍ قريبة من بيتها، غير بعيد من المستوطنة. أخبرتني ونحن ندخل البيت بأنّها ستدعو صديقتها سميرة لتشرب معنا القهوة. هاتفَتْها، وبعد نصف ساعة جاءت. كانت ترتدي تنُّورة قصيرة. جلستْ قبالتي ووضعت ساقًا على ساق. ظلَّت تبدِّل وضع ساقيها وأنا أذوب من الانفعال. نهضتْ ومدَّت يدها إليّ وقادتني إلى غرفة نوم مُسدلة الستائر، وكانت فريال هي التي أغلقت علينا الباب.

قال موجِّهًا كلامه إليّ:

– لن أنساك من النعم التي تهبط عليّ يا ابن العمّ.

كان دوري لنقل الركّاب قد حان. جاء راكب وراكبة، أخذتهما في سيّارتي ومضيت مبتعدًا. كانت المدينة تنوء بكمٍّ وافر من الحكايات، بعضها غثٌّ وبعضها الآخر ثمين.

ولم يكن يروقني إلّا ما تقوله ليلى لي.

8

قالت ليلى:

«استيقظتُ من النوم في وقت مبكر كالعادة، تذكَّرتُ بعض أحلامي الليليَّة، ثمّ سارعت إلى الحمَّام. فتحتُ صنبور الماء واغتسلت.

خرجتُ من تحت الماء وأنا أشعر بانتعاش، نشَّفت جسدي ولم أمشّط شعري. نظرتُ عبر الشبَّاك، وكان الصباح هناك نابضًا بهيًّا مثلَ طفل يتعلَّم أولى الكلمات.

تحلَّقنا حول المائدة لتناول طعام الفطور، وكان شعري لا يزال متناثرًا على صدري وكتفيّ. ربّما لكي أوحي لأبي ولأشقَّائي بأنَّني أحترم المواعيد، لذلك فضَّلتُ القدوم إلى المائدة بشعر غير ممشّط كي لا أتأخّر عن الموعد المألوف.

جلس أبي على رأس المائدة مثلما يفعل باستمرار، وكان يحدِّق بشعري. ظلَّ يحدِّق به باستغراب. سارعتُ إلى غرفتي، جمعته في منديل وعدتُ إلى المائدة، فلم تعد نظرات أبي حارقة مثلما كانت قبل لحظات.

جلستْ أمِّي على الطرف المقابل له. جلستُ قريبًا منها، وجلست شقيقتي رجاء، التي تصغرني بعامين، إلى جواري. جلس أشقَّائي الثلاثة إلى جوار أبي. كان اصطفافنا على هذه الشاكلة يشي بأنَّنا عائلة ذكوريَّة، وأنّ حربًا تدور بيننا، في الخفاء حينًا وفي العلن أحيانًا.

ثمَّة جدران سميكة تفصل بين الرجال والنساء في عائلتي. ثمَّة جدران أيضًا بيننا وبين الناس، فرجال العائلة لم يعودوا مستعدّين لإقامة علاقات مع الناس إلّا بحذر شديد. ربّما كانت لجريمة الاقتلاع من يافا علاقة بذلك، وربّما كان للظروف المعقّدة الراهنة علاقة، ربّما كان لانهيار القيم علاقة. أكثر الناس يُظهرون غير ما يبطنون، يصلّون الأوقات الخمسة ولا يتورّعون عن الدخول في صراعات جانبيّة لأتفه الأسباب، وبعضهم يمارسون العبادات كلّها وفي الوقت ذاته يقترفون بالسرّ «السبعة وذمّتها» كما يقال. كان لأبي قول مأثور يردّده بين الحين والآخر: مَن خاواك آذاك. لم أكن مقتنعة بهذا الكلام برغم ما شاب علاقات الناس في السنوات الأخيرة من تبدّلات.

انهمكنا في تناول الطعام، وكنَّا نتبادل نظرات خاطفة بين الحين والآخر، كما لو أنَّنا نرصد المواقع التي قد يأتي منها الخطر، أو ينطلق منها الهجوم لأيّ سبب. استبدَّ بي إحساس بأنَّنا مجرَّد مشهد عابر في فيلم هزيل، أو لعلّ أبي يمثّل دور الأب المستبدّ وهو غير مقتنع في قرارة نفسه بالدور، لكي يردعنا عن أيّ فعل قد يمسّ سمعة العائلة. ولكن كيف تمكن معرفة الحقيقة الكامنة خلف سلوك أبي؟! لستُ أدري.

قالت أمِّي لكي تقطع حبل الصمت:

– الطقس دافئ هذا الصباح، وهذا الخريف محتمل.

قال فؤاد، شقيقي الكبير:

– أحبُّ الطقس الدافئ.

نظر أبي نحوه بارتياح وابتسم. ظلّ شقيقاي مصطفى وعادل صامتيْن.

قالت شقيقتي رجاء:

– لا أحبُّ الطقس الدافئ.

وأضافت ببراءة:

– أعشق الطقس البارد.

نظر أبي نحوها وهو مقطِّب الجبين، ثمّ قال بلهجة تنمُّ عن نزق:

– أكره اللغة الملتبسة.

نظرنا نحوه بحذر، وحدَّق فينا، أنا وشقيقتي، بنظرات اتِّهام بدا كما لو أنَّه يفتِّش بها عن ذنبٍ ما قد نكون ارتكبناه، ثمَّ استمرَّ يمضغ طعامه باستعجال.

كرّرت رجاء كلامها بالبراءة نفسها:

– أعشقه.

احتدّ أبي وقال لها:

– اسكتي، اسكتي.

ولتعفي نفسها من الكلام، تشاغلتْ أمِّي بصبِّ الشاي لنا في كؤوس من خزف (ستقول في ما بعد: لم يكن هذا التزمّت موجودًا من قبل، إنّه طارئ علينا ودخيل. كانت لنا في أوقات سابقة حياة متفتحة، وكانت لنا أحاديث مختلفة، كانت عن قمع الاحتلال الناس، عن الحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة، والآن اختلفت الحال).

ارتديتُ فستاني الخمريّ، تأمّلت جسدي في المرآة، ارتديتُ الجلباب ووضعت على رأسي المنديل، وخرجت».

***

قالت:

«ذهبتُ إلى المدرسة كالمعتاد، المدرسة المزروعة في قلب القدس القديمة. وكان الصباح مطعّمًا بنسائم عليلة، والناس ينتشرون في الطرقات وفي الأسواق مثل نمل يسعى إلى رزقه. علَّمتُ البنات والأولاد دروسًا في اللغة وفي قواعدها. تذمَّرتِ البنات وتذمَّر الأولاد من صعوبة الدروس، أشفقت عليهنّ وعليهم ثمَّ شجَّعتهنّ وشجَّعتهم على الاحتمال وتكريس وقت كافٍ لاستيعاب الدروس. كنت أفكّر في المستقبل الذي ينتظرهنّ وينتظرهم في مدينة مكبّلة بالقيود.

رثيتُ لحالهنّ وحالهم بسبب فقر المعلومات في زمن ملتبس. الأولاد يعرفون شيئًا عن وعد بلفور ولا يعرفون من هو جمال عبد الناصر. البنات

يعرفن شيئًا عن نكبة 1948 ولا يعرفن من هو جورج حبش أو فؤاد نصّار. إحدى الزميلات تقول بلهجة فيها امتعاض:

– مش فارقة معي، عمرهم ما تعلّموا.

تَمازحنا أنا وزميلاتي المعلِّمات في الاستراحات القصيرة بين الحصص الدراسيَّة. كنَّا نتسلَّى بالتعليق على ألوان الفساتين التي نرتديها تحت الجلابيب، وعلى ألوان المناديل. وكنَّا نتحدَّث بكلمات خاطفة عن حملات تفتيش البيوت المباغتة، وعن ترويع الأطفال وإيقاظهم من نومهم، ورؤية الأمّهات وهنّ في قمصان النوم.

تحدثنا عن الذكور وإثارتهم الشكوك في نوايا النساء كلّما خرجن من بيوتهنّ أو كلّما عدن إلى البيوت بعد غياب لا يمتدّ لأكثر من ساعتين أو ثلاث. كانت زميلاتنا اللواتي لا يرتدين الجلابيب يستمعن إلينا ويبتسمن، ويقلن من دون مواربة أو تمويه، ومن دون إيغال في ذمّ الأزواج: الحال من بعضو أيّتها الزميلات، إلى حدٍّ ما.

كانت إحدى الزميلات تجد متعتها في الحديث عن اللحظات الحميمة التي تقضيها مع زوجها في الفراش، تصف كلّ شيء من دون أيّ إحساس بالحرج.

ثمّ ضحكنا حين فتحت إحدى الزميلات هاتفها المحمول وقرأت علينا ما كتبه أحدهم على الـ«فايسبوك»: الهاتف سبب كثير من المصائب، لن أتزوّج امرأة لديها هاتف.

أمعنّا في الضحك حين أخبرتنا أنّه حصد على هذا التعليق مئات اللايكات.

وكنَّا نكشف عمَّا في دواخلنا من نزعات تمرُّد تتبدَّى بطرائق مختلفة تبعًا لمزاج كلّ واحدة منّا ولمزاج أهلها. كان طيف أبي يجتاح ذاكرتي مثل طوفان، ومسدّس شقيقي مصطفى يَلُوح لي مثل موت مؤجَّل. لم أكشف سرّي لأيٍّ من زميلاتي، لم أخبر أسمهان، وهي زميلتي المقرّبة، أنّني غاطسة في الحبّ حتّى الثمالة. أبقيتُ الأمر مكتومًا إلى اللحظة

المناسبة. أسمهان، على عكس كثيرات من الزميلات، تبدو مرتاحة مع زوجها، تقول إنّه ابن حلال، متفهّم وحنون.

عدتُ من المدرسة وأنا متعبة من كثرة الدروس التي أنجزتها في هذا اليوم، لكنّني غالبتُ التعب، وتعمَّدت أن أتلكَّأ في السوق على مقربة من باب العمود، إلى أن رأيت سيَّارة قيس يأتيها الدور لاستقبال الركَّاب. سارعت إلى السيَّارة قبل أن يسبقني إليها راكب قادم من بعيد. فتحتُ الباب الخلفيّ للسيَّارة وجلست وقلبي يدقُّ فرحًا برؤية الحبيب.

آنذاك، نسيتُ المخاطر التي تتربّص بي».

9

كنتُ اقترحتُ عليها أن نلتقي في أمكنة لا تخطر بالبال.

التقينا على مقربة من مكتبة المدينة. جاءت هي من طريق وأنا من طريق. دخلنا المبنى وجلسنا هناك متقابلَيْن بعد أن اخترنا كتابين من على أحد الرفوف. رحتُ أتصفَّح ديوان «سرير الغريبة» لمحمود درويش، وليلى تتصفَّح رواية «السمّان والخريف» لنجيب محفوظ. كانت أصابع يديها تمرُّ برشاقة على الصفحات.

وكنت أسترق النظر إلى وجهها الجميل أثناء القراءة، فأراها منهمكة فيها كما لو أنّها لن تغادر الكتاب إلّا بعد أن تنهيه، غيرَ أنّها لا تلبث أن تَخرج من هذا الانهماك بسهولة ويسر.

كنتُ ألحظ نظراته وهي تنصبُّ على وجهي وشفتيّ وعلى أصابع يديّ، ولا أشعر بامتعاض.

دار بيننا همس رشيق. كم أحبُّ ليلى وهي تهمس بكلامها الذي يخرج من شفتين ملمومتين شهيَّتين!

ابتسمتْ وهي تجيل النظر في البنات والأولاد الموزَّعين على المقاعد في قاعة المكتبة، قالت:

– حين نتزوَّج سنكتفي ببنت وولد.

ارتبكتُ حين جاء على لسانها ذكر الأولاد. ثمّ استدركَتْ وقالت بدلال:

– ننجب بنتين وولدين.

وحين لاحظتْ صمتي وارتباكي قالت في مزاح:

– أرغب في خمس بنات وثلاثة أولاد.
قلت كي أجاريها في الكلام:
– لك ما تشائين، ولكن من أين نطعم هذا العدد من البنات والأولاد؟!
– يأتي الولد ويأتي رزقه معه.
قلت وأنا أخفي قلقي:
– وتأتي البنت ويأتي رزقها معها.
قالت:
– تروقني المرأة الحبلى وهي تمشي بخيلاء وفي بطنها تتخلّق حياة جديدة.
أضافت:
– من بطون النساء نكرِّر تجربة جنوب أفريقيا.
سألتها في فضول:
– من أين جاءتكِ هذه الفكرة؟!
قالت ببراءة:
– من مفكّر فلسطينيّ شاهدتُه على شاشة التلفاز.
بعد ساعة، غادرنا المكتبة، ومشينا أنا في طريق وليلى في طريق.
وكنت أفكّر في معجزة الإنجاب، إنجاب البنات والأولاد.

***

اتَّفقنا على الذهاب إلى يافا. خلال الرحلة، لم نتطرّق لسيرة الحمل والأبناء، ولم تسألني طوال الأسابيع الماضية عن ابنة عائلتي نفيسة سوى مرّتين. كنت أختلق سببًا مقنعًا إلى حدّ ما، وكان هذا مريحًا لي.

كلّما ذهبنا إلى البرِّيَّة كانت تقول: «أنت تأخذني إلى حيث عاش أجدادك»، وتقول كلّما ذهبنا إلى يافا: «أنا آخذكَ إلى حيث عاش أجدادي».

وكنت أبدي تجاوبًا مع كلامها، نستسيغه معًا ونجد فيه فرصة للتأمُّل وللتواصل مع الجذور.

جاءت في الوقت المحدَّد، وجازفتْ بالجلوس في المقعد الأماميّ إلى جواري من دون اعتبار لعيون المتلصّصين، لوّحتْ بكتاب «شارع الأميرات» الذي كان في يدها، فتحتْ جيب السيّارة ووضعَتْه فيه وهي تقول:

– كتاب ممتع، وجبرا جدير بحبّ لميعة.

حين أوغلنا في الطريق إلى يافا، نزعت المنديل عن رأسها وخلعت الجلباب. أثنيتُ على فستانها الزهريّ، لكنها لم تشكرني. قالت لي مازحة:

– اسكت، اسكت.

سكتُّ، وكان الطقس مستقرًّا دافئًا إلى حدٍّ ما، وصوت فيروز ينطلق صادحًا عبر المذياع: «يا كرْم العلالي عنقودك لِنا، يا حلو يا غالي شو بحبّك أنا».

تدفَّقت مشاعرها وفاضت مثل ماء جدول رقراق، فكَّت حزام الأمان، هزَّت خصرها ودفعت صدرها إلى الأمام، أصدرت بأصابع يديها فرقعةً وغنَّت مع فيروز. لم أستطع مجاراتها في الغناء، واكتفيت بالنقر على عجلة القيادة مع إيقاع الأغنية، وأيقنتُ أنّ جذوري البدويَّة ربّما هي التي وضعتني في امتحان صعب أمام ليلى، وحالت بيني وبين حفظ الأغاني وترديدها في المناسبات أو لدى اللقاء مع الحبيبة. ربّما لم يكن للأمر علاقة بالبداوة، ولعلّ الاستعداد الخاصّ هو ما كان ينقصني.

كان مُحرَجًا وأنا أهزُّ خصري بقدْر استطاعتي وأغنّي مع فيروز، وبدا كما لو أنّه يلوم نفسه على أمر ما.

وصلنا يافا ومشينا في شوارعها وسط أعداد من اليهود واليهوديّات. شوارع ملتبسة تشي بأنّ المكان قد انزاح قسرًا عن هويّته الأصليّة، بسبب ما طاوله من تغيير بُنيتِه الأولى. كانت ثمَّة ريحٌ خفيفة تداعب شعر ليلى وذيل الفستان.

اقتربنا من بيت جدّها. بيت له شبابيك عالية وأقواس. قالت:

– زرت البيت مرَّات عدّة مع أهلي. تسكنه الآن أسرة يهوديَّة جاءت من بولندا، ولم تسمح لنا ولو لمرّة واحدة بدخوله، كنّا نكتفي بالنظر إليه من

الخارج، ثمّ نمضي مبتعدين.

حدّثتها عن محمّد الكبير، عمّ أبي الذي كان يعمل نادلًا في مطعم هنا قبل نكبة 1948.

كنّا نتلفَّت ذاتَ اليمين وذات الشمال مثل غريبين، متأسِّيَيْن على مدينة من أجمل مدن فلسطين، سمّاها أجداد ليلى عروسَ البحر.

ثمّ ذهبنا معًا إلى البحر.

***

في الليل، رأيناه يدخل المقهى ومعه زوجته، كان موج البحر ما زال يطرق أسماعنا. ألقى الدفتر السميك عند أوَّل طاولة، ثمَّ جلسا، وقبل أن يشرع في الكتابة وتشرع الزوجة في القراءة راحا يراقبان الناس في الخارج عبر الزجاج. تسلَّلتُ بخفَّة حتّى اقتربتُ منهما من دون أن يرياني. ألقيت القبض على الدفتر، وفتحته فورًا:

«أنا محمّد بن منّان محمّد العبد اللات الملقَّب بالأصغر، أكتب كلماتي هذه وأنا أخشى العواقب بعد أن اشتدَّ التناحر بين أبناء الوطن الواحد، والمدينة الواحدة، والعائلة الواحدة، وأصبح القتل لأيّ سبب عادة يوميَّة دارجة.

اسم زوجتي سناء، وهي التي ظلَّت عاقرًا، ما سبَّب لي ولها بعض حزن وألم. أقوم، كما هي عادتي، بتدوين ما يحلو لي من وقائع وأخبار، ومن سِيَرِ أشخاص يهمُّني أمرهم وتربطني بهم وشائج قربى، وأنا معنيٌّ بمواصلة تدوين سيرة عائلة العبد اللات انطلاقًا من وعد قطعته على نفسي أمام والدي منّان، الذي ظلّ حتّى اللحظة الأخيرة في حياته مشغولَ البال على مصير العائلة. ومع الوقت، نشأ لديّ اهتمام ببعض الظواهر في واقعنا الراهن، علاوة على اهتمامي بامرأة روسيَّة نابهة اسمها ماريا زخاروفا، لفتت انتباهي صدفة حين رأيتها في شريط مصوَّر على الـ«يوتيوب»، وهي ترقص برشاقة تأسر القلوب.

أجدُ في التدوين وفي متابعة مصائر بعض الأشخاص متعةً، وبذلك -كما أكاد أجزم- يتحقَّق معنى حياتي على نحوٍ ما. وقد يصلحُ هذا التدوين وتلك المتابعة مقدِّمة لسيرة ممتدَّة، أو لعمل أدبيّ أحلم بإنجازه في وقت غير بعيد، أو قد أشرع في كتابته منذ الآن مستعينًا بقصَّة حبٍّ بين شابّة وشاب، قصّة أكادُ أجزمُ أنّه لا إدهاش فيها، إنّما يمكن من خلالها فضح ما ينبغي فضحه من أفكار بالية ومعتقدات، وفيها تعرية لمفارقة مفجعة، حين يستكثر بعض الناس وقوع معلّمة من أسرة ميسورة الحال في حبّ سائق سيّارة أجرة، وضعه الاجتماعيّ على قدّ الحال، وحين يذهبون مذاهب شتّى في تأويل مقاصده من هذا الحبّ وما يضمره لهذه البنت من نوايا، بعضهم يقول من دون حشمة أو وقار: قد يغرّر بها هذا الشوفير اللئيم، يجرّدها من ثيابها وينتهك جسدها ويجعل دَمَاياها حَناياها، ثمّ يلفظها مثلما تلفظ من فمك نواة حبّة التمر أو الزيتون. وأقول: كم يتمادى الناس على الناس! وكم يشتطّون في أحكامهم!».

لم أواصل القراءة، لأنّ العمّ محمّد تنبّه كما يبدو إلى وجودي قريبًا منه، فأغلقتُ الدفتر وابتعدت وواصلتُ حلمي وليلى إلى جواري.

دخلتُ حلمها وقلت باعتداد: «أنا وأنتِ مسجّلان في دفتره».

تململتْ في فراشها ولم تقل أيّ كلام، كأنّ الأمر لا يعنيها، أو كأنّها لم تسمعه.

10

كان رهوان كثير الكلام.

بدا معتدًّا بنفسه وهو يقول لي إنّه يعرف المدينة جيّدًا، يعرفها أكثر ممّا أعرفها، يعرف أسرارها وما تُخفيه عن العيون ولا يظهر على سطحها، وإنني – من وجهة نظره – «درويش على باب الله»، يقصد أنّني مغفّل أو مهبول.

ضرب لي مثلًا امرأة من عائلة مرموقة أنجبتْ ولدًا وثلاث بنات، الولد مهندس معماريّ وإحدى البنات طبيبة. تعرَّفَ رهوان إليها، إلى الأمّ، بالصدفة أثناء عمله ذات مساء. ما زالت في الأربعين من عمرها، اختلى بها أوّل مرّة في حانوت لبيع الأثاث يملكه أحد الأصدقاء، فيه سُدّة عُلْويَّة يتمّ الصعود إليها على درج خشبيّ قديم يُصدر خلال اعتلائه أصواتًا تشبه الأنين. اختلى بها مرّات عدّة، وكان في كلّ مرّة يقدّم إليها هديَّة، خاتمًا من ذهب أو بلوزة من قماش ثمين أو ساعة لا يؤثر في حركتها الدؤوب سقوط على الأرض أو غرق في الماء.

قال إنّه يعرف طبيبًا يُجري في السرّ عمليّات رتق البكارات فلا ينتبه إلى ذلك العرسان في ليالي الزفاف، ولا تكثر جرّاء ذلك جرائم قتل النساء دفاعًا عمّا يسمّونه شرف العائلة. قال إنّه يعرف عن خيانات زوجيّة هنا وهناك إلّا أنّه لا يحبُّ التمادي في كشف المستور.

قال إنّه يعرف سماسرة أراض وعقارات في المدينة، وهم ليسوا كُثُرًا، يُوقِعون بعض ضعاف النفوس في حبائلهم ويغرونهم بالأموال الوفيرة التي

تدفعها جهات صهيونيّة متخفِّية بأسماء شركات أجنبيّة وهميّة، كي يبيعوا بيوتهم وأراضيهم إليها، ويحصلوا منها في المقابل على تعهّدات خطّيّة بعدم الإعلان عن الصفقات وبعدم وضع اليد على العقارات إلّا بعد انقضاء سنوات، وإنْ رغبوا في التزوّد بجوازات سفر للهجرة إلى كندا أو إلى أستراليا فذلك مُتاح ومُباح ومُرحَّب به في الحال. قال إنّه يعرف أشخاصًا من شرق القدس حصلوا على الجنسيّة الإسرائيليّة ظنًّا منهم أنّ في هذا الإجراء حماية لهم ولأملاكهم، غير عابئين بالشرف الوطني وبضرورة عدم تطبيع العلاقات مع المحتلّين، كما يردّد أبي عليوان باستمرار.

أطلق ضحكة رعناء وقال:

– أنا لست مع التطبيع إلّا في حالة واحدة: النساء الإسرائيليّات، فأنا مطبّع معهنّ حتّى النخاع وليكن ما يكون، ولو نصب لي الفلسطينيّون المقاومون للتطبيع حبل المشنقة، فأنا مطبّع.

قال:

– قبل فريال وسميرة كانت لي راحيل وسارة وشولاميت.

ثمّ شمخ برأسه نحو الأعلى مثل مهر جامح وراح يدخّن سيجارة ملغومة، وسكت عن الكلام المباح وغير المباح.

***

ذاتَ صباح، اقترب منّي وقال:

– لسميرة جسد فتَّان.

قال:

– ألتقيها في بيت فريال مرَّة في الأسبوع. سميرة تعمل في خدمة زوج عجوز وزوجته، وتنام في بيتهما القريب من باب الساهرة. يتصرَّفان معها كأنّها ابنتهما، وهي تتصرَّف بجسدها من دون محاذير بعد الصدمة التي نالتها حين كانت في عمر الورود.

قال إنّها معجبة به، فهو في رأيها يشبه ممثّلًا رأته على شاشة التلفاز. يُحضر لها هديَّة كلَّما التقاها، وفي بعض الأحيان يعطيها نقودًا

لتشتري الهديَّة التي يحبُّها قلبها.

قال:

– أقدِّم هدايا لفريال أيضًا. أجني المال بعرق جبيني، لا أسرق ولا أغشّ، وأصرف من مالي على النساء.

ابتسمنا، أنا والزملاء، وهو مسترسل في الكلام. بعد لحظات سألني السؤال الذي تكرَّر على لسانه غير مرَّة:

– أين وصلتَ مع غزالتك؟

لم أجبه، ثمّ رسمت على وجهي تكشيرة لعلّها تقنعه بأن لا رغبة لي في التطرُّق إلى هذا الموضوع، إلّا أنّه لم يكترث لذلك. قال:

– لديها جسد مثير، أتصوّرها حين تخلع الجلباب والفستان.

خرجتُ عن صمتي وقاطعته محذِّرًا:

– رهوان اسكت، أرجوك.

سكتَ على مضض، ثمَّ انعطف بالحديث نحو مسارب أخرى، ولم أعد معنيًّا بالإصغاء إليه، رحت أفكّر برحلتي في الحياة، الرحلة التي أصبحَتْ محطّ اهتمام ليلى، وما زالت رحلة غضّة حتّى الآن.

11

قلت لها:

«جئتُ إلى الدنيا في يوم أحد ماطر. اعتبر أهلي هذا فأْلَ خير. أخبرتني أمِّي وهي تتذكّر بعض تفاصيل حياتها، أنَّ المخاض جاءها قبل الفجر. ظلَّت تتحمّل الألم إلى الصباح، وكانت جدَّتي لأمِّي وبعض نساء العائلة يتابعن حركتي القلقة في بطنها. وبعد أن انتهى حظر التجول وصدحت أصوات المؤذّنين بالدعوة إلى الصلاة ابتهج أبي، لأنّ أذان الصبح يعني له الشيء الكثير. نقلها على جناح اللهفة إلى المستشفى، وحين قُرعت أجراس الكنائس للصلاة نزلتُ من بطنها، فابتهجت زليخة، جدَّتي لأمِّي، لأنّ أجراس الكنائس تلخِّص رحلة عمرها على نحو ملموس، وتجعلها مشدودة إلى السماء. قيل لي إنّها استشارت شيخًا متفتّح الذهن، فأباح لها التردّد على المسجد وعلى الكنيسة في آن، وهكذا انتمت جدّتي لديانتين، وكانت ممتنّة لذلك.

أدنيتُ وجهي منه وقلت: أنا ولدتُ عصر أحد الأيّام في فصل الصيف، ولم يكن حظر التجول قد خيّم على القدس بعد. الخوف يملأ حياتي كلّ صباح وكلّ مساء. تزايَدَ خوفي بعد أن اقتنى شقيقي مصطفى مسدَّسًا وأخفاه في البيت. هذا يعني أنّه على استعداد لجلب الموت إلى حيث يريد في أيّ وقت.

تجاهلتُ ذكرها المسدَّس، وقلت:

– أبعدَ الله عنك الخوف.

ثمّ قلت مازحًا لعلِّي أرطِّب الجو:

– لك مزاج مستمدّ من حرارة الصيف.

ضربتني برفق على صدري ونحن نجلس في ركن منزوٍ عن الأعين في المقهى، قبضتُ على يدها بأُلفة وحنان، وبقينا نتبادل الحديث إلى أن أَزِفَ وقت الفراق. كانت الشمس تسحب خيوطها الذهبيَّة من سماء المدينة ومن على أسطح البيوت، وبدأت حركة الناس تتضاءل على الأرصفة وفي الأسواق.

كان غباش مثير للأسى ينتشر فوق المدينة، وثمّة غموض يلفّ مصيرها ومصائر الناس.

***

بعد ثلاثة أيّام جاءت.

كانت غيوم ثقيلة تغطِّي وجه السماء، والمدينة تتهيَّأ للدخول في ليل غامض، مثلما هي الحال منذ سنوات.

جاءت والتعب بادٍ على وجهها، ربّما من كثرة التجول في أسواق المدينة، وربّما لسبب آخر. اقتربتْ من سيَّارتي وقالت وهي تتقصَّد إسماع زملائي:

– أوصلْني إلى البيت من فضلك.

فتحت الباب وجلستْ في الكرسي الخلفيّ، وكانت تلفُّ على رقبتها لفحة صوف أرجوانيّة اللون. شغّلتُ محرّك السيَّارة ومضيت بها نحو بيتها، وعلى غير العادة، لم تكن الشوارع مزدحمة بالسيَّارات.

نظرتُ إليها عبر المرآة وقلت:

– أنا سعيد سعادة لا توصف الآن.

ابتسمت وقالت:

– اسكت، اسكت، كفاك مبالغات.

قلت:

– أنا متيَّم بك، سأخطفك الآن وأمضي بك إلى مكان مجهول.

– نعم، اخطفني أرجوك، لا تتردّد.

– أخطفك وأمضي بك إلى بلاد الهند والسند، هناك نعيش معًا على رأس جبل عالٍ متاخم للغيوم.

– نعم، هذا هو ما أنتظره وأتمنّاه.

– نبتعد عن القدس اللئيمة التي لا تمنحنا الأمن والأمان.

– نعم، نبتعد عن القدس اللئيمة، وعن الأهل اللئام.

ثمّ صمتنا بعد هذا المزاح الذي كان له مذاق خاص.

أحببتُ هذا المزاح الذي نقلني من حال إلى حال! أنساني ولو مؤقّتًا ما ينتظرني من إكراهات.

وكنتُ أعددتُ لها المفاجأة حين ضغطتُ على زرّ التشغيل في مسجّل السيّارة، وانطلق صوت محمّد عبد الوهاب وأسمهان:

ليلى!
مَنِ الهاتفُ الداعي؟ أقيس أرى
ماذا وقوفُك والفتيانُ قد ساروا
ما كنتُ يا عمُّ فيهمُ
أين كنتَ إذن؟
في الدار حتّى خَلَتْ من نارنا الدارُ
ما كان من حطبٍ جَزِلٍ بساحتها
أوْدى الرياحُ به والضيفُ والجارُ
ليلى، انتظرْ قيس، ليلى
ما وراءَ أبي؟
هذا ابنُ عمِّك ما في بيتهم نارُ
قيسُ ابنُ عمّي عندَنا؟ يا مرحبًا يا مرحبا

بقينا نستمع إلى الأوبريت الذي كتبه أحمد شوقي ولحّنه عبد الوهاب إلى أن وصلنا إلى نهايته:

إذا طافَ قلبي حولها جُنّ شوقُه
كذلك يُطفي الغلّة المنهلُ العذبُ
يَحنُّ إذا شطتْ ويصبو إذا دنتْ فيا
ويحَ قلبي كم يحنُّ وكم يصبو

كانت ليلى منفعلة إلى أقصى حدّ، وكنت أنا كذلك. أحببت وجهها في تلك اللحظات، وكنت أشعر بالحرج حين أتذكَّر السرّ الذي أخفيتُه عنها، ربّما بسبب مكر البدويّ، البدويّ الذي ما زال يربض في أعماقي.

قبل أن تنزل من السيّارة قالت في همس محبّب:

– أرجوك، اخطفني وخذني إلى بلاد الهند والسند.

***

كان رهوان وَسوسَ في صدري وأخبرني أنّه عرف من مصادره الخاصّة أنّ ليلى كانت مخطوبة لابن تاجر ثريّ.

قال إنّه لو عُرضت عليه هذه المرأة لما فكّر بتاتًا في الزواج بها. قد يقبل بها صديقة لغايات المتعة، فمن يضمن أنّ ابن التاجر لم يعتصر رمّان صدرها حتّى كلّت يداه؟! ولربّما افتضّ بكارتها أو اقترب من موقع اللذّة في جسدها على نحو ما.

قال وهو يستخدم مفردات مقزّزة، كما لو أنّه في حانوت لبيع السلع:

– ربّما كانت البضاعة مضروبة.

ثمّ حرّضني على ألا أتّخذ من ليلى زوجة، وشجّعني في الوقت ذاته على الاقتراب من جسدها الباذخ وتذوّق ثمارها الشهيّة.

قال:

– لا يغرَّنكَ غنى أهلها ومكانتهم الاجتماعية، ولا يأخذنّك الغرورُ لأنّ معلّمة في مدرسة أُغرمتْ بك وأحبّتك.

وأضاف:

– أنا أعرف سائق سيّارة أجرة مؤهّله العلميّ شهادة التوجيهي بمعدّل منخفض، أحبَّ طبيبة وأحبَّته الطبيبة ثمّ تزوّجا، ولديهما الآن ولدان.

ثم تابع قائلًا:

– قصّتك مع غزالتك المعلّمة ليست فريدة، وهي تتكرّر هنا وهناك.

وخلال متابعته حديثه قائلًا: «أنا لم أذهب إلى الجامعة واكتفيتُ بشهادة التوجيهي لأسباب خاصّة، ومع ذلك وقعت في غرام نساء من الطبقة الراقية...» دخل المكتب رجل وامرأة وطفل وكان الدور على رهوان، فأقلَّهم وهو بادي الغرور لما سرده عليّ من معلومات، لكنني قلت لنفسي: ربّما كان يكذب في بعض الأحيان.

12

كان الوقت مساء، والمساء ينذر بالمطر، مطر الخريف الذي يسقط أحيانًا على شكل رذاذ.

دخلتُ المقهى وجلست إلى طاولة في الركن البعيد وانتظرت. تمنَّيت في سرِّي ألّا يحدث ما يعيق ليلى عن المجيء.

بعد عشر دقائق من الانتظار جاءت. نهضتُ ومددتُ يدي، سلَّمتْ عليّ وجلستْ، وفي الحال خلعتِ المنديل، ونثرت شعرها على كتفيها فانسرح مثل أغصان وارفة في بستان. تبسَّمتُ لها وتبسَّمت لي، وطلبنا عصير برتقال.

كنت منشرحة المزاج لسبب لا أدريه، وحين خلعتُ المنديل وسرّحت شعري شعرت بأريحيَّة وبرغبة في التحدِّي والانطلاق.

تأمّلتُ نضارة وجهها وتساءلتُ:

– كيف يمكن تاجرًا ثريًّا أن يقبل بسائق سيَّارة أجرة منحدر من أصول بدويّة زوجًا لابنته؟!

ابتسمتْ ولم تقل شيئًا. اقترحتُ عليها أن تحدِّثني أكثر وأكثر عن عائلتها لعلِّي أتمكّن من اختراق الجدران التي ما زالت ترتفع بيني وبين أبيها وأشقّائها.

ابتسمتُ وأنا أتأمّل سذاجته النابعة من قلب طيِّب. قلت وأنا أحتسي العصير ببطء وأعبث بخصلة من شعري النازل على عيني.

– جدّي جاء من يافا. اضطرَّ مثل غيره من أهل المدينة إلى مغادرتها تاركًا خلفه كلّ شيء: أماكن الطفولة والأرض والشجر، البيوت والأثاث والكتب والحوانيت وما في الحوانيت من سلع، بسبب الرصاص الذي كان ينهمر على المدينة ويقتل أناسًا أبرياء.

جاء إلى القدس، وكان القتال فيها تمخَّض عن تقسيمها.

أقام في الجزء الشرقيِّ منها، وظلَّ يفتقد البحر وروائحه التي كانت تجلبها الرياح إلى شوارع يافا. ولم يكن في القدس بحر، لم يكن فيها ماء وفير. وبرغم ما للقدس من مكانة في نفسه ظلَّت يافا هي حلمه الأساس، وظلَّ بحر يافا هو الذي يملأ الذاكرة.

أنشأ تجارة في حيّ المصرارة لبيع القمح والطحين والأعلاف، وتملَّك حوانيت أخرى داخل سور المدينة، وواصل حياته مع أسرته وهو يرمِّم أوضاعه بصبر وأناة. كانت التجارة متغلغلة في مسامّ جسده فلا يفارقها ولا تفارقه. وقد أورثها لأبنائه من بعده.

أبي ولد في القدس.

تأمّلتها بشغف، وكانت تلحّ عليها رغبة في مزيد من البوح. قالت:

– رفضتُ الزواج بابن التاجر، الذي درس سنتين في إحدى الجامعات التركيَّة ثمّ انقطع عن دراسته وعاد إلى القدس ليعمل مع أبيه بائعًا في الحانوت. أبوه كان يحبّ تركيا ورئيسها أردوغان وزوجته أمينة، ولم تعجبه عودة ابنه من دون أن يكمل تحصيله العلميّ في الجامعة، في بلد الإسلام الصحيح على حدّ رأيه. أما أنا، فلم تعجبني الشحوم المتراكمة تحت ذقنه وعلى خاصرتيه، ولم يعجبني أسلوبه في الكلام. اشترط عليّ أن أترك العمل في التدريس بعد إنجاب طفلنا الأوّل، وأن أتفرَّغ في البيت لتربية أطفالنا الذين سيأتون تباعًا، ولا بأس إنْ كانوا سبعة أو ثمانية.

نفرتُ منه منذ اللحظة الأولى. لم يقترب من جسدي (كانت كأنّها تردّ على الشائعة التي نقلها إليّ رهوان)، ثمّ رفضتُه رفضًا صريحًا، ما جرَّ عليّ غضب العائلة، أو على الأصحّ غضب الذكور فيها. فسختُ الخطوبة غير آسفة عليه.

قالت مستدركة بعد لحظة صمت:

– أحبُّ أن يكون لي أطفال، إنّما ليس بهذه الكثرة.

فكّرتُ في كلامها. ارتبكت وحاولتُ إخفاء ارتباكي، غير أنّها لاحظت ذلك وتساءلتْ عمّا يزعجني.

اعتذرتُ منها وقلت:

– حين يتمّ التطرّق إلى ذكر الأطفال تساورني خشية عليهم من كوارث هذا الزمان.

تأمَّلتْ وجهي بتعاطف أكيد، ثمّ واصلنا النظر نحو المدى المتاح، كما لو أنّ كلّ شيء من حولنا على ما يرام. كانت أضواء المدينة المشعَّة في الشوارع والساحات ومن نوافذ البيوت توحي ببعض اطمئنان وتعطي انطباعًا عن مدينة راسخة الوجود لا تهزُّها المفاجآت وقادرة على الاحتمال.

حين طال صمتنا، قلت:

– عندما ولدتُ توقَّع رجال العائلة ونساؤها أن يسمِّيني أبي على اسم أبيه: عطوان، إلّا أنّه خيَّب ظنَّهم وسمَّاني قيس. كان غاضبًا من أبيه الذي ترك زوجته الشابّة فهيمة هنا مع طفلها، الذي هو أبي، وسافر إلى البرازيل وتزوَّج هناك بامرأة برازيليَّة.

قلت ذلك على سبيل تزجية الوقت، ومن باب تأكيد حالةٍ غير سويّة حين يتعلّق الأمر بالنساء.

قالت مازحة:

– سمّاك قيس تيمّنًا بسيرة مجنون ليلى، قيس بن الملوّح.

أعجبني كلامها، فعلّقتُ عليه مازحًا:

– وسمّاك أهلك ليلى تيمّنًا بسيرة ليلى العامريّة وحبّها لقيس.

ضحكت وقالت:

– لو كانوا انتبهوا إلى ذلك لما فكّروا بإطلاق اسم ليلى عليّ، ولربّما تركوني من دون اسم حتّى لا يصطدموا بأيّ محظور.

ضحكتُ باستمتاع، وواصلتْ هي بوْحَها. قالت:

– والدي يشكو من كثرة الضرائب التي تفرضها على متاجره سلطات الاحتلال. قبل أيّام استدعت مصلحة الضرائب شقيقي فؤاد الذي يدير متجرًا لأبي يبيع فيه أجهزة الحاسوب ويرى أنّ من واجبنا ألّا ندفع ضرائب للمحتلّين. حقّقَتْ معه واتهمته بالتهرّب الضريبي، فأنكر التهمة وقال إنّ تجارة الحاسوب تعاني من كساد، وما زال الملفّ مفتوحًا وشقيقي عرضة لتحقيق آخر، وربّما للاعتقال.

وأضافت:

– شقيقي مصطفى يدير متجرًا لأبي متخصّصًا ببيع ملابس وجلابيب للنساء. أشتري منه بعض ملابسي، تحديدًا الجلابيب. لديه باستمرار نساء في المتجر، يحملن الفساتين من الطابق الأرضي ويصعدن إلى الطابق الأوّل حيثُ غرفةُ القياس وفيها مرآة. هناك أيضًا غرفة صغيرة وفيها سرير، يستلقي عليه شقيقي ويغفو نصف ساعة أو أكثر قليلا حين يشعر بالتعب. ذات يوم، في وقت الظهيرة، عندما يخفّ قدوم الزبونات، قصدته واخترتُ جلبابًا غامق اللون أردت أن أقيسه. أخبرتني البائعة أنّ مصطفى موجود في الطابق الأوّل مع زبونة تقيس فستانًا. صعدتُ وأنا أحسنُ الظن، لكنّي شاهدتُ المرأة تخرج من غرفة شقيقي وهي تعدّل فستانها وتردّ شعرها النازل على عينيها إلى الوراء. لم يخرج شقيقي من هناك إلّا بعد وقت. أخبرتُ أبي بالأمر فنفى مصطفى ما قلتُه، وازدادت نقمته عليّ.

وتابعت:

– شقيقي الصغير عادل يدير متجرًا للهواتف يملكه والدي، وهو يعمل سرًّا مع الأمن الوقائيّ التابع للسلطة الفلسطينيّة. يرصد نشاط سماسرة الأرض والعقارات، ويتعقّب عملاء الاحتلال، ويرفع التقارير إلى مسؤوليه في رام الله. يضع سيجارة مشتعلة بين شفتيه، ويقلّد رجال المباحث في أفلام السينما، ولا يندر أن يرفع تقارير حول نشاط اليسار الذي كان أبي وأمّي ناشطَيْن فيه. شقيقي معنيّ، بحسب تعليمات

المسؤولين عنه، بأنشطة حركة حماس ومحاولات تغلغلها في أوساط الناس.

***

رغبت في رؤيته عن قرب.

قُبيل ظهر اليوم التالي، تركت سيَّارتي جاثمة في موقف السيَّارات مقابل باب العمود، وكنت أتوقَّع أنّ دوري في نقل الركَّاب لن يأتي قبل ساعة. مشيتُ نحو سوق باب خان الزيت التي يقع فيها الحانوت الذي يداوم فيه.

مشيتُ بارتباك. كنت مثل لصّ مبتدئ، وحين اقتربت من الحانوت تمهَّلتُ وسرت بحذر. اقتربت أكثر وكنت معنيًّا بالتعرُّف إلى العمّ محمّد القانع من مسافة ما، كنت معنيًّا بألّا يراني أو يتنبّه إلى مراقبتي إياه.

ورأيته. كان جالسًا خلف طاولة وثمَّة بائع شابّ يتحرَّك في أنحاء الحانوت يجلب للزبائن السلع من على الرفوف، والعمّ محمّد يستلم النقود. كان الحانوت ممتلئًا ببضائع ممّا تحتاج إليه البيوت، من موادّ غذائيَّة ومعلَّبات وبضائع أخرى صامتة جاثمة في أمكنتها من دون تذمّر أو انفعال. كانت ليلى أخبرتني بأنّ لدى أبيها ثلاثة حوانيت أخرى غير هذا، يداوم في كلّ منها واحد من أشقّائها.

رأيته. كان مهيب الطلعة صاحب شخصيَّة لها حضور. مررت من أمام الحانوت مرَّات عدَّة، أتامَّله بإمعان وأدقِّق النظر في ملامحه. فكّرت في التقاط صورة له أحتفظ بها في هاتفي المحمول، إلّا أنّني تردّدت وأقصيت فكرتي كي لا ألفت انتباهه إليّ فلا يروقه الأمر. عجبت كيف يظلّ طوال النهار مصلوبًا في حانوته فيما أنا أقطع المسافات في المدينة ومن حولها ولا أستقرّ في مكان واحد، ثمّ أيقنتُ أنّه لا يمكن أن يضجر والنقود تتراكم بين يديه من دون انقطاع.

كنتُ أوطِّن النفس على اختراق الجدار المنصوب بيني وبينه، بخاصَّة أنّني سمعت من ليلى عن أب صارم لا يفترّ ثغره عن ابتسامة إلّا في

النادر من الحالات.

رأيته. لم يكن يبتسم أو يضحك، ولم يكن يتكلَّم إلّا إذا رفع سمّاعة الهاتف وردّ على مكالمة ما. كان يتسلم النقود ويضعها في جارور، أو يعيد المتبقّي بعد اقتطاع الثمن إلى البائع الشابّ الذي يسلِّمها إلى الزبائن، وهكذا تستمرّ عمليّات البيع والشراء، والعمّ محمّد القانع منهمك في العمل بهدوء، أو هكذا يبدو الأمر في الظاهر.

رأيته وأنا أكرّر المرور من أمام الحانوت متغطّيًا بالحضور الكثيف للناس، وقلت لنفسي: سأخبر ليلى أنّني شاهدت أباها عن قرب.

ستضحكُ وستقول إنّ هذا تصرُّفٌ طفوليّ، وسأقبلُ منها هذا الوصف. إنّه تصرُّف طفل بالفعل، إلّا أنّني كنت مدفوعًا إلى ذلك في زمن جائر، في مدينة معذَّبة قد تبارك الحبّ الذي نشأ بيني وبين ليلى وقد لا تباركه فلا أظفر إلّا بالهزء والسخرية، أو بما هو أفظع من ذلك.

ظلٌّ آخر

ويهتزُّ من تحتِ الثيابِ قَوامُها / كما اهتزّ غُصنُ البانِ والفنَنُ النضرُ

قيس بن الملوّح (مجنون ليلى)

«المدن مثل الأحلام مكوَّنة من رغبات ومخاوف»

(إيتالو كالفينو)

1

«أواصلُ حياتي مع زوجتي سناء في راس النبع، وهو حيٌّ من أحياء القدس، القدس المتروكة لكلّ أنواع الانتهاك. أكادُ أجزمُ أنّني تعبتُ وأنا أحمل على كاهلي همومَ المدينة والعائلة انطلاقًا من إحساسي بأن حياتنا لا يمكن أن تستقيم والمدينة تحت الاحتلال، وانطلاقًا من وفائي لوصيّة والدي منّان. وأنا على يقين من أنّني سأتحمّل التعب وسأواصل التدوين، تدوين ما له علاقة بالمدينة وبالعائلة، وبقصّة حبّ لا إدهاش فيها، إلّا أنّها جديرة بالانتباه في مدينة مُحاصرة، يُحاصَر فيها الحبّ، ويتمّ خنقه بشتّى الأشكال.

ومن سوء حظّي أنّني كنت، في ما مضى، وأنا أدوّن سيرة العائلة أعتمد على أخي الذي يصغرني بعام واحد لتدقيق ما أدوّنه، وقد سطا هذا الأخ على جهودي وادَّعاها لنفسه، وهو يظهر في الأوساط الأدبيَّة وعلى القرّاء باسم مستعار، ولا يعلن صراحة أنّه أحد أبناء عائلة العبد اللات، لغاية في نفسه لم أكتشفها حتّى الآن. على سبيل الانتقام، لن أجعله يفرح بذكر اسمه الصريح، أو اسمه المستعار أثناء التدوين. وكلّما ورد اسمه في هذا الدفتر فسوف أشير إليه بالحرف: «ع».

أدوِّن في الدفتر أخبارًا وملاحظات داخل السياق وأخرى خارج السياق، قد أحتاج إليها ذات يوم. مثلًا، تعنيني هذه المدينة، لأنّ حياتي مرتبطة بمصيرها الذي ما زال ملتبسًا. وتعنيني ماريا زخاروفا، لأنّها مثالٌ للمرأة التي تعي متى تنهمك في تفاصيل الوظيفة ومتى تمارس هواية

الرقص أو تظفر بفرصة للراحة. وأكاد أجزم أنّ أحدًا لن يسيء فهمي ويقوم بتأويل موقفي منها على نحو مغلوط، فأنا أصرّح منذ الآن بأنّ لا أبعاد سياسيّة لهذا الموقف، ولا ولاء من أيّ نوع لأيٍّ كان، وأنا أحترم ما بيني وبينها من اختلافات في الرأي حين أسمعها وهي تدلي بآرائها على شاشة التلفاز، وأكاد أجزم مرّة أخرى أنّ هذه الاختلافات لن تحدّ من علاقة الصداقة التي ستكون بيني وبينها.

وأكتبُ في الدفتر بلغة متقشّفة مشاهدَ مطوَّلةً فيها استطرادٌ تقتضيه الضرورات، وأخرى موجزة فيها اقتصاد لغويّ، لتكون خير دليل لي ضدَّ «ع» إذا ادَّعى أنّه يكتب هذه المرّة مستعينًا بالقصّة اللقطة، لكي يشكّل من مجموع اللقطات رواية يُضمِّنها مواقفه ورؤاه. أنا أيضًا أكتب ما هو شبيه بالقصّة اللقطة، أو ما هو قريب منها، وأتابع بإصرار علاقة الحبِّ التي نشأت بالصدفة بين أحد أبناء العائلة وابنة أحد التجّار، اسمه قيس واسمها ليلى، وثمّة شخص اسمه رهوان يفضح بسلوكه الأرعن التجلّي الجامح لغرائز جيلٍ من الشباب ولد وترعرع في زمن الاحتلال، وأظلّ متخوّفًا من لمياء، شقيقة قيس، البنت المعتدّة بنفسها المتمرّدة، التي لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب.

تفرَّقَ شمل عائلتي، عائلة العبد اللات، شَذَرَ مَذَر، وعانى قيس وأمّه وأبوه وشقيقاته معاناة لا ينكرها أحد، بعد أن دبَّت الخلافات بين أبناء العائلة وبناتها مثلما يدبّ السوس في الخشب. ولم تكن هذه حال عائلتنا وحدها، كان تفسُّخ العائلات الممتدَّة في مجتمعنا شاملًا، بحيث لم تسلم منه إلّا عائلات قليلة اتَّصفت بالتزمُّت الزائد وبعدم الانتباه إلى إيقاع العصر.

ثمّ جاء وقت، اضطرَّت فيه العائلات المتنابذة في ما بينها إلى التكاتف من جديد. تكاتف كاذب أملته الظروف، ظروف العيش تحت احتلالٍ هدفُه الاستيلاء على الأرض من دون الناس، الناس المعرّضين دومًا للذلّ والإهانات وانعدام الأمن والأمان. لذلك، وأمام وطأة الظروف غير السويّة، صار الناس يميلون إلى حلّ خصوماتهم بأيديهم، وحين يحتدم خلاف بين

عائلة وأخرى من عائلات العشيرة أو العشائر المجاورة، تتوحَّد العائلة لينخرط أبناؤها في شجارات لا طعم لها إلّا طعم العلقم، ولا لون لها إلّا لون الدم، ولا رائحة لها إلّا رائحة الغائط.

وحين تهدأ الأحوال، ولو مؤقّتًا، تنشغل العائلة بنفسها، تحتدم الخلافات بين أبنائها وبناتها، وتقع صراعات مخجلة.

عائلتي أصابها التشرذم. متخصِّصون في شؤون العائلات قالوا إنَّ سبب هذا التشرذم راجع إلى أنّنا، نحن أبناءَ عائلة العبد اللات، انتقلنا إلى طور حضاريّ متقدِّم، ما يجعل من الصعوبة بمكان إحياء العصبيَّة القبليَّة التي تجاوزناها منذ زمن. متخصِّصون آخرون من ذوي الأصول العشائريَّة الراسخة قالوا إنّ سبب هذا التشرذم راجع إلى أنّ دمنا بارد، ولا يشتعل الغضب في صدورنا مهما تعرَّضنا لإساءات.

أحدُ المحامين من أبناء العائلة تصدَّى للمتخصِّصين الذين يضعون عائلتنا في آخر سلّم التراتب القبليّ العشائريّ، وقال: «نحن نسير على مبدأ (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)». كان المتخصِّصون وما زالوا يلوون شفاههم سخرية ولا يعيرون هذه الحجَّة أيّ انتباه، بل إنّهم واصلوا التنديد بنا واتّهمونا بأنّنا أنانيُّون، لا نمدُّ يد العون لأيّ إنسان، ولو كان بولنا دواء لما فكَّرنا بأنْ نشخَّ على إصبع شخص مجروح.

كلّما وقعت مشكلة داخل العائلة أعاد قريبنا القنفذ التذكير بقول مكرور: «أقاربك عقاربك. يضحكون في وجهك وينهشون عرضك حين تغيب. يتظاهر الواحد منهم بأنّه في العفّة والنزاهة والأخلاق الخليفة أبو بكر الصدّيق، وهو في حقيقة أمره زنديق، كذّاب أفّاك، ومخادع خسيس».

يُنهي القنفذ كلامه في مباهاة: «لن تجدوا من هو أكثر أمانة منّي، ومن هو أكثر عفّة وحياء، أدخل بيوت الناس جميعًا وأنا أحمل إليهم لحم الخراف، أدخل المطابخ لأضع اللحم فيها، وأرى النساء في قمصان النوم، أو في شلحات داخليّة قصيرة، ألمح بياض الأجساد، أغضّ النظر ولا أسمح لنفسي بتجاوز الحدود، أتقاضى ثمن اللحم منهنّ وأخرج في الحال».

يتلفّت حوله بعينين فاحصتين ليعاين أثر كلامه في الحاضرين، ثمّ يتجمّع على نفسه ويدني رأسه من ركبتيه الملتصقتين بصدره وهو جالس في الركن البعيد، ويصمت صمت القبور.

هكذا أنا، وهكذا هم الناس، وهكذا يكون التدوين، بما يعنيه من رصد لما هو سارٌّ ولما هو مثير للأسى والأحزان».

أغلقنا أنا وليلى، الدفتر وواصلنا حلمنا.

2

في الصباح، نقلتُ في سيّارتي امرأة وثلاثة رجال سبق أن نقلتهم معًا من راس النبع إلى باب العمود، ولا أدري إن كان التقاؤهم الثاني هذا بفعل مدبّر أم جرّاء صدفة محضة. أمل موظّفة البريد التي أخذت مكانها في المقعد الأماميّ كما من قبل، وكانت منتعشة المزاج. ثمّة شائعات عن علاقة سرّيّة تربطها بالتاجر عزّام الذي أخذ مكانه في المقعد الخلفيّ، تفوح منه رائحة عطر رخيص، وكان هو الآخر منتعش المزاج، يلقي تعليقات ساخرة على ازدحام حركة السير فتضحك أمل بابتهاج لكلّ تعليق يطلقه. أما المزارع عوّاد الجالس إلى جواره، فبدا راضيًا لأنّ الأمطار التي هطلت في الأسابيع الماضية كافية لإرواء التربة، وكان في الوقت ذاته مستاء من عزوف الناس عن الزراعة.

قال: «يتركون أرضهم جرداء ويذهبون إلى العمل في ورش المحتلّين وفنادقهم ومطاعمهم».

على يسار عوّاد جلس قريبي القنفذ، الذي لا تغيب من باله فرس العائلة وهو يصدر إليّ تعليماته بعد كلّ إشارة ضوئيّة، مطلقًا كلمته إيّاها القادمة من مجاهل البرّيّة وأزمنة الخيول: «انهرْ».

هذه المرّة، لم يقلها، ولم يتلفّظ بأيّ كلام. ربّما كان يدير في رأسه حوارًا من نوع آخر، وكنت مرتاحًا لالتزامه الصمت على غير عادته.

أوصلتُهم إلى باب العمود، وكنتُ أنا أيضًا منتعش المزاج.

بعد دقائق جاء رهوان.

أوقف سيّارته في المكان المألوف، وكان سور المدينة صامتًا وعلى قمَّته جنود يراقبون حركة الناس. تلفَّتَ في ما حوله، أشعل سيجارة قبل أن يبوح بأيّ كلام، ثمّ قال:

– بقيت متشكِّكًا في أمر فريال وزوجها الذي غادر قريته البعيدة وجاء إلى القدس ليعمل حارسًا في إحدى المؤسّسات الأجنبيّة في حيّ الشيخ جراح، فأقام هو وزوجته في حيّ صغير متاخم لمستوطنة بُنيت على أراضي أهل الحي الذي أَطلق عليه أهلُه اسم «الحيّ الشماليّ»، كي لا ينتسبوا إلى اسم المستوطنة.

وقال:

– قالت لي فريال إنّ قدومها وزوجها إلى القدس لا يحتاج إلى شرح طويل. رَمت كلماتها الشحيحة عليّ ثمّ دخلت المطبخ. أيقنتُ أنّ هذا هو أسلوبها أثناء الحديث، ربّما لأنّها تريد أن تستبقي السامع أطول وقت ممكن في بيتها.

وضعتِ الماء على النار لتعدّ القهوة لي ولها ولسميرة التي كانت في الطريق إلينا، وفي الأثناء تبلَّل طرف فستانها فقبضت على الجزء المبلّل منه ورفعته إلى أعلى، ليظهر بياض فخذها من دون عناء. استأذنتني لكي تبدّله. دخلتْ غرفة النوم وعادت إليّ بفستان فضفاض. نظرتُ إلى وجهها الذي لا تفارقه مسحة حزن وأسى أستعجلها الكلام، فأخبرتني أنّ زوجها تشاجر مع أشقَّائه بسبب الميراث، وكان أبوه أودع لديه مبلغًا من المال قبل أن يفارق الحياة.

رنَّ جرس الباب، قطعت فريال حديثها، دخلت سميرة وهي ترتدي فستانًا أسود يمتدّ إلى كاحليْها. رحّبنا بها وشربنا القهوة معًا. شغّلتْ فريال المسجّل واندلع في فضاء البيت صوت الموسيقى والغناء، هزَّت فريال خصرها وتبدَّت أنوثتها المخبوءة بكلّ جلاء، تأكّدتُ من أنّها ما زالت مثل سيّارة لم يركبها سوى صاحبها، يعني بلغتنا نحن الشوفيريّة: يد أولى. جرَّتني سميرة من يدي ورقصنا معًا، رقصنا حتّى تعرَّقت أجسادنا، قالت:

– لا يهمّ، نغتسل بالماء الساخن في نهاية المطاف.

وتابع قائلًا:

– بعد ساعة غادرت سميرة البيت. سميرة بالمناسبة يد ثانية أو ثالثة أو سابعة، إلّا أنّها بجمالها الفتّان وبجسدها المتين تنافس اليد الأولى بلا جدال.

وأضاف:

– أخبرتني فريال أنّ زوجها فرَّ بالمال الذي ورثه من أبيه وجاء إلى القدس بتصريح لها وله من سلطات الاحتلال يتجدّد كلّ ستّة أشهر، واستأجر شقّة في هذا البيت الذي يملكه رجل عجوز ومعه زوجته بعد أن هاجر ابنه وابنته إلى أمريكا.

قلت لرهوان:

– ربّما كانت الحقيقة غير ذلك.

قال:

– دعنا من نثر الشكوك يا قيس. كلامها واضح ولا يحتاج إلى تأويل.

صمتَ لحظة وهو يحدِّق في وجوهنا لعلّه يسترعي انتباهنا إلى ما سيقوله، قال:

– تأمَّلتُ جسدها، وتوصَّلت إلى قناعة بأنّ لديها قدرة على الإغراء، لمستُ شعرها ونظرتُ في عينيها. نهضتْ وابتعدت بدلال وقالت:

– هذا لم يحدث معي من قبل.

قال:

– طلبتُ منها أن تفكّر في الأمر.

***

وذات يوم، وكنّا في الظهيرة والشمس تطلّ من بين الغيوم ثمّ تختفي مثل امرأة خجول، والطقس في غاية الاعتدال كما لو أنّ فصل الشتاء قرّر أن يرتدي عباءته ويرحل قبل الأوان، وباب العمود يستقبل أفواجًا من الرجال والنساء كعادته كلّ يوم، قال لي رهوان:

– أنت تعقِّد الأمور أكثر ممّا ينبغي.

وأضاف:

– أنا على استعداد لأن أقنع فريال باستقبالك أنت وغزالتك في بيتها، ولا مانع من أن تأتي الغزالة بالجلباب، مع أنّ ذلك قد يلفت إليها نظر المستوطنين المتاخمين لبيت فريال ويجعلها موضع شكّ، فقد يظنُّون أنّها جاءت إلى تخوم المستوطنة ومعها سكِّين.

بقيتُ صامتًا لأرى إلى أين سيصل رهوان في كلامه الذي يتطاير مثل زبد الماء.

قال:

– ربّما استطعتَ إقناعها بخلع الجلباب قبل الوصول إلى تخوم المستوطنة، لأنّها ستخلعه إنْ عاجلًا أو آجلًا. وهناك في بيت فريال يوجد حمَّام صقيل وماء ساخن، بإمكانكما أنت والغزالة أن تستحمَّا وأن تلفَّا جسديكما بمنشفتين ذواتَي وبر ناعم، وأن تتَّجها إلى غرفة نوم مسدلة الستائر، وأن تتنعَّما باللذَّة التي جعلها الله في متناول البشر.

وختم:

– قيس، أنا أدلُّك على الطريق الذي ستجد فيه سعادتك.

كانت الغيوم تتجمَّع ثمّ يتباعد بعضها عن بعض، والشمس تنبجس من خلف الغيوم بأشعّتها الصريحة ثمّ تختفي من جديد، كما لو أنّها تتواطأ مع الغيوم على أمر ما.

قلت له:

– رهوان، اسكت، أرجوك اسكت.

كانت هواجس كثيرة وأهواء ورغبات متضاربة تتطاير في فضاء المدينة، وفي صدور الكثيرين من الرجال والنساء، أو هذا ما اعتقدته.

3

قال:

– لم أمهلها كثيرًا، هاتفتُها وسألتها: هل فكَّرتِ؟

قالت إنّها فكَّرت، لكنّها لا تزال متردِّدة، ولا تعرف كيف تسوِّغ لنفسها هذا المنعطف الذي ستدخله للمرَّة الأولى. قالت إنّها لا تدري كيف تَغيّر مجرى حياتها! كانت تعيش في قرية وادعة مثل بقيّة النساء القانعات بحياتهنّ، ثمّ انقلبت حياتها رأسًا على عقب حين جاءت للإقامة في هذا الحيّ الصغير الواقع على تخوم المستوطنة. تغرق لساعات وساعات في بحر من الأسى والدموع حين تقارن حياتها من قبل بما أصبحت عليه حياتها الآن.

طلبتُ منها ألّا ترهق نفسها في المقارنات وفي تفكير لا طائل من ورائه، وما عليها إلّا أن تتَّخذ قرارها من دون تردّد أو تسويف.

قالت إنّها معجبة بي منذ شاهدتني أوَّل مرَّة.

ثمّ أشعرتني بلهجة موارِبة بأنّ مَهرها غالٍ.

ذهبتُ إليها، وكدتُ أدهس بسيارتي رجلًا يرتدي قبَّعة المتديِّنين اليهود على تخوم المستوطنة. حينها كانوا سيقتلونني بتهمة الدهس المتعمَّد على خلفيّة قوميَّة، وسيحتجزون جثماني في ثلاجة الموتى وقتًا طويلًا، ثمّ يسلّمونه لأهلي لكي يُدفن بعد منتصف الليل تحت حراسة مشدّدة.

نشفَ دمي من الرعب وأنا أدوس على الكابح في اللحظة الأخيرة. نظر الرجل إليّ شزرًا وبقيتُ أنا صامتًا كي لا يتعطَّل مسعاي، ثمّ واصلتُ قيادة السيَّارة إلى أن أدخلتها الساحة القريبة من بيت فريال. نزلتُ منها، وكانت المستوطنة جاثمة على مرتفع من الأرض مطلٍّ على القدس، وعلى شرفات بيوتها حبال غسيل، وفي الشرفات نساء، وهدوء ظاهريّ لا ينسجم مع حقيقة إنشائها على أرض منهوبة من أصحابها الذين يقيمون في الجوار. شعرتُ بأنّ هذا الهدوء مريب، ربّما لخوفي من توجيه تهمةٍ لي من دون سبب.

دخلتُ بيتها، وقلت لها وأنا أشير إلى المشهد من نافذة البيت، كأنّني أراه للمرّة الأولى:

– هذه المستوطنة تركبكم ليلَ نهارَ يا فريال.

ابتسمتْ ولم تعلّق على كلامي، كانت تنثر شعرها الفاحم على بياض صدرها. طلبتْ ألف دولار، استكثرتُ المبلغ، فما أنا إلّا سائق سيَّارة أجرة متوسّط الحال. نظرتْ نحوي بعينين تشعّان شغفًا. قالت إنّها لن تأخذ أيّ نقود، لأنّها تحبّني. شكرتها ووعدتها بهدايا بين الحين والحين.

تأكَّدتْ من إسدال الستائر، وأبقتْ باب الغرفة مفتوحًا. اعتقدتُ أنّها نسيت إغلاقه. اتَّجهتُ نحوه لكي أغلقه، قالت:

– اتركْه مفتوحًا.

أربكني ذلك في بداية الأمر، ثمّ دخلتُ معها في اللعبة المثيرة، وطاب لي أن أتخيَّل سارق الميراث، وهو يرقبنا من مسافة ما ونحن معًا في السرير، فانتشيت، مع أنّه لم يكن في البيت، أو هذا ما اعتقدتُه، وكانت فريال كما بدا لي منتشية إلى أبعد الحدود.

***

جاءني ذات نهار بعد العصر بقليل، وكنت مرهقًا من العمل. نقلتُ عددًا غير قليل من الركَّاب طوال ساعات، وكنت متشكِّكًا في قدرتي على اختراق الجدران التي تنهض بيني وبين أهل ليلى، يتلبَّسني في تلك

اللحظات إحساس بالدونيَّة، وبأنّني لست أهلًا للاقتران بابنتهم، سليلة عائلة التجَّار. كان فضاء المدينة باهتًا، أو كأنّه كان كذلك حين قال: «حدَّثتُ سميرة عنك فأبدت إعجابها بك قبل أن تراك».

وقال: «لسميرة جسد متين مثل سيّارة دفع رباعيّ».

ثمّ اقترح عليَّ أن أخوض التجربة. قال: «لن تخسر شيئًا، جرِّبْ، وخذْ شوطًا».

فكّرتُ في كلامه ولم يرقني، قلت لنفسي: ماذا سيكون موقف ليلى منّي لو عرفت أنّني خنتها؟! قلت له:

– بالله عليك يا رهوان، لا تتلفّظ بهذا الكلام مرّة أخرى.

ابتسم في استهزاء ثمّ أدار وجهه عنّي وراح يتمتم بكلام غير مفهوم.

4

أكاد أجزم، بل إنّني متأكّد هذه المرّة بأنّه «لا شيء يعدل الوطن»، فأنا لم أفكّر طوال حياتي بجمع المال، يُشبهني في ذلك منّان، ابن أخي عطوان، والد قيس، هو الآخر لم يأبه بجمع المال. كنت زاهدًا فيه إلّا للضرورات، وبما يجعل الحياة ميسَّرة. كان هذا الزهد يزعج أبي وأمِّي وبعض أقاربي، غير أنّ أبي مات، ولم تعد أمِّي تتدخَّل في شؤوني، صارت تنشغل بأمور صحّتها وبكيس الأدوية الذي لا يغادر الكومودينة المجاورة لسريرها.

وإلى جانب اعتنائي بها وبكلّ أمر يخصُّها، كنتُ وسناء منصرفَيْن قدرَ المستطاع إلى التمتُّع بما في الحياة من مسرّات غير باهظة التكاليف. سناء مثال المرأة القانعة المهذَّبة الواعية المثقَّفة، وقد علّمتْها صراعاتُها السابقة مع أمِّي أن تظلّ حريصة على كرامتها، وعلى ضرورة احترام الآخرين إياها.

وكنت منذ أن شاهدت ماريا زخاروفا على الـ«يوتيوب» وأنا أشبِّه سناء بها، أو أشبِّهها بسناء. أعقد مقارنة بين المرأتين وأرى عناصر شبه بينهما: الحرص على أداء الواجب وعلى الكرامة في آن. صرت جرَّاء ذلك أكثر حبًّا لسناء، وأكثر إعجابًا بماريا زخاروفا. ولربّما كانت أمّ قيس، زهور، زوجة منّان ابن أخي، تشبههما إلى حدّ ما.

وفي حين تذهب ماريا زخاروفا من دون زوجها في أسفارها المتعدّدة بحكم وظيفتها، فإنّ سناء ترافقني دائمًا في حِلِّي وترحالي، ترافقني في

الحيّ الذي نقيم فيه وخارج الحيّ، في القدس وخارج القدس. ولستُ أضِيقُ ذرعًا بها، بالعكس تمامًا، نتمشَّى في شوارع المدينة معًا، نذهب إلى قاعة المسرح الوطني معًا لحضور إحدى المسرحيّات، نقطع شارع صلاح الدين في الطريق إلى المسرح ونحن نتذكّر أيّامنا السابقة في هذا الشارع، نتذكّر المحكمة الشرعيّة الواقعة على يسار الشارع، المحكمة التي كانت سببًا في تعارفنا وعلاقة الحبّ التي نشأت بيننا، نذهب إلى مركز يبوس الثقافيّ لمشاهدة الأفلام، نقطع شارع الزهراء في الطريق إلى المركز ونحن نتذكّر الحياة الدافقة التي كان يشهدها الشارع قبل الاحتلال، نتذكّر مراقبتها إياي أثناء السير في الشارع للتأكّد من أنّني لا أسترقُ النظر إلى سيقان النساء اللواتي يتخطّرن في الشارع بأناقة وانسجام، نتحاور حول قضايا ثقافيَّة واجتماعيَّة، أقنعها حينًا بوجهة نظري حين نختلف، وتقنعني حينًا آخر بوجهة نظرها.

وحين يُعلنُ المقدسيّون إضرابًا شاملًا في المدينة احتجاجًا على عسف المحتلّين، أو حين يُفرضُ حظر التجول في ليل المدينة، نبقى أنا وسناء محبوسَيْن في البيت، هي تقرأ في كتاب وأنا أنهمك في التدوين.

وكلّما سمحت لنا ظروفنا بالسفر نسافر معًا إلى بلد ما، نبقى هناك بضعة أيّام ثمّ نعود إلى الوطن.

وتستمرُّ الحياة. نواصل عيشنا في راس النبع رغم تمزُّق عائلتنا، عائلة العبد اللات، وتشتّتها، ولا أنسى أن أتابع ذلك الحبّ الصغير بين قيس وليلى، وما يمكن أن ينتج عنه من مضاعفات في مجتمع محافظ لا يحتفي بالحبّ. فقد يتعرّض منّان وزهور إلى معاناة جديدة جرّاء هذا الحبّ بين ابنهما وابنة محمّد القانع.

حين أرغب في لحظة استرخاء أذهبُ إلى ماريا زخاروفا، الموظَّفة في وزارة الخارجيَّة الروسيَّة، ابنة السفير السابق، الحائزة على شهادة الدكتوراه في الصحافة الدوليَّة والاستشراق. أراها على الـ«يوتيوب» وهي ترقص على أنغام الأغنية الشعبيّة الروسيّة «كالينكا»، وذلك على

هامش اجتماعات عُقدت في موسكو وحضرها رؤساء دول، بذلت ماريا زخاروفا أثناءها كلّ جهد ممكن لإحاطة الرؤساء بالعناية والاهتمام.

في الليل، أثناء الحفل الساهر الذي تمَّ تنظيمه في العاصمة الروسيّة على شرف الضيوف، جاءت ماريا زخاروفا وهي ترتدي فستانها الأسود القصير، ورقصت على أنغام الأغنية الشعبيَّة حتّى أدهشت الحاضرين.

أنا معنيٌّ بماريا زخاروفا وحدها، ولا علاقة لي بضيوفها.

لا أنكر أنّني أشفق على قيس وليلى في كثير من الأحيان، لأنّهما أقلّ تجربة من أن يكرِّرا حكاية قيس المجنون وليلاه. هناك، كان ثمَّة ثراء في التجربة وازدهار لشعر الحبّ، ومصير مأسوي جرَّاء التعقيدات التي واجهت هذا الحبّ، قيس شاعر يعشق محبوبته ويهيم بها، ويقول فيها شعرًا ينتشر بين القبائل، وليلى معشوقة تحبُّ عشيقها، لكنّها لا تستطيع أن تخالف مشيئة والدها أو أن تستهين بهيمنة القبيلة، فالوالد لم يوافق على زواج قيس بليلى لأنّه فضح ابنته حين ذاع شعره فيها بين الناس. تزوَّجها ورد، الذي كان يعلم إلى أين تتَّجه بوصلة مشاعر زوجته، وإلى أين تميل، ومن الذي يسكن قلبها، فلم ينقم عليها أو يزدريها، لأنّه يحبُّها ويشفق عليها من جموح مشاعرها.

والحبيب قيس لا يرعوي، يواصل التشبيب بحبيبته، بل إنّ بعض أشعاره الحسيَّة فيها يشير إلى أنّ حبَّه العذريّ لها ما هو إلّا قناع لرغبات جسديَّة مشبوبة، هي التي كانت تؤجِّج عواطفه وتجعل قريحته تتفتَّق بأجمل الأشعار فيها، ولم يفتر حبُّه لها، بل ظلَّ متوهِّجًا إلى أن أودى به وأهلكه، وتمَّ العثور عليه جثَّة هامدة حين كان هائمًا على وجهه في الصحراء.

ربّما كان حبُّهما، أقصد حبّ قيس منّان وليلى محمّد، مثل نبتة لا تضرب جذورها عميقًا في التربة، تقتلعها هبَّة ريح، وأكادُ أجزمُ أنّهما قد يختلفان وهما في المقهى جرَّاء رأي متسرِّع أو كلمة عابرة، وينتهي بعد ذلك حبّهما إلى غير رجعة، لأنّه لم يكن مؤهَّلًا للصمود أمام المفاجآت، ففي زمن المسلسلات المكسيكيَّة والتركيَّة المدبلجة التي تغزو بيوتنا

كلّ ليلة، وتنعقد فيها علاقات الحبِّ من دون مقدِّمات مُضنية ثمّ تنفرط بسهولة ملحوظة، لا يمكن حبَّ قيس وليلى أن يكون على غير هذا النمط من العلاقات، وأرجو أن أكون مخطئًا.

وأكادُ أجزمُ بأنّ تطابق اسميهما الأوَّلين مع الاسمَين الأوّلين للعاشق قيس بن الملوّح ومعشوقته ليلى العامريَّة، إنّما جاء بمحض الصدفة. ولربّما استدعاه مكر المؤلّف الذي يمسك بخيوط هذه العلاقة، أو مكر التاريخ الذي يتبدَّى حينًا على شكل مأساة وحينًا آخر على شكل مهزلة. أقول قولي هذا وأنا لست متأكِّدًا من المدى الذي سيذهب إليه حبّهما، ولعلِّي أترك الأمور إلى أن تظهر على حقيقتها ذات يوم.

وبالطبع، فإنّني لن أنسى ضغوطات الأهل المحيطين بهذا الحب، والجدران السميكة التي تنتصب أمامه. ربّما كانت عائلة قيس الصغيرة، أقصد أباه وأمَّه وشقيقته لمياء، أخفّ وطأة عليه من عائلة ليلى. هناك نجد انفتاحًا وتفهُّمًا لأمور الحبِّ إلى حدٍّ ما، وهنا نجد النزعة الطبقيَّة الطاغية، والتزمُّت والانغلاق، وإدمان النظر إلى الفضائيَّات الدينيَّة التي ترسّخ «معاني قصور المرأة ودونيَّتها وصورتها تابعةً للرجل، وعورةً، وغيرَ منتجة، ومنبعًا للفتنة، وآثمةً تحتاج دائمًا إلى تقويم وتأديب»، فأيُّ حبّ هذا الذي يمكنه أن يترعرع في مثل هذه البيئة الملغومة؟! نعم، أيُّ حبّ؟! أكادُ أجزم بأنّه حبٌّ محكوم بالهلاك.

***

وحين تخطر ببالي ماريا زخاروفا، فإنّني أخشى أن يذهب بها الظنّ إلى أنّ كلّ الفلسطينيّين متزمِّتون ضيِّقو الأفق متعصِّبون، لذلك، من واجبي أن أحيطها علمًا بأنّ الفلسطينيّين من أكثر الشعوب انفتاحًا على الشعوب الأخرى ومصاهرة لها. ستجد هنا في القدس، وفي غيرها من مدن فلسطين وفي الشتات الفلسطينيّ: روسيَّات شقراوات متباهيات بجمال أجسادهن، ألمانيَّات يمشين بحزم في الأسواق، إسبانيَّات بألوان برونزيَّة، أفريقيَّات سوداوات شهيَّات مثل الشوكولاتة، صينيَّات ناعمات

بعيون مشقوقة وأجساد ملمومة، يابانيَّات شهوانيَّات، أفغانيَّات وبنغاليَّات وهنديَّات كاشفات عن بطونهنّ بأريحيَّة، سرّة الواحدة منهنّ مثل عين الغزالة الشهلاء، أمريكيَّات بقامات طويلة سامقة، فرنسيَّات بسيقان من رخام، ونساء أخريات من مختلف الجنسيَّات، بعضهنّ تعرّفنَ إلى أبناء الفلسطينيّين وبادلنهنّ حبًّا بحبّ وارتبطن بهم بعقود زواج، وبعضهنّ بقين صديقات لهم، ولم يرتبطن بأيّ عقود.

في الوقت ذاته، ثمَّة فلسطينيَّات تزوّجن رجالًا من جنسيّات أجنبيَّة مختلفة، وإنْ كان ذلك على نطاق محدود. وثمّة فلسطينيّات شبقات.

وفي حين أنّ لدينا انفتاحًا على ثقافات الشعوب وعاداتها، فثمَّة في الوقت ذاته تزمُّت وانغلاق، وثمّة من لا يرفضون الانفتاح غير أنّهم يأخذون من ثقافات الشعوب ما يناسب قناعاتهم ويرفضون ما لا يتّفق مع هذه القناعات، والمهمّ من وجهة نظري التوفيق بين الانتماءات المختلفة وبين الأمزجة وأساليب العيش، والسير بالمركب الذي يشبه على نحو ما سفينة نوح بمن فيها وما فيها من غثٍّ وثمين إلى برِّ الأمان. المهمّ أيضًا إجادة فنّ العيش كي لا يدهمنا الطوفان.

وأكادُ أجزمُ أنّ ماريا زخاروفا تتَّفق معي حول الفكرة التي تقول إنّنا جميعًا، بغضّ النظر عن انتماءاتنا وثقافاتنا وحدود بلداننا، نشترك في مركب واحد هو هذا الكوكب الذي نحيا عليه، وعلينا جميعًا أن نعتني به ونحافظ عليه مبرّأً من التلوُّث والإفساد والخراب إذا ما كنّا نطمح إلى عيشة راضية. وعلينا، كما أعتقد، أن نستفيد من خاصيّة الأواني المستطرقة، بحيث لا يتوازن السائل فيها إلّا بعد انخفاض هنا وعلوّ هناك، والعكس صحيح. أقول هذا الكلام المعاد للتذكير، وهو ليس بجديد، ولا فضل لي فيه، تحفِّزني على ذلك الآية الكريمة: (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

أغلقنا، أنا وليلى، الدفتر وواصلنا حلمنا.

5

لم يكترث رهوان لتحذيري إيّاه، ولربّما استطاع بحدسه الذي لا يخيب في كثير من الحالات أن يتوقّع منّي استجابة ما.

عاد إلى الكلام مرّة أخرى عن مفاتن سميرة ورغبتها في التعرّف إليّ. قال إنّها تعدني بساعة من المتعة الفائقة، وتستغرب كيف أترفّع عن اللقاء بها هي التي لم تفكّر بدعوة أيّ شخص آخر إلى فراشها من قبل!

قال:

– أدعوك إلى التخفّف من هذا السلوك المتزمّت يا قيس.

وأضاف:

«نحن نحيا في زمن آخر غير زمن الآباء والأجداد».

استبدّ بي الفضول والرغبة في التسرية عن نفسي للتخلُّص من الضيق الذي يلمُّ بي بين الحين والآخر.

نسيتُ ليلى، أو على الأصحّ تناسيتها لبعض الوقت. تركتُ سيّارتي في مكانها قرب باب العمود، وذهبت معه في سيّارته.

هاتف فريال وأخبرها بأنّنا قادمان.

وصلنا البيت، وكنت مرتبكًا تصطرع في داخلي مشاعر ملتبسة. رحَّبتْ بنا فريال، واتَّجهتْ إلى المطبخ لتعدَّ القهوة في انتظار أن تصل سميرة. كان أثاث الصالة مرتّبًا بعناية، إلّا أنّه كان يوحي بانتهاكٍ ما، أو لعلّه كان كذلك.

حين وصلتْ راقني جمالها. ابتسم رهوان وقال:

– هيّا تنعَّمْ بالجمال يا ابن العم.

أخذتني إلى غرفة داخل البيت، وكان على مقربة من الغرفة حمَّامٌ بابه مفتوح تشمَّمتُ منه رائحة كريهة. كدتُ أستفرغ وأنثني على عقبيّ وأغادر المكان، لكنّني تمالكت نفسي، ففضول ما ظلَّ يسيطر عليّ.

حينَ أغلقتْ سميرة الباب، خفَّ انتشار الرائحة وراقَ مزاجي قليلًا. تأمَّلتُ فضاء الغرفة، كان فيها مذياع ومسجِّل للأغاني، وسرير مجلّل بشرشف زاهي الألوان، وصورة على الحائط لامرأة تغمز بعينها لمن ينظر إليها، ومصباح واهن يتدلَّى من السقف، ومناشف متعدِّدة الألوان ومرآة. توقَّفتُ قليلًا عند صورتي في المرآة، كان وجهي شاحبًا، تردَّدتُ بعض الوقت وأنا حائر في بيتٍ أدخله للمرّة الأولى، تذكّرتُ الرائحة التي زكمت أنفي قبل قليل. حدّقتْ بي سميرة وتساءلت:

– ما لك يا أميري؟

قلت لها:

– أنا لست أميركِ، أنا سائق سيّارة أجرة.

قالت:

– أنت أميري في هذا الوقت المتاح.

نظرتُ حولي في ارتباك وجلستُ على كرسيّ في زاوية الغرفة مثل متّهم. استلقت سميرة في السرير، وقالت:

– أعطيك وقتًا لكي تأْلَفَ المكان، وهو مقتطع من الوقت المخصّص لك بحسب تعليمات السيّدة.

ثمّ انهمكتْ في تدخين سيجارة.

تأمَّلتُها بحياد. كانت كاملة الأوصاف لا ينقص جسدَها شيء، تساءلتُ عن السبب الذي جعلها تختار هذا الطريق. قالت لي وأنا أحاول استيعاب لغزها:

– خرجتُ من بيت أهلي ذات صباح وجئت إلى هذه المدينة بعد تجربة زواج لم تدم سوى عام واحد. كنت في السادسة عشرة حين تزوّجت من شابّ في العشرين. لم يتطابق مزاجه مع مزاجي.

وقالت:

– أذهبُ إلى بيت أهلي في الشمال مرَّة كلّ شهرين. أمكث هناك يومين أو ثلاثة أيّام، ثمّ أعود إلى عملي هنا في القدس، في بيت رجل عجوز وزوجته.

أضافت بعد صمت:

– بين الحين والآخر أتردَّد على هذا البيت، بيت السيّدة.

تذكَّرتُ ابنة عائلتي، نفيسة، وتساءلت بيني وبين نفسي: هل يُعقل أنّها تفعل مثلما تفعل سميرة؟! هل تذهب إلى بيت مشابه لبيت فريال؟!

جاشت عواطفي وتسامتْ، وشعرتُ بالحاجة إلى المجاز، قلت وأنا أتأمَّل الهدوء المرتسم على وجه سميرة:

– خرجت سميرة من بيت أهلها في الفجر الذي يتباهى بغموضه الشفَّاف، لأنّها لا تحبُّ العيشَ على الضفاف، غيرَ أنّها في نهاية المطاف سوف تعود إلى البيت الذي ولدت فيه، تعود مثل طفلة بريئة لم يمسسها سوء ولا هوان.

أعجبها كلامي. سألتني:

– هل أنت شاعر؟

– لا.

قالت:

– أرجو أن يجمعني الحظُّ بشاعر يكتب فيَّ قصيدة أتسلَّى بها وأرى كيف أبدو في تفاصيلها.

ثمّ ضحكتْ باستهتار كأنّها توحي لي بأنَّ الدنيا مسرح تتبدَّل فيه الأدوار.

خطرت ببالي مفارقة ما، سألتها:

– لو جاءك أحد جنود الاحتلال، هل تسمحين له بأن ينام معك؟

حدّقت في وجهي لحظة ثمّ قالت:

– ولمَ لا؟! حين يخلع ملابسه العسكريّة ويتعرّى فلن يعود جنديًّا مسخّرًا للقتل، سيكون مخلوقًا آخر.

خطر ببالي أن أختبر وعيها:

– هل تحبّين قراءة الكتب؟

– لماذا تسأل؟

– في رواية «صمت البحر» للكاتب الفرنسيّ فيركور، ضابط جاء مع الغزو الألمانيّ لفرنسا أثناء الحرب العالميّة الثانية وأقام في بيت رجل فرنسي عجوز وابنة أخيه الشابّة، ثمّ وقع في حبّ الصبية، إلّا أنّها ظلّت تنسجُ الصوف طوال فترة إقامته في البيت، وتقاومه بالصمت، ولا تبدي أيّ تجاوب مع أحاديثه المنثورة على امتداد الليالي الطويلة.

تململتْ في السرير وقالت:

– أنا لا أحبّ قراءة الكتب، ولا أحبّ أن أنسج الصوف لا في الليل ولا في النهار.

ثمّ سألتني:

– ألن نبدأ؟

وقالت:

– وقتك يكاد ينفد، إلّا إذا اشتريتَ وقتًا آخر.

نهضتُ واتجهتُ نحو الباب وقلت:

– سأعود بعد قليل.

خرجتُ، وفاحت الرائحة من جديد، ولم يكن رهوان وفريال في الصالة، فتحتُ باب البيت وانسللتُ نحو الخارج.

هاتفتُ رهوان وقلت له:

– أنتظرك على رصيف الشارع.

جاء بعد نصف ساعة، ولم يعلّق على مسلكي، قال:

– إنْ لم تعجبك سميرة، فسوف أحدّث فريال بشأنك، فريال رشيقة مثل سيّارة رياضيّة ببابيْن.

شعرتُ بالحيرة، وعجبتُ كيف يُدخل رهوان نفسَه في متاهة كهذه! راودني شكٌّ في نواياه، ولم أستطع تبيُّن ما يقصده، وكنت أبديت له

خشيتي من كمين يدبّره لنا جهاز أمن المحتلِّين، ثمّ يعرِّضنا لمحاولة ابتزاز. قال:

– لا يهمُّني شيء من هذا.

نبَّهته إلى احتمال أن يشكَّ المستوطنون المتاخمون لسكّان الحيّ في أمره وهم يرصدون تردُّده على بيت فريال، فلم يأبه للأمر.

حين لاحظ استياء على وجهي، حدَّق بي بغموض وظلّ صامتًا، ثمّ عدنا إلى باب العمود. كانت تنطلق من مذياع السيّارة أغنية سخيفة لا طرب فيها ولا إمتاع، لم يعلق في ذهني حرف واحد منها.

***

في الليل، جاءت وهي ترتدي معطف التمريض الأبيض واقتربت منّي.

تساءلتُ: هل هي أمّي؟! وأجبتُني في الحال: لا، لا، هي ليست أمّي. جلستْ على حافّة السرير وتلمَّست جبيني بباطن كفّها كما لو أنّني مريض، ويبدو أنّها شكَّت من لحظة الفحص الأولى بوجود سخونة زائدة في جسدي. قرَّبت شفتيها من جبيني وأبقتهما هناك مدَّة دقيقتين وأنا لا أعترض. ثمّ ساورتني الشكوك. اعتقدتُ أنّ الممرِّضة ليست مجبرة على فحص حرارة أجساد المرضى بالشفتين، وإلّا لماذا وُجد ميزان الحرارة الذي يوضع تحت اللسان؟! وكنت على يقين من أنّ أمِّي لا يمكن أن تفحص أيّ مريض بشفتيها إلّا إذا كان المريض ابنها. لكنّ مجرّد التفكير في هذا الأمر أوقعني في بلبلة.

نزلت يد الممرِّضة إلى صدري، شعرتُ بحيرة وأنا أرصد حركة اليد النازلة ببطء وإصرار. تبلبلَ ذهني أكثر وأنا أفكّر بمهنة أمِّي وبما لقيَتْه من عنت جرَّاءها قد يكون سبَّبه لها بعض رجال العائلة ونسائها. تساءلتُ: هل الممرِّضة التي شاهدتُها ذات يوم في المقهى هي التي تجلس على حافّة السرير وتفحص جسدي بباطن كفّها وشفتيها؟! قلت: عليّ أن أفحص الأمر بدقّة وانتباه.

كان الضوء المتسلِّل عبر النافذة شحيحًا، بحيث تداخلت في ذهني وجوهٌ نسائيَّة عدَّة، لمحتُ من بينها وجه سميرة، ووجه فريال، ووجه الممرِّضة. قلت لنفسي: إنّها سميرة، وهي ترتدي ملابس ممرّضة.

نزلتْ يدها إلى بطني، وفي اللحظة نفسها كانت أمِّي تقف في مواجهتي، وفي عينيها عتب. كانت ليلى تقف إلى جوارها كذلك وفي عينيها خيبة أمل، أزحتُ يد سميرة النازلة إلى أسفل بطني وحاولتُ الصياح فلم أستطع. وضعتْ يدها على فمي فلم تخرج منه سوى همهمات.

صحوتُ من نومي على كابوس.

6

بعد العصر، ذهبنا أنا وليلى إلى البرّيَّة.

كانت الرائحة الكريهة ما زالت تزكم أنفي، وكنت أشعر بالحرج. كدتُ أقول لها إنّني كنت على وشك أن أخونها مع امرأة لا تعرفها، ولا أظنّ أنّها ترغب في معرفتها.

لم أكن أحقد على سميرة، ولم أضمر لها احتقارًا أو كراهية، كنت أقدِّر أنّ ظروفها الملتبسة هي التي رمت بها إلى هذا المصير، أو ربّما تمَّ التغرير بها. ربّما اصطادتها فريال في مكان ما، ثمّ استضافتها في بيتها، وبعد ذلك أغرتها بولوج هذا الدرب الذي لا يقود إلى استقرار، وقد يدمّر جسدها جرّاء كثرة الانتهاك. أشفقتُ في الوقت ذاته على ابنة عائلتي نفيسة من مصير مجهول. لاحظت ليلى شرودي، وبدا في عينيها سؤال. كذبتُ عليها، وقلت:

– مجرَّد إرهاق من يوم أمس. بقيتُ أنقل الركّاب حتّى منتصف الليل.

صدَّقتُه. مسَّدتُ بيدي شعره ونحن نتمشَّى قريبًا من قبور أجداده.

لم أتجرَّأ على الاعتراف لها بما كان يجول في رأسي. ستقول لي: أنتم سائقي سيَّارات الأجرة، لا تتركون رذيلة إلّا جرَّبتم الخوض فيها.

مع ذلك، بقيت غير راضٍ عن نفسي. قلت لها في شكل موارب للتخفّف ممّا أشعر به من ذنب تجاهها:

– لا أريد أن أخدعك، فأنا لست ذاك الملاك.

قالت وهي مستغربة كلامي:

– قيس! ماذا دهاك؟!

وقالت:

– أنا أقبل بك مثلما أنت.

خيَّم علينا صمت ونحن نتمشَّى من دون استعجال، وكنت ممتنًّا لها وهي تبدي هذا القدر من التسامح، وتسير إلى جواري بجمالها الأخَّاذ.

فجأة، وقفت سيّارة عسكريَّة بالقرب من سيّارتي، نزل منها ثلاثة جنود والأسلحة في أيديهم جاهزة للقتل، اقتربوا منّا وكانت ظلالهم تتطاول بصلف على أديم أرضنا.

قال أحدهم:

– هويَّات.

أبرزتُ بطاقة هويَّتي وفعلت ليلى الشيء ذاته. سألني الجنديّ وهو يتأمَّل صورة ليلى في الهويَّة:

– من هذه؟

– خطيبتي.

– ماذا تفعلان هنا؟

– نتنزَّه ونمضي بعض الوقت خارج المدينة.

سلَّمَنا البطاقتين، حدَّق في وجهيْنا للمرَّة الأخيرة بعدم ارتياح، ثمّ انصرف هو وزميلاه وبقيتُ وليلى نرقبهم بحذر. كانت المستوطنة تتربَّع فوق أرضنا على مسافة غير بعيدة منّا، وكنت أخمّن أنّ خمسين امرأة من نسائها يغتسلن الآن بماء ساخن، وأنّ ثمانين مستوطنًا يتغوّطون الآن، ومياههنّ ومياههم العادمة تسيل ناشرة روائحها الكريهة نحو أرضنا.

ولم أخبر ليلى بما كنت أفكّر فيه كي لا تُصاب بالغثيان.

جلسنا فوق صخرة على طرف السهل، وكان جسدها يعلن عن حضوره المُغوي من دون خوف، ذلك الحضور الذي يملأ المكان ويحفّزها على البوح.

قالت:

– كنت في الحادية عشرة حين جاءتني الدورة الشهريّة أوّل مرّة. ذُهل أبي بعد أن أخبرته أمِّي بذلك، وصار يحسب حسابًا لجسدي، صرتُ مصدر خطر في البيت.

شقيقتي رجاء جاءتها الدورة الشهريّة وهي في الرابعة عشرة، لم يُصب أبي بالذعر من جسدها، لاعتقاده أنّ استجابته لنداء الأنوثة جاء متأخّرًا، أو على الأقلّ في وقت متوقَّع.

غيرَ أنّ مقارنة سريعة بيني وبين شقيقتي جعلت أبي يزداد ذعرًا، صار معنيًّا بكلّ شأن من شؤون حياتي، كنت مثل قنبلة موقوتة لا يدري متى تنفجر، ولا أستبعد أنّه حرَّض أشقّائي على مراقبة تصرّفاتي كلّما غادرتُ البيت.

وقالت:

– صباح أمس، حين التأم شملنا على مائدة الفطور كالمعتاد، كانت روائح البطاطا المقليَّة تتسلَّل إلى أنوفنا من المطبخ، وثمَّة ما يوحي من خلال حضور أمِّي الدافئ بيننا، بحياة أسريّة محبّبة.

ولولا نظرات أبي المتشكِّكة لقلت إنّ هذه الدقائق التي نحياها معًا في الصباح هي من أجمل اللحظات، لكنَّ أبي يجعلها، قبل أن تمتدَّ وتكتمل، لحظات ثقيلة وهو يصوِّب نظراته إلينا بالتتابع، فتعترينا الخشية من مجابهة ما، أو من تصريح يتفوَّه به فيجعل صباحنا مكفهرًّا أو مشوبًا بالأسى.

تتشاغل أمِّي بهذا الشيء أو ذاك وهي تمضغ طعامها في هدوء ظاهريّ، تصبُّ لنا الشاي، وتقرِّب الخبز ليكون في متناول أيدينا، ثمّ تنهض مُدَّعية أنّها نسيت إحضار صحن الزيتون والمخلّلات، وأبي يواصل مضغ طعامه وهو يحدجنا، أنا وشقيقتي رجاء، بنظراته، كأنَّنا متَّهمتان.

أخيرًا، بعد أن تحوْصلت الكلمات في رأسه نظر نحوي وقال:

– كم كنتِ مخطئة يا ليلى! ترفضين شابًّا من عائلة محترمة! ابن تاجر معروف في المدينة.

قلت وأنا أداري انفعالي:

– لا أفكِّر في الزواج الآن.

تدخَّلت أمِّي وهي تضع صحن الزيتون والمخلّلات فوق المائدة لتخفِّف من وطأة النقاش:

– ليلى منصرفة إلى عملها في التدريس.

هزَّ أبي رأسه، أنهى طعامه، رشف رشفتين من كأس الشاي ثم خرج، فلحق به شقيقاي: فؤاد ومصطفى.

تنفَّسنا الصعداء. غنَّت شقيقتي رجاء وضحك شقيقي الأصغر، رجل المباحث عادل الذي أرى أنّه أقلّ تشدُّدًا من شقيقيّ الآخريْن، وأنا تنهَّدت وقلت:

– الحمد لله.

***

كنّا نقف بالقرب من سيّاراتنا ونحن نتكتّم على همومنا في هذا النهار.

كانت السماء غائمة والمطر على وشك الهطول، وحركة الناس في المدينة أخفّ من المعتاد، ربّما بسبب الطقس، وربّما لأمر آخر لا نعرفه، وكنّا ننفخ على أكفِّنا بأفواهنا للتخفيف من لسع البرد. فجأة، سمعنا إطلاق رصاص. نظرنا نحو مدخل باب العمود، فرأينا فتى مطروحًا على الأرض ودمه ينزف من صدره.

لم نر الفتى وهو يصوّب السكّين نحو رقبة الجندي، رأينا الجنديّ وهو يبتعد عنه مسافة خطوات ويطلق عليه النار مرّة أخرى. بُهِتْنا من فداحة المشهد، كما بهت رجال ونساء كانوا على مقربة من جسد الفتى بالصدفة المحضة.

فارق الفتى الحياة جرَّاء النزف المستمرّ من دون أن يسمح الجنود لأحد بالاقتراب منه. بقيت جثّته مطروحة على البلاط، ودمه تبدَّد ومضى منسابًا مع ماء المطر الذي انهمر مدرارًا بعد جريمة القتل بدقائق معدودات.

لفّنا صمت كما لو أنّ ألسنتنا باتت عاجزة عن النطق. ثمّ قلت مردِّدًا رأيًا قرأته على الـ«فايسبوك» قبل أيّام:

– هذا فتى آخر يحتجُّ بدمه على الذلِّ والإهانات.

اعترتني خشية وأنا أتذكّر الرأي الذي تردّده شقيقتي لمياء دومًا: هم سبب تخلّفنا.

لعنتُ في سرّي التخلّف والاحتلال وما يمارسه ضدّنا من عسف وظلم، ولعنتُ هذا الزمان.

ثمّ توقّف هطول المطر. جاء رهوان ولم يكن يعلم بالذي جرى. حاول سرد مغامرة جديدة من مغامراته فلم يجد آذانًا صاغية.

وحين لاحظ الحزن على وجوهنا، التفتَ صوب باب العمود، وارتبط لسانه عن الكلام حين رأى جثَّة الفتى الشهيد مجندلة هامدة على البلاط.

***

ذلك المساء، جاءت ليلى وهي شاحبة الوجه مهمومة لأنّ أهلها يسألونها عن أسباب تأخّرها في المدينة بعد انتهاء الدوام. كنت أشاطرها الهموم، وأقدِّر أنّني أثقل عليها جرَّاء لقاءاتنا مرَّة أو مرَّتين في الأسبوع. كانت تضطرُّ إلى الكذب، ما يوقعها في أزمة ضمير. وحين فكَّرتُ بالاتِّفاق معها على لقاءات متباعدة، وقبل أن أتكلّم، قالت:

– لن يثنينا أحد عن هذه اللقاءات.

نظرتُ في عينيها بحنان ونظرَتْ في عينيّ، ثمّ لم نَبُحْ بأيّ كلام. اقتربت منا نادلة كنّا رأيناها في مكان ما.

حدَّقنا في وجهها بفضول. ولم نتمكَّن من حصر المكان الذي رأيناها فيه.

غير أنّ النادلة ابتسمت وقالت:

– أنا سوسن، كنت أعمل في مطعم قريب من سور المدينة، وكنت أراكما هناك.

دهشنا أنا وليلى من هذا الكلام، ورحنا نحفر في ذاكرتينا عبثًا.

واصلنا التدقيق في ملامحها، وطلبنا منها أن تحضر لنا فنجانين من القهوة.

ابتعدت سوسن ونحن نتبادل النظرات، ثمّ خلصنا إلى أنّ النادلة تلعب معنا لعبة محيِّرة.

قلت هامسًا:

– لولا خوفي من اتّهامك إياي بالجنون لأخبرتك من تكون.

نظرَتْ إليّ بفضول منتظرة أن أواصل الكلام.

– كنّا رأيناها في حلم سابق.

زمَّت شفتيها وقطَّبت جبينها وراحت تتذكَّر أحلامنا، لكنها لم تهتد، كما يبدو، إلى جواب. وحين عادت النادلة بفنجانَيِ القهوة تأمّلنا ملامحها الرشيقة من جديد، وتابعنا بفضول حركة يديها وهي تقدّم لنا القهوة من دون تلكّؤ أو ارتباك.

وكان العالم من حولنا رجراجًا غير مستقرٍّ على حال، أو هذا ما اعتقدناه.

7

كنت معنيًّا بترسيخ صورة أبي وأمّي وشقيقتي في ذهنها لتعزيز الأواصر الأسريّة منذ الآن، قلت لها وأنا أحاول التملّص من اجتياح تلك الرائحة، رائحة بيت فريال لأنفي على نحو مفاجئ:

– أمّي إنسانة هادئة دمثة الأخلاق، تجيد التصرّف في الأزمات. أبي هادئ مثلها، إلّا أنّه صار كثيرَ الوساوس في الآونة الأخيرة، ينهض من نومه في الليل مرّات ومرّات لكي يتأكّد من إغلاق الباب والشبابيك، خوفًا من مستوطنين قد يحرقوننا ونحن نيام مثلما أحرقوا عائلة دوابشة الفلسطينية تحت جنح الظلام.

لي ثلاث شقيقات: الأولى تزوَّجت أحد أبناء العائلة، فرض عليها بعد شهرين من الزواج أن ترتدي الجلباب والحجاب فانصاعت له لكي تنستر، كما قالت لنا. الثانية تزوَّجت محاسبًا في شركة بعد أن أحبَّته وأحبَّها في الخفاء، وهما يعيشان معًا في وئام. الثالثة اسمها لمياء، ما زالت طالبة في الجامعة، وهي تتعرَّض بين الحين والآخر لنقمة بعض رجال العائلة ونسائها.

شقيقتي لمياء قليلة الكلام، وحين تتكلّم فإنّها تصل إلى لبّ الموضوع من دون تأتاة أو تطويل. في بعض الأحيان، تدخل المطبخ في يوم العطلة لتساعد أمّها، تراقب صينيّة الدجاج في فرن الغاز، وتستثمر الوقت بتشغيل المسجّل، تستمع إلى الموسيقى وترقص باستمتاع. أدخل المطبخ للمساعدة في جلي الصحون المتراكمة من وجبة الفطور، تقبض

لمياء على يدي وتقترح عليّ أن أشاركها الرقص، أعتذر منها لأنّني لا أجيد الرقص، تدخل أمّي المطبخ، تقبض لمياء على يدها، تستجيب أمّي لرغبة ابنتها، تهزّ خصرها باعتدال وترقص دقيقة واحدة ثمّ تبتعد وعلى محيّاها ابتسامة، فيما تواصل لمياء الرقص إلى أن ينالها التعب.

سُرّتْ ليلى بهذا البوح، ما شجّعها على بوح مماثل، ربّما لكي تعرّفني إلى عائلتها بصراحة ومن دون رتوش، وربّما لكي تقلّل من وطأة الهالة التي تحيط بها وتجعلني متهيّبًا منها، قالت:

– أوائل ثمانينيّات القرن العشرين، بعد الثورة الإيرانيّة بوقت قصير، تركَ جدّي حسن القانع شهوات الدنيا وزخرفها، وذهب إلى الحجِّ هو وجدّتي أنيسة وأبي محمّد وأمّي فريدة. أطال الجدُّ شعر لحيته وصبغ الشعر بالحنّاء. لبس الدشداش الأبيض ولم تعد السبحة تفارق أصابع يده. جدّتي اقتدت به في التسبيح وفي الصلاة والصيام، مع أنّ نساء العائلة لم يكنّ واثقات من تحوّلاتها المفاجئة.

أبي وأمّي كانا مع اليسار، وكانت لهما صولات وجولات في شوارع القدس أثناء التظاهرات. لكنّهما غيَّرا الاتجاه، تحوَّل فكرهما بمقدار مئة وثمانين درجة. كانت حجَّتهما في ذلك أنّ اليسار لم ينتصر، ظلَّ منتسبوه عُرضة للسجون والمعتقلات، والناس صاروا أكثر ولاء لتنظيمات الإسلام السياسي.

أبي كرَّس وقته للتجارة وجمع المال، ولأداء الصلوات في أوقاتها. أمّي التحقت بدورة لحفظ القرآن، ثمّ صارت تخرج مع ثلاث نساء أخريات إلى البيوت لتلقين النساء أحكام الدين الصحيح.

مارستْ ذلك بعض الوقت، ثمَّ توقَّفتْ عنه، ربّما من الضجر وربّما نتيجةً لرغبة النساء في قضاء الوقت في الثرثرة.

***

في الليل رأيتها، أزحتُ خصلة من شعرها وبدتْ مسرورة لذلك.

كانت تتدثَّر بمعطف وتضع على رقبتها لفحة من صوف وعلى رأسها طاقيّة بنفسجيّة اللون غطَّت أذنيها وشعر رأسها. تهيّأتُ للذهاب معها، تدثَّرتُ بمعطف ثقيل وتلثَّمتُ بكوفيَّة مرقَّطة بنقوش سوداء، لكني خلعتُها في اللحظة الأخيرة وأبقيتها في البيت خشية مرور دوريَّة للجنود واشتباهها بأمري في هذا الليل البهيم.

شبكتُ يدي في يدها، وبعد برهة كنّا هناك، في بيت العمّ (أكادُ أجزم)، كان ينام هو وزوجته سناء في السرير. وكان جسداهما مغموريْن تحت الغطاء، فلا يظهر منهما سوى رأسيهما. رحنا نبحث عن الدفتر السميك. كنّا مثل لصّيْن. بحثنا عنه بين الكتب المصفوفة على الرفوف وفي زوايا البيت. بحثنا عنه في خزانة الثياب وتحت السرير وقرب النافذة. بعد لحظات، عثرت ليلى عليه، وكان جاثمًا فوق الكومودينة المجاورة للسرير، وفيه كلّ الأسرار. فتحتْه في الحال وأنا على مقربة منها.

فجأة، تقلَّب العمّ محمّد في فراشه بينما ظلَّت سناء ساكنة. جفلنا وابتعدنا مسافة حلم. وحين اطمأننّا إلى أنّه لم يستيقظ حملنا الدفتر وانسحبنا إلى غرفة المعيشة، ورحنا نقرأ فيه.

لم نعد من هناك إلّا قبيل الفجر بقليل. سألتني ونحن نحلم أنّنا نحلم: «هل يحقّ لنا التلصّص على ما يكتبه عمّ أبيك؟».

فأجبتها: «في عالم الأحلام، كلّ شيء مباح».

لم تقل شيئًا، ربّما لأنّها لم تقتنع بكلامي، أو ربّما لأنّها اقتنعت به فلم تكن في حاجة إلى تعليق.

8

في المساء التالي، كنّا نجلس في المقهى قريبًا من الزجاج المطلّ على الخارج. نرى الساحة التي تكثر فيها حركة الجنود والمستوطنين والسيّاح، ونرى طرف السور والقلعة والبنايات المتراصَّة التي تقاوم عسف الزمن. كانت ليلى تشعر باطمئنان لأنّ أهلها ذهبوا إلى بيتهم الشتويّ في أريحا لكي يناموا ليلة هناك ويتنعّموا بالدفء بعيدًا من طقس القدس البارد. هي لم تشأ أن تذهب معهم فلم يناقشوها في الأمر، ما يعني أنّنا سنقضي وقتًا أطول ونحن جالسان معًا، وكنتُ مبتهجًا بذلك.

سألتُها وأنا أحاول تفكيك لغز الوقت واختلاف أمزجة البشر وتنقّلهم من مكان إلى مكان:

– ما الذي يعنيه هذا المساء؟!

وقلت:

– ثمَّة قمر وادع وغيوم، وامرأةٌ صامتة في الجوار، ومشاعرُ مرهفةٌ وبعضُ أسىً قديم وأمكنة.

لعبتْ بخصلة من شعرها المنسدل على العينين وقالت:

– هذا كلام شعراء.

لم أعلِّق على كلامها، كنت أنظر نحو الخارج حيث الأضواء التي تلوِّن شكل المكان، وكانت هي تنظر إلى الخارج وتسرِّح أفكارها وتأمّلاتها على نحو ما.

بعد صمت، أعادت عليّ السؤال:

– نعم، ما الذي يعنيه هذا المساء؟!
راحت تفتِّش في عينيّ عن جواب.
وأنا رحت أبحر في جمال عينيها، وأحتفي بهذا الجمال.
ثمّ بدت كما لو أنّها تذكّرت أمرًا ما، سألتني:
– ما الذي يعنيه عمّ أبيك وهو يكتب في دفتره أنّك قد تجرّدني من ثيابي وتنتهك جسدي؟!
لم يفاجئني السؤال، قلت لها:
– لا تقلقي، عليك الأمان.
صمتت لحظات، تأمّلتني بإمعان، وقالت في مزاح:
– هل يعني هذا أنك لا تنفع النساء؟!
قلت في هدوء:
– نترك الجواب إلى وقت أرجو ألّا يطول.
خجلتْ ممّا يشي به كلامي من أبعاد.
ضحكنا معًا ثمّ خيّم علينا صمت، وانهمكنا في تأمّل ما يحيط علاقتنا من تعقيدات، ولم نُطلِ التأمُّلات، ربّما لأنّها مرهِقة للذهن، أو ربّما لأنّ قدرتنا على اقتناص المعاني ليست مواتية، لهذا السبب أو ذاك. رحنا بعد ذلك نثرثر بسلاسة ومن دون تكلُّف أو ادِّعاء.
نهضنا وغادرنا المقهى، مشينا فوق الرصيف، فتحتُ باب السيَّارة ودعوتها إلى الدخول. شكرتني ودخلت، وما زال يرنّ في رأسي سؤالها عن تعريتي إياها من ثيابها، حاولت جهدي إقصاء السؤال، ومضينا نحو بيت حنينا الجديدة، كانت البنايات المتراصّة على جانبَيِ الشارع، وشلّالات الضوء المنبعثة من نوافذها وشرفاتها توحي بثبات ما. وحين اقتربنا من البيت استبدَّت بي رغبة في التعرُّف إليه من الداخل، لكسر الرهبة التي تنتابني كلّما وجدتُني قريبًا منه. كانت أضواؤه مطفأة لكنّ هيكله الخارجيّ كان مرئيًّا، بسبب أضواء الشارع وأضواء البنايات المجاورة له. كانت له هيبة لا التباس فيها ولا غموض. أبديتُ رغبتي تلك بتردُّد وخجل. قالت ليلى:

– لا مانع لديّ، لكنّ البيت محوطٌ بآلات التصوير.

وجدتُ ذلك سببًا مانعًا من تحقيق رغبتي، وكنت أحبّذ عدم دخول البيت، لأنّ سؤال ليلى عاد يقرع رأسي من جديد، إلّا أنّها قبل أن تغادر السيَّارة، قالت:

– انتظرْ حتّى أسبقك وأعطِّل الكاميرات.

غادرَت السيَّارة وتابعتُها بشغف. بعد بضع دقائق وقفتْ أمام النافذة وأشارت إلي بالدخول.

اقتربتُ من باب البيت وأنا بادي الانفعال. اجتزتُ الباب المنيع وكنت نهبًا لمشاعر شتَّى. كنّا أنا وليلى وحدنا في البيت الفسيح، وكنت كلّما لاح لي شبح قريبي القنفذ أقصيته من ذهني في الحال. أخذتني ليلى في جولة داخل البيت، وكنت مبهورًا بجمال الثريّات واللوحات المعلّقة على الحيطان، وتماثيل الأرانب والقطط والقردة والكلاب والخيول المصنوعة من الكريستال، الموزّعة في أرجاء الصالة، وكذلك كؤوس الكريستال المصفوفة برشاقة في البوفيه المصنوع من خشب الأبنوس، وبالأسرَّة العريضة وخزائن الثياب الفاخرة في غرف النوم.

وقفتُ بباب غرفتها، شاهدتُ سريرها وخزانة ثيابها وبعض ملابسها المتناثرة هنا وهناك، وأحذيتها، والملصقات التي على الحائط، لفيروز وريم البنّا ومكادي النحّاس وعمّار حسن وعبير صنصور ومحمّد عسّاف ويعقوب شاهين... وغيرهنّ وغيرهم من نساء نابهات ورجال نابهين. شاهدتُ الثريّا المتدلِّية من السقف، والطاولة الغاصَّة بالكتب ودفاتر التلميذات والتلاميذ، والحاسوب. شاهدتُ أقلامًا كثيرة وأوراقًا وحقيبةَ يد على كرسيٍّ من جلد، وقميصَ نوم ورديَّ اللون على طرف السرير، ورفوفًا من خشب مثبّتة على الحائط تصطفّ عليها دواوين الشعر والروايات وكتب أخرى. إنّها حياة كاملة تتبدَّى بكلّ بهائها هنا. كانت واقفة إلى جواري وعلى ثغرها ابتسامة، سألتني في دلال:

– هل تعجبك غرفتي برغم ما فيها من فوضى؟

– تعجبني كثيرًا، وأحبّ هذه الفوضى.

ثمّ ساورتني رغبة في التقدُّم خطوات أخرى نحو الداخل، والاستلقاء في سريرها، لعلِّي أترك أثرًا منّي على السرير، أو لعلِّي أحمل معي أثرًا منها. تردَّدتُ، وهي بقيتْ صامتة وعلى ثغرها الابتسامة نفسها.

حين أخبرني عن رغبته تلك في ما بعد، قلت له: ليتك استلقيت في سريري، إذًا لبقيتُ أراك كلّ ليلة وأنت مستلق فيه، فأشعر بنشوة وفرح، وقلت: حتّى هذه المتعة البسيطة تحرم نفسك منها وتحرمني يا قيس المجنون! يا قيس الأهبل! ضرب جبينه براحة يده وقال: في مرّة قادمة أستلقي في سريرك وأظلّ فيه حتّى الصباح.

دعتني إلى شرب القهوة. اعتذرتُ منها كي لا أطيل المكوث في البيت، اتَّجهتُ نحو الباب وخرجت.

تلك الليلة لم أنم وأنا أحلِّق في أحلام يقظة شهيّة كانت ليلى في قلبِ قلبها..

9

«أخي غير الشقيق، محمّد الكبير، وزوجته المقدسيَّة المسيحيَّة مريم ظلَّا ثابتيْن على الولاء لفكرهما برغم التحوّلات التي حدثت في السنوات الأخيرة. ابنهما عمر، اليساريّ مثل أمّه وأبيه، الضابط في قوَّات منظَّمة التحرير، عاد من تونس إلى فلسطين في العام 1994. كان شخصًا منضبطًا في عمله وفي سلوكه، ثمّ تقاعد من الخدمة العسكريَّة، وكان بعيدًا عمّا يجري في العائلة من مشاحنات. حاول مرّات عدَّة التدخُّل لرأب الصدْع، ولكن بلا جدوى.

عمر لا يحلُّ ولا يربط، طويل القامة، نحيل، نحيل على نحو مؤسف، وأكادُ أجزم أنْ لا أحد يقيم وزنًا لأفكاره أو لثقافته. أقول هذا الكلام ليس من باب التجنّي عليه، بل هي الحقيقة التي يلهج بها كثيرون وكثيرات، تؤيّدني في ذلك زوجتي سناء.

حلَّ محلّه في الحلِّ والربط واحد من أبناء أخي فليحان، له هيئةُ شوالٍ من خَيْش مملوء بالشعير، وهو ممَّن يحملون السلَّم بالعرض، يتقدَّم الصفوف من دون جدارة أو اقتدار، يؤذّن في الناس للصلاة، ثمّ يمعن في تلاوة آيات من القرآن، وهو يَلْحَن في التلاوة ولا يجيدها، يطيل شعر لحيته ويضع على رأسه طاقيَّة بيضاء، يتوهَّم أنّه متبحِّر في الدين، يتظاهر بالتقوى ويدَّعي أنَّه يضع مخافة الله بين عينيه، وهو على العكس من ذلك، بحسب شهود كثيرين، يتحرَّش بالنساء في زحمة الأسواق ويهمس في آذانهنّ بكلمات داعرة. إنّها المرحلة، ترفع المتعالم بغير علم

والمتعصِّب الظلاميّ الذي يخدع قسمًا غير قليل من الناس البسطاء، وتتجاهل المتعلِّم المتنوِّر الذي لا يتنبّه إلى علمه أحد، والمسؤوليّة في قسط كبير منها يتحمَّلها هذا الاحتلال.

ابن أخي غير الشقيق، منَّان عطوان، تزوَّج امرأة مقدسيَّة تعمل ممرِّضة في مستشفى الأمل. أحبَّها وأحبَّته وتزوَّجا برغم ما تعرَّضا له من إساءات. أنجبا ولدًا اسمه قيس وثلاث بنات، أصغرهن لمياء، التي تسخر من شباب يستدرجون بنات الناس باسم الحبّ، يقيمون معهنّ علاقات ويمنّونهنّ بالزواج، ثمّ يفتعلون أيّ سبب للابتعاد عنهنّ والذهاب إلى زواج تقليديّ من بنات الأعمام أو بنات الأخوال.

عائلتنا، عائلة العبد اللات، انقسمت على نفسها وتشرذمت.

الأبناء والبنات يمكن توقّع أفكارهم وأفكارهنّ من أزيائهم وأزيائهن. منهم من يرتدون بنطلونات الجينز والقمصان التي تزدان بصور ممثّلين وممثّلات ومغنّين ومغنّيات، يطيلون شعورهم ويتابعون أحدث الموضات. وثمَّة بناتٌ شقيقاتٌ لهم وبناتُ أعمام، يرتدين بلوزات وتنّورات لا تغطّي سيقانهن.

وثمَّة في العائلة مَن يرتدون الدشاديش البيضاء وتحتها سراويل طويلة، زيٌّ على الأرجح أنه مستوحى من باكستان أو من بلاد الأفغان. يطيلون شعر لحاهم ويتباهون بها وهم يمسِّدونها في تفاخر مقصود. نساؤهم يرتدين الجلابيب، ويغطّين وجوههنّ ولا يبقى ظاهرًا من أجسادهنّ إلّا الأيدي والعيون، وبعضهنّ لا يظهر شيء من أجسادهن، فلا ترى سوى كتلٍ متحرّكة من سواد.

وبما عُرف عنّي من خبرة في الحياة، ومن ابتعاد عن التزمُّت والتعصّب وضيق الأفق والمغالاة، أسديتُ النصيحة تلو النصيحة لهم ولهنّ، وأنا أرى الاحتقان على وجوههم ووجوههنّ: عيشوا حياتكم كما تروق لكم، ولا يتدخَّلْ أحدٌ منكم في شؤون أحد.

غيرَ أنّ النصائح لم تصل إلى العقول، وكان بين أبناء العائلة وبناتها تباغضٌ وخصامٌ.

بدأت الاحتكاكات الخشنة حين نشرت ثلاثٌ من بنات العائلة ممّن يرتدين التنّورات، صورةً لهنّ على الـ«فايسبوك». بدت الصورة مدعاة لغضب المعنيِّين بالاحتشام من أبناء العائلة. علَّق أحدهم على الصورة: هذا عهر صريح.

وبسبب قسوة التعليق، تمَّ حذفه بعد دقائق من نشره، إلّا أنّ الصورة بقيت هناك على الموقع، وانتشرت تداعياتها داخل الصدور وعلى الألسنة.

تصاعدت الاحتكاكات حين نشرت أربع من بنات العائلة ممّن يرتدين الجلابيب ويغطّين وجوههنّ بالبراقع السوداء، صورة لهنّ على الـ«فايسبوك». بدت الصورة مبهمة لا تفصح عن ملامح أو تفاصيل. علَّقت إحدى التنّورات على البراقع والجلابيب: ما الداعي إلى صورة لا يظهر فيها إلّا سواد في سواد؟!

استاءتِ الجلابيب، وعلى أثر ذلك وقعت مشاجرة، ثمّ وقع صلح هشٌّ بين المتخاصمين والمتخاصمات.

وحين اعتقدتُ واعتقد غيري من أبناء العائلة أنْ ليس ثمّة ما يثير القلق، وقعت مشكلة أصابت في الصميم رأس منّان، ابن أخي، حين اتّجهت الأنظار صوب ابنته لمياء، المتمرّدة على تقاليد العائلة، وراحت الألسنة تلوك من جديد سيرة زوجته زهور، الممرِّضة التي تمارس، بحسب عدد من أبناء العائلة، عملًا يضطرّها إلى تمريض الرجال والنظر إلى أجسادهم، وهو أمرٌ غير مقبول».

أغلقنا الدفتر، وقلت لليلى: أظنّ أنّني أعرف هذه الحكاية، لكنّني غير متأكِّد من شيء الآن. ثمّ واصلنا حلمنا.

10

وصلت قبلها إلى المقهى. جلست أنتظرها. ثمّة ضجيج خافت محبَّب ينبعث من حوارات الرجال والنساء ومن ضحكاتهم وضحكاتهن، ولم يكن أحدٌ يتلصَّص على أحد، أو يصغي في فضول لما يُهمس أو يُقال. وكان المذياع يبثُّ أغنيات عربيّة وأخرى أجنبيّة لمغنّين ومغنّيات، تصل إلى أسماعنا على نحو مريح.

ومن خلف زجاج المقهى، كانت البنايات متجهِّمة، ربّما من عسف الزمان، وربّما لأنّ المدينة لا تروقها هذه الأحوال التي تحياها منذ سنوات.

وصلتْ، وقبل أن تجلس خلعت منديلها الورديّ وفكَّت أزرار الجلباب، وأعلن صدرها حضوره البارز من تحت الفستان. وكان إميل وزوجته مريم وطفلتهما ماري يجلسون إلى طاولة عند الباب، تتحرّك عينا إميل في كلّ اتّجاه كما لو أنّه يعبّر عن ولعه بالمدينة أو يتخوّف من أمر ما، والنادلة سوسن تلوب في أرجاء المقهى مثل نحلة، وهي تقدّم للزبائن فناجين القهوة وكؤوس الشاي والعصير. كان فضاء المقهى يوحي بطمأنينة ما وهو يحتضن شابّات وشبابًا من مختلف الجنسيَّات، كأنّه جزيرة للفرح في محيط ملغوم.

بعد لحظات، اندفعتْ ثلَّة من الجنود ومعهم مجنَّدتان إلى داخل المقهى في غارة مفاجئة. جاؤوا وجاءت معهم الرائحة الكريهة التي هاجمتني وزكمت أنفي، وكانوا مثل وحوش ضارية تهاجم خليّة نحل آمنة. طلبوا منَّا إبراز بطاقات الهويّة.

دقَّقوا النظر في البطاقات، فتَّشوا بعض الشباب الأجانب. ثمّ اقتربوا منّا. فتَّشني أحد الجنود، وتولَّت جنديَّة من يهود الفلاشا تفتيش ليلى، وتلمّست صدرها بلؤم مقصود.

غادروا المقهى، وقال إميل:

– هذه ليست المرَّة الأولى التي يقتحمون فيها مقهاي.

أضاف:

– في بعض الأحيان يأتون على هيئة مُستعربين. يأتي ثلاثة شبّان وفتاة، يتحدّثون العربيّة بطلاقة، ويجلسون على مقربة من بعض الشباب يتنصّتون على أحاديثهم لعلّهم يكتشفون مؤامرة على دولة الاحتلال تهدّد بزوالها، يا لطيف الطفْ يا الله، فيحبطونها قبل اكتمالها. يمكثون في المقهى نصف ساعة أو أكثر قليلًا وأنا أرقبهم باستياء.

أصغت مريم لكلام زوجها ولسخريته المرّة من الدولة المحتلّة. كان على وجهها أسى ملحوظ يدلّ على امرأة مرهفة الحسّ، ذكيّة، جميلة، جمالها من النوع الرصين الذي يستدعي الاحترام والتبجيل، وهي حين تتحدّث تأسر القلوب بصدقها وهدوء صوتها. قالت:

– عجب، عجب والله!

وقالت:

– مجنّدات ومجنّدون قادمون من المدارس الثانويّة، متباهون بملابسهم العسكريّة وبالأسلحة الرشّاشة، يقتحمون القدس في أيّ وقت لكي يمارسوا الحقد والكراهية هنا في أمكنة ليست لهم، ثمّ يعودون إلى بيوتهم التي كانت للفلسطينيّين في القدس واللد والرملة وبئر السبع وعسقلان ويافا وحيفا وعكّا، للتفاخر أمام أمّهاتهم بذكر أعداد الفلسطينيّين الذين قتلوهم برصاص أسلحتهم أو أصابوهم بجراح.

هزّ إميل رأسه وهو يتأمّل وجه زوجته بحنان، وكنّا أنا وليلى نتأمّل وجهها باحترام، ثمّ خيّم علينا صمت.

وضعتُ بطاقة هويّتي في جيبي، ووضعتْ ليلى بطاقتها في جيب الجلباب، ثمّ راحت تسرِّح شعرها بأصابع يدها كأنّ شيئًا لم يعكِّر صفوها

قبل لحظات، مع أنّ أثر الغارة المفاجئة ظلّ ينداح في دوائر خافتة داخل صدري، وربّما داخل صدر ليلى، إلى وقت ما.

11

«وقد خطر ببالي، أن أستشير زوجتي سناء في حبِّ قيس وليلى.

فكّرتُ أن أسألها: هل يأبه بهذا الحبّ أحد سواي وسواهما؟! وهل يشكِّل علامة فارقة تضاف إلى قصص الحبِّ التي أثْرَت تراثنا وتراث البشريَّة بوجه عام؟! أتذكَّر حبَّ قيس بن الملوّح لليلى العامريّة، وحبَّ روميو لجولييت، وحبَّ خليل السكاكيني لسلطانة، وحبَّ أراغون لإلزا. هل يمكن إدراج حبّ قيس منّان لليلى محمّد في عداد قصص الحبّ التي عاشت على مرِّ الزمان وما زالت تعيش؟!

أشكُّ في ذلك، ولن أسأل سناء أيّ سؤال كي لا تستغرب سؤالي وتسخر منّي. وأكاد أجزم بأنّ هذا حبٌّ بسيط ساذج على قَدِّ الحال، لشابّ يريد أن ينستر مع شابّة تريد أن تنستر. هل إذا تزوّجتْ ليلى محمّد من شخص آخر نزولًا عند رغبة أهلها، يظلّ قيس منّان متيّمًا بها كما فعل قيس بن الملوّح، الذي ظلَّ متيَّمًا بليلاه حتّى الممات؟! هل يغامر قيس منّان بمساءلة زوج ليلى محمّد مثلما فعل قيس بن الملوّح حين جاء إلى جماعة من الرجال يتحلَّقون حول موقد للنار في الطقس البارد، ومعهم ورد بن محمّد العقيلي، زوج ليلى العامريّة، فسأله:

بربّك هل ضممتَ إليك ليلى / قُبيلَ الصبح أو قبَّلتَ فاها
وهل رفّتْ عليك قرونُ ليلى / رفيفَ الأقحوانة في نداها

(...)

فقال له: «أما إذ حلَّفْتني فنعم».

فقبض المجنون بكلتا يديه على النار ولم يتركها حتّى سقط مغشيًّا عليه»!

هل يقبض قيس منّان بكلتا يديه على النار جرَّاء حبِّه لليلى محمّد في حال تزوّجها غيره؟! وهل يجرؤ على توجيه سؤال من هذا القبيل في زماننا هذا إلى زوج حبيبته التي حرمه التمايز بين الطبقات الاجتماعية الزواجَ بها، ويضمن ألّا يتورَّط في مشكلة مع الزوج وأهله ومع أهل الزوجة؟! هل يبقى الحبُّ راسخًا في قلبه بعد أن تُجبر حبيبته على الاقتران بغيره؟!

أشكُّ في ذلك.

ولربّما جاء هذا الشكّ جرّاء ما ألحظه من تدنّي علاقات الودّ بين الناس هنا، ومن الأحقاد الكامنة في النفوس، ثمّ تظهر كالحة منفّرة على غير ميعاد.

وتعليقًا على تدنّي علاقات الودّ أقول: أنا وسناء مسالمان. وأكاد أجزم أنّ هذا السلوك لا يعجب رجالًا في العائلة. يريدونني أن أنحاز إلى صفّهم حين يحتدم الصراع بينهم وبين أقاربَ آخرين أو جيران. وأن أقتني مسدَّسًا بالخفية عن عيون المحتلّين لأستخدمه ضدّ الخصوم من ذوي القربى، وما هم بخصوم. أقول لهم: ليس من طبعي أن أقحم نفسي في صراعات داخليَّة، وما دمت قادرًا على حلِّ أيّ مشكلة بعقلي لا بيدي، فلا حاجة بي إلى أيّ سلاح.

حين أتلفَّظ بكلامي هذا، يزداد التذمُّر منّي، تُمَطّ الشفاه باستياء، وتصدر من هنا وهناك همهمات غامضة تنطوي على شتائم، ولا أَعْدَم ردًّا مباغتًا من شخص حادّ المزاج من بينهم بصوت فيه قسوة واستنكار: بعقلك لا بيدك يا ابن وضحا ومنّان!

أتدثَّر بالصمت وبالحكمة، وآنذاك تستدير الموجة العاتية نحو سناء، وتبدأ حفلة الغمز واللمز التي يتزعّمها في العادة أخي غير الشقيق، فليحان: هذا كلّه من تأثير الستّ عليك، لا تفكِّر في الإنجاب، ولا تثور

حميّتك ضدّ الأوغاد. والآن عليك أن تذهب إلى البيت لأخذ الإذن منها لتملي عليك ما تفعل وما تقول.

ولا يندر أن يُدلي القنفذ بدلوه، يمطّ رقبته نحو الأعلى وهو جالس في الركن البعيد ليُسمعني كلامًا بعضه خفيف لا ضير فيه، مثل: الخيّر يغيّر ويبدّل، وأنت يا محمّد الأصغر من خيار الناس، وبعضه الآخر ثقيل ممجوج، مثل: أنت من دون رَبْعكَ لا تساوي قشرة بصل.

وفي لحظة الذروة التي تنفلت فيها الأعصاب من عقالها، تُخْتَتَم الحفلة الضارية بكلمات نابية من أحدهم، ممن لا يقيمون وزنًا للذوق أو للشرف أو للحسّ الإنسانيّ السليم، فيقول: تفووووووو على هذا الزمان الذي جعل الرجال مطيَّة للنساء، يركبْنهم من دون خجل أو حياء.

بالطبع، بوسعي أن أردَّ على هذا الشتّام، لكنّني أترفَّع عن ذلك وتأباه نفسي، وأواصل الاقتداء بما قاله بشّار بن برد:

ولربّما تسبّبتْ لمياء ابنة منّان بن عطوان، بتعكير أجواء العائلة، وأكاد أجزمُ أنّها لم تقصد ذلك، فقد أحبَّت شابًّا مقيمًا مع أهله في حيّ وادي الجوز، غير بعيد من سور القدس القديمة. كانت بيوت الحيّ متجاورة ومتلاصقة على نحو يوحي بالألفة وحسن الجوار، أو ربّما كان أهل الحيّ مضطرّين إلى هذا التجاور حدَّ الازدحام، بسبب ضيق رقعة الأراضي المخصّصة للبناء.

ولم يجد منّان غضاضة في أن تحبَّ ابنته شابًّا من هذا الحيّ سيتقدَّم لخطبتها. لمياء ما زالت في الجامعة، في سنتها الثالثة، وهي تدرس علم الاجتماع. والشابّ يكبرها بخمسة أعوام، تخرَّج في كليّة التربية بالجامعة. وبسبب انعدام الوظائف اضطرَّ إلى أن يعمل بائعًا في متجر كبير للموادّ الغذائيَّة.

كان هذا الحبّ يَدْرُج في أمان ومن دون تعقيدات، إلى أن شاهدها أحد أبناء عمومتها، نبهان، وهو من أحفاد أخي فليحان، تتمشَّى في شارع بالمدينة مع حبيبها. هاله أن يرى ابنة العائلة مع شخص غريب، هنا بالضبط ينسى نبهان أنّ هذا الشخص ليس غريبًا، فهو فلسطينيّ مثله،

لكنّه غريبٌ من وجهة نظر نبهان المتزمّت، لأنّه ليس واحدًا من أبناء عائلة العبد اللات، ولأنّه يسيء بتصرّفه هذا إلى شرف العائلة على حدّ زعمه.

هاله أن تمشي لمياء مع هذا الشخص وشعرُ رأسها مكشوف، وتنّورتها لا تستر ساقيها، وتراءى له أنّ هذا الغريب ربّما غرّر بها وافتضّ بكارتها، فلم يتحمّل مجرّد التفكير بالأمر، هجم على الحبيب الغريب واشتبك معه في شجار، ولولا تدخُّل الناس الذين تحلَّقوا حولهما لوقعت مأساة.

اكتمل الشجار حين عادت لمياء إلى بيت أهلها، هجم نبهان وعدد آخر من أبناء العائلة على بيت منّان، وراحوا يكيلون الضربات للفتاة، ولم يقيموا وزنًا لاحتجاج أبيها على أفعالهم. تدخَّل شقيقها قيس لحمايتها، فدفعوه بقوّة وأسقطوه على الأرض. تدخَّلت أمّها زهور، فنالتها شتائم كثيرة، وكانوا يصيحون بأصوات مرعدة: الله أكبر، الله أكبر.

سال من أنف لمياء دمٌ صبغ بلوزتها وتنّورتها وتناثر الدم على البلاط. لم يتحمّل منّان هذا المشهد، ساءت حالته وفقد وعيه. حملتُه أنا وبعض الأقارب إلى المستشفى، وتكفّلتْ زوجتي سناء بتخفيف المُصاب الذي روّعَ زهور وابنتها لمياء.»

أغلقتُ الدفتر، وقلت: أظنّ أنّني أعرف ما جرى، لكنّني لست متأكِّدًا من شيء الآن، وواصلت وليلى... حلمنا.

12

كنت انتظرتُها ساعة طويلة مرهقة ولم تأت. فاحت الرائحة الكريهة وأصابني همّ وقلق، ولم أشأ أن أهاتفها أو أن أرسل إليها رسالة على الـ«واتس أب».

في الأثناء، استغرقتُ في تأمُّل وجه إميل الجالس بصمت وشرود. إميل رجل موزون الكلام، طويل القامة، هادئ ووقور، تعرفه وتألفه على الفور. ورث مقهاه من أبيه، أبيه الذي ورث المقهى من أبيه، وهو من أسرة عريقة في القدس، يعرف تفاصيل المدينة من الألف إلى الياء. لم يغادرها منذ ولد فيها ولا يفكِّر بمغادرتها مثلما فعل بعض أقاربه.

قال لي:

– هاجروا لأنّهم لم يتحمّلوا الحياة تحت الاحتلال، فهنا تجد الاستعلاء العنصريّ الذي يبديه الرسميّون الإسرائيليّون والجنود تجاه الفلسطينيّين، ولا يتورّع الإسرائيليّ العاديّ عن التعالي على الفلسطينيّ واحتقاره كأنّما هو أدنى منه، بحيث صارت صفة «عربي قذر» شتيمة لاصقة بنا ولا فكاك لنا منها، ثمّ هناك الضرائب الباهظة، والخوف المستمرّ من الاعتقال لأيّ سبب.

وأضاف:

– بعضهم هاجر بسبب المضايقات التي يَلقونها من بعض المسلمين المتعصِّبين من أبناء البلد. ماذا تتوقَّع أن يكون ردّ فعلك حين تسمع بأذنيك

من يشتم رجل دين مسيحيّ فلسطينيّ وهو مارٌّ في السوق، قائلًا له بكلّ غلظة: يا نصراني، يا كافر، يا عدوّ الله!

ماذا تتوقّع حين يعتبرون الفلسطينيّ المسيحيّ ذمّيًّا؟! أين المواطَنة في هذه الحالة؟! وأين المساواة في الحقوق والواجبات؟! وماذا تتوقّع وهم لا يجيزون للمسلمين السلام على إخوتهم المسيحيّين في أعيادهم؟!

وتابع:

– كانت الحال في القدس غير هذه في سنوات سابقة. اقرأ ما كتبه واصف جوهريّة عن علاقات مسلمي القدس بمسيحيّيها في النصف الأوّل من القرن العشرين، لترى كيف كانت القدس وكيف أصبحت!

ازددتُ تقديرًا لإميل على عمق ارتباطه بالمدينة، وتألّمتُ لهذه الحال الراهنة المزرية، ولهذه السلوكيّات التي تكشف عن تعصّب دينيّ، وتسهم في تأجيج الفرقة والتباغض بين أبناء الوطن الواحد وبناته.

قلت له:

– اسمع يا إميل، يوجد مسلمون معتدلون يفهمون رسالة الإسلام السمحة على حقيقتها، لكنّ صوتهم غير مسموع وتأثيرهم محدود أمام نزعة التطرّف والإقصاء.

ظلّ إميل صامتًا وهي يصغي إليّ بانتباه. قلت:

– لا بدّ من إصلاح دينيّ طال الزمان أم قصر.

لم يعلّق إميل على كلامي، ثم نهض مبتعدًا.

وبعد ساعة من الانتظار، وصلتني رسالة على هاتفي المحمول من ليلى. قالت إنّ شقيقها مصطفى التقاها صدفة وهي بصدد القدوم إلى المقهى، شعرتْ بالحرج ولم تدرِ كيف تتملّص منه، وحين اقترح عليها أن تعود معه في سيّارته إلى البيت، لم تجد بدًّا من الموافقة على اقتراحه، وأنّها الآن في غرفتها حبيسة الجدران. أنهتْ رسالتها بكلام حميم: أفكّرُ فيك وأنا في غرفتي الغارقة في الفوضى.

أرسلتُ إليها رسالة: أحبّك وأحبّ غرفتك وأعشق فوضاها.

ودَّعتُ إميل وغادرت مقهاه. كانت ريح عنيدة باردة تهبُّ في الخارج وتلفح وجهي بلامبالاة.

***

بعد ثلاثة أيّام ذهبنا إلى البرّيّة، مشينا في السهل الفسيح ثمّ دخلنا مقبرة الأجداد.

قُدتها من يدها، وكانت تدرج إلى جواري مثل حمامة ونحن نقترب من قبر حرّان، الشهيد الذي ربّما قتله عسكر الإنكليز لعصيانه أوامرهم بإطلاق النار على الثوّار، الثوّار الذين كانوا يجتازون نهر الأردنّ إلى فلسطين في عشرينيّات القرن العشرين، محمّلين بالذخائر والأسلحة.

قلت:

– هنا استلقت حبيبته معزوزة، عمّة جدّي عطوان، إلى جوار قبره حين جاءت تزوره. خلعت ثوبها واستلقت بشلحتها الخفيفة السوداء على مقربة من القبر، ولربّما كانت تواقَّة لأنْ يحتضنها ويعتصر جسدها حتّى تشهق شهقة يتردَّد صداها في الوديان.

تَزلزلَ جسد ليلى على وقع الكلام.

أدركتُ ذلك من تدفّق أنفاسها، ومن اصطباغ خدّيها بحمرة جاذبة. خلعتْ جلبابها واستلقتْ في الحيّز الذي استلقتْ فيه معزوزة، وكان فستانها الطويل ينزاح قليلًا عن رخام الساقين، استرختْ برشاقة لا مزيد عليها، وراحت تتأمَّل القبر المحاذي لجسدها، وتسرّح نظرها في محيط المكان.

قالت:

– يثيرني تجاور الموت مع الحياة.

تأمَّلتُها بإعجاب، وكانت السماء تزدهي بثوبها الأزرق الموشَّى ببياض. لم يربكني سوى جلال اللحظة، وإحساسي بأنّ عيون الجدَّات والأجداد تحاصرنا.

قلت لها وأنا مبهورٌ بتفاصيل المشهد:

-هل راقك ما فعلتْه معزوزة؟

قالت:

– راقني كثيرًا، وأنا أكرّره الآن.

كنتُ مهتاجة المشاعر، وكانت حرارةٌ مفاجئة تسري في جسدي، ولم أكن راغبة في النهوض، لكنّني قدَّرت أنّ قيس لم يحتمل استمرار المشهد، لما فيه من إثارة ولما ينطوي عليه من احتمالات. فقلت له بعد تردُّد: خذ بيدي.

استوتْ جالسة، قبضتُ على يدها وساعدتُها على النهوض. ساعدتُها أيضًا على ارتداء الجلباب، وكانت حمّى الشهوة تجتاح بدني.

قلت لنفسي: علينا أن نتزوَّج في وقت قريب.

وبدتْ كما لو أنّها أدركتْ ما كنت أفكِّر فيه، فقالت:

– تعالَ اطلبْ يدي من أبي، ولا تتردَّد، تعال.

***

في طريق عودتنا إلى المدينة، قالت:

– كان جدِّي حسن القانع تاجرًا مرموقًا في يافا، وكانت له كأبيه مواقف وطنيّة، يجاهر برفضه الهجرة الصهيونيّة وسياسات الانتداب البريطانيّ، يدعوه خطباء السياسة وممثِّلو الأحزاب إلى قاعات المدينة التي يلقون فيها خطبهم فيذهب إلى هناك ويستمع إليهم، ويدعم مساعيهم لتحشيد الناس، ويتبرَّع من أجل ذلك بمبالغ من المال.

وعند حلول المساء، كان يرتدي ملابس أنيقة مخصَّصة للسهرات، بدلة رماديّة من قماش إنكليزيّ وحذاء أسود من جلد أصليّ. يغادر البيت للقاء ثلَّة من الأصحاب يسهرون في ملهىً يقدِّم خمورًا ونساء راقصات. يشرب جدّي الخمر ويُسلْطِن، ولا يعود إلى البيت إلّا بعد منتصف الليل.

كانت يافا مدينة أنثى بامتياز، تتعايش فيها كلّ المتناقضات. هي مدينة البحر، مثل حيفا وعكّا والإسكندريّة وبيروت، تستقبل كلّ ما يأتيها به البحر من أفكار وفنون وأزياء وتقليعات. يلتهم أهل المدينة كلّ جديد يهبُّ

عليهم من جهة البحر بلا تعصُّب. في ساعات الصحو، يتحدَّثون وهم جالسون في المقاهي أو في الحوانيت عن الخطر المحدق بالمدينة، أما في لحظات التجلّي فيتحدَّثون عن مفاتن النساء الراقصات في ملاهي المدينة. لكنّ المدينة لم تكن راضية عمَّا يقذفه البحر إليها من أسلحة مهرَّبة ومهاجرين غرباء.

وبعد سنوات من خسارة يافا، ومن وقوع الجزء الشرقي من القدس تحت الاحتلال وتصاعد نفوذ الجماعات الأصوليَّة، كان على جدّي أن يمشي مع التيّار. هذا ما أبلغ به أبي وأعمامي ذات مساء، انسياقًا ربّما لنصيحة بعض الأصدقاء، وآمن به وجعله مرجعًا يرجع إليه. كان يخشى على تجارته الكساد، وعلى كرامته الانتهاك. كان يرى التحوّلات السلبيَّة التي تحدث في قلب المجتمع: عودة إلى المحافظة والتزمّت والتمسّك بقشور الدين وتحجيب النساء. أدرك ذلك، وربّما ساعده على الإدراك بعض الأصحاب، وبعض هزائمنا، وعرف أنّ عليه تغيير المسار، فهو لم ينسَ بعد، ولن ينسى، ما حلّ بتجارته بعد مغادرته يافا قسرًا.

غيَّر جدِّي المسار، وكذلك فعل أبي، وأصبحت الحال غير الحال.

وقالت:

– ذات ليلة، وأنا طفلة في الثامنة، أطلق فدائيّ النار وهو مستحكم خلف سور بيتنا على دوريّة للجنود ثمّ اختفى، وبعد دقائق طوَّق المحتلّون حيّنا وفرضوا عليه حظر التجول. فتّشوا بيتنا بعد أن عثروا على الفشك الفارغ في حديقة البيت. بعثروا أثاث بيتنا على البلاط، ثمّ اقتادوا أبي إلى السجن. هناك تعرّض للضرب وللإهانات كي يعترف عمّن قام بإطلاق النار، ولم يكفّوا عن التحقيق معه إلّا بعد أن قبضوا على الفدائيّ.

بعد ثلاثة أسابيع، أفرجوا عن أبي.

13

واصلتُ الشفقة على قيس وليلى، وعلى حبِّهما الذي يمكن كسره في لحظات. واصلتُ في الوقت ذاته الخشية على ليلى من نوايا قيس. يأخذها إلى البرِّيَّة ويمكثان هناك وحدهما وقتًا غير قليل. يأخذها إلى بحر يافا ويجلسان على رمل الشاطئ ساعة أو ساعتين، ينفرد بها في السيَّارة وفي المقهى وفي المكتبة العامّة، في حديقة المتحف وفي سوق أفتيموس.

في المقهى والمكتبة، في الحديقة والسوق لا خوف عليها منه. بالطبع، لديّ وسائلي الخاصّة في معرفة أسرار قيس، الأسرار تتسرَّب من بيت أهله. وأنا لا أعتمد فقط على تسرّبها من هذا البيت، فلديّ وسائلي الأخرى، ولن أكشف عنها لسبب خاصّ.

وأكادُ أجزمُ أنّ ليلى ليست في مأمن من نوايا قيس، وأنا أخشى عليها من نزوة طائشة وهما معًا في البرِّيَّة أو على الشاطئ. قد يغويها، يثيرها، ويجعلها تنسى نفسها وتنسى ما يترتّب على فعلها المتسرِّع من تبعات. تمكِّنه من جسدها في البرِّيَّة أو في مكان مهجور على شاطئ البحر، تحبل وينتفخ بطنها. لا، لا، لن تحبل منه، أنا واثق من ذلك، لكنّه قد يُفقدها عذريَّتها.

عدتُ بذهني إلى زمن الحبّ العذريّ الذي جمع قيس بن الملوَّح بليلى العامريَّة، وإلى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، الزمن الذي عاش فيه قيس وليلاه. في ذلك الزمن تزوّج الحجّاج بن يوسف الثقفيّ

بامرأة جميلة اسمها هند، تزوّجها بالإكراه، غصبًا عنها وعن أبيها، ثمّ طلّقها حين لاحظ احتقارها إياه. سمع الخليفة عبد الملك عن جمالها، وطلب من أحد أتباعه أن يصفها له، فأخبره أنْ لا عيب فيها سوى أنّها عظيمة الثديين، فلم ينفر عبد الملك من ذلك، قال: وما عيبُ عظيمةِ الثديين؟! تُدفئ الضجيع وتُشبع الرضيع.

وتزوّجها.

في ذاك الزمن الذي يُعنى فيه الخليفة بمفاتن امرأة، ما الذي يمكن قوله في حبّ قيس بن الملوّح لليلاه؟! هل هو حبّ عذريّ بالفعل؟! أم كان يتغطَّى بالعذريَّة لتفادي المسؤوليَّة عن فعل لا تقرُّه القبيلة؟! كان قيس ينفرد بليلى على جبل التوْباد، وفي كهف موغل في البعد عن أنظار الناس. لم يغدر بها، ولم تضعف وهي متيّمة به، أو هذا ما ردَّده الرواة. قلت: إنْ كان قيس منّان وليلى محمّد يترسَّمان خطى مجنون ليلى وحبيبته، فليس ثمَّة خوف. ثمّ تساءلت: ولكن من يضمن لي ذلك؟! من يستطيع تأكيد أنّ المجنون لم يمسسْ جسد ليلاه؟!

فكَّرتُ أن أستشير زوجتي سناء في الأمر، لعلّها ترشدني إلى ما يطمئنني. ثمّ استبعدت الفكرة، ولم أشأ أن أرهقها بقضايا العذريَّة واحتمالات الحبل والميلاد، لما تسبِّبه لها من هزَّات شعوريَّة.

فكَّرتُ في التشاور مع ماريا زخاروفا، هل ترى مستقبلًا لهذا الحبّ الناشىء في زمن ملتبس؟! وهل ثمَّة من يصغي إلى حبّ شابٍّ مغمور، سائق سيَّارة أجرة، شابَّةً مغمورة، مدرِّسة في مدرسة أهليّة، ابنة تاجر ثريّ يقدِّس الملكيّة الخاصَّة، ويُعنى بالتمايز بين طبقات المجتمع ولا يقرُّ اختراق الجدران الماثلة بينها أو هدمها وإزالتها من الوجود، بعد تنكّره لقناعاته السابقة التي كانت على العكس من ذلك؟!

فكَّرتُ أن أطلع ماريا زخاروفا على هواجسي، ثمّ أقلعتُ عن فكرتي في اللحظة الأخيرة، فمن هو قيس ومن هي ليلى لكي تهتمَّ بهما ماريا زخاروفا؟! أكادُ أجزم بأنّهما لا يعنيان لها شيئًا.

وأكادُ أجزم بأنّ مقارنة زمن قيس بن الملوّح بزمن قيس بن منّان

ليست دقيقة، فآنذاك أخذ بنو أميّة الخلافة إلى دمشق، وبقي قيس المجنون في الحجاز بعيدًا من السياسة وهمومها، متفرّغًا للحبِّ ولقصائد الغزل النابعة من القلب.

أمّا قيس منّان فإنّه يكدُّ كلّ يوم من الصباح المبكّر إلى ما بعد المساء، وأحيانًا إلى منتصف الليل، لاصطياد لقمة العيش، وبالكاد يجد وقتًا للقراءة والكتابة، يعيش كلّ لحظة في حياته تحت سطوة الخوف، فقد يُقتل برصاص الجنود، أو برصاص المستوطنين، أو يتعرَّض للضرب ولنهب نقوده من مجهولين، وقد يُعتقل بفعل مدبَّر أو بصدفة محضة.

قصَّة حبّه لا تشكِّل مثلًا يُحتذى للشباب والشابّات.

هذه الأيّام، في راس النبع، الحيِّ الذي أقيم فيه ويقيم فيه قيس، لا وجود -إلّا في ما ندر- لعلاقات حبٍّ بين الأولاد والبنات، ليس عزوفًا منهم ومنهنّ عن الحب، وإنّما بسبب الخوف من المجتمع وتقاليده الصارمة.

وفي العادة الدارجة، تذهب أمُّ الولد إلى أهل البنت لكي تعاين البنت، تتأكّد من سلامة أسنانها ومن سلامة نطقها وحدّة سمعها، ثمّ تقترح عليها أن تحمّمها.

في بعض الأحيان لا تعترض البنت ولا أمُّها على ذلك، تتعرّى البنت وتحمّمها أمّ الولد للتأكّد من صلابة نهديها ورشاقة بطنها واتّساع حوضها واستدارة فخذيها، وحين تكون المواصفات في المستوى المطلوب، تعلن رغبتها في خطبتها لابنها. ثمّ يأتي الابن ليرى البنت بحضور الأهل، وبعد أيّام تتمُّ الخطوبة، وبعد أسابيع أو أشهر يتمُّ الزواج.

في أحيان أخرى، تستهجن البنت هذا الطلب المهين، وتستهجنه أمّها، ولا تتعرّى البنت ولا تدخل الحمّام، فتغادر أمّ الولد إلى بيتها وهي مسربلة بالغضب والحنق والاستياء.

وتقول أمّ البنت: لولا أنّ إبريق الفخّار الذي ندّخره لأيّام الصيف يعزّ علي، لكسرته خلفها غير آسفة عليها وعلى ابنها.

وتعلن البنت نفورها من أمّ الولد، ومن صلفها الذي لا يُحتمل.

شبيه بذلك، تلك الفتوى المستهجَنة التي أطلقها ذلك الشيخ، مجيزًا

تلصّص طالب القُرب على جسد الفتاة قبل خطبتها وهي عارية في الحمّام، شريطة أن يكون جادًّا في أمر الخطبة والزواج. والسؤال: من هو القادر على التفتيش في النوايا ليعرف إنْ كان المتلصّص جادًّا أم غير جادّ؟!

أكاد أجزم أنّ فتوى الشيخ بعيدة كلّ البعد عن جادّة التفكير السليم، وما هي إلّا تعبير مفضوح عن شبق أرعن، وعن هَوَسٍ ممجوج.

14

لم أكن أتوقّع ما جرى لي ظهيرةَ ذلك اليوم.

كنت راجعًا في سيّارتي نحو باب العمود. التقطتُ راكبًا نحيلًا مثل عود جافّ كان واقفًا عند منعطف في حيّ الطور، الكائن على جبل مقابل سور القدس. في نهاية الشارع ربضت سيّارة شرطة إسرائيليَّة، وكأنّها كانت هناك في شكل مقصود. أوقفني الشرطيّ وطلب أوراقي وأوراق السيَّارة، ثمّ طلب بطاقة هويَّة الراكب. لم يكن الراكب من حاملي هويّة القدس، كما لم يكن يحمل تصريحًا لدخول المدينة.

جاء متسلِّلًا من أريحا لكي يظفر بفرصة عمل في القدس، ولم يكن يعلم، أو ربّما كان يعلم، بأنّ هذه مخالفة أتحمَّل تبعاتها، لأنّني وافقت على نقله في سيّارتي. لحسن الحظّ، لم يكن له في دوائر الأمن الإسرائيليّ ملفٌّ أمنيّ، لم يكن كذلك يحمل في جيبه مسدّسًا أو سكّينًا، وإلّا كنتُ أمضيتُ في السجن عشر سنوات أو أكثر.

تعرّضتُ أثناء التحقيق للضرب وللإهانات، شتم المحقّقون أمّي وأبي بلغة عربيّة سافرة، ألقوا بي في سجن المسكوبيَّة الواقع في الجزء الغربي من القدس، كانت رطوبة السجن تثير أعصابي وتجعل نومي مزعزعًا. زارني أبي، وزارتني أمِّي وشقيقاتي الثلاث، لكنّ ليلى لم تتمكّن من زيارتي. حملت أمِّي رسالة شفهية من ليلى بأنّها ستنتظرني ولو حكموا عليّ بالسجن عشرين سنة.

تشجّعتُ وارتفعتْ معنويّاتي، ولم أمكث في المسكوبيّة سوى خمسة أسابيع، ثمّ أفرجوا عنّي بعد أن دفعت غرامة ماليّة باهظة.

***

التقيتُ ليلى بعد إطلاق سراحي، وأخبرتها بأنّ مهنتنا، نحن سائقي سيّارات الأجرة، تُعرِّضنا لمتاعب كثيرة، إلّا أنّ ما تعرَّضتُ له كان أخفّ بما لا يقاس ممّا تعرَّض له آخرون ممَّن قاوموا الاحتلال بالسلاح ودفعوا الثمن سنوات طويلة من أعمارهم، أو قضوا نحبهم شهداء.

هزَّتْ رأسها، وهنَّأتني بالسلامة، وكنتُ أخفيتُ عنها خبر زواجي الأوَّل من ابنة عائلتي، نفيسة. كانت نفيسة معنيّة بإنجاب طفل في أسرع وقت ممكن، وكانت على قناعة بأنّ أسمى مهمّة للمرأة في الحياة هي الإنجاب. حين كنت أقتربُ منها في الفراش لم تكن تعنيها لذّة الوصال ولا التفنّن في إظهار الرغبة في المتعة الحلال. كانت تستلقي على السرير من دون إثارة أو استعداد، تتلقّى اندفاعاتي الجامحة بهدوء، ولا يسيطر على ذهنها ومشاعرها إلّا الظفر بفرصة للحبل، تنتظر بلهفة موعد دورتها الشهريّة، ثمّ تصاب بصدمة حين تأتيها.

وحين طال انتظارها ذهبتُ إلى الطبيب إرضاء لها، فأثبتت التقارير الطبّيّة أنّني عقيم، عندها طلبت نفيسة الطلاق، لأنّها لم تحتمل أن تعيش عمرها كلّه من دون أطفال.

كنتُ تزوّجتُها بحكم العادة التي لا تزال سائدة في عائلتنا، مع بعض استثناءات: نُزوّج بناتنا لأبنائنا، أو وفقًا للقول الدارج الذي تردّده الجدّات: نخلط زيتنا بطحيننا. لم يكن بيني وبين نفيسة حبّ، ومع ذلك بقيت أخلط زيتي بطحينها ثلاث سنوات، إلى أن طلبتِ الطلاق. طلَّقتُها ولم تتزوَّج مرَّة أخرى حتّى الآن، إذ ليس من السهل على امرأة مطلَّقة في بلادنا أن تظفر بزوج.

ليلة زفافنا، دخلتْ علينا أمّها عائشة بعد ساعة من اختلائي بابنتها، كانت معنيّة بأن تنتهي الليلة على النحو المرتجى. سألتني وهي تتأمّل

فراشنا بعين فاحصة: «قمحة ولّا شعيرة؟!»

قلت لها بثقة وارتياح: «قمحة».

ابتسمتْ وراقها منظر الدم الذي سال على الفراش، وفيه الدليل على أنّني أفلحت في أداء الواجب المنوط بي، وعلى أنّ ابنتها دخلت مخدع العرس وهي عذراء. استلّت من جيب جلبابها منديلًا أبيض، فركتْ به وجه الفراش ثمّ خرجتْ إلى جمهرة النساء الجالسات في ساحة الدار وأطلقت زغرودة مدوّية، فانتقلت العدوى إلى نساء العائلة الأخريات فزغردن، في طقس احتفاليّ موروث منذ أيّام البرّيّة وما بعدها ولم يعد شائعًا إلّا على نحو محدود لدى بعض العائلات. زغردن بابتهاج، ومن دون حرج أو خجل.

لم تكن نفيسة متطلّبة في الفراش، في بعض الأحيان كان يعتريها النعاس ونحن في ذروة الفعل الحميم، وفي بعض الليالي،كانت تُشعرني بأنّ لا رغبة لديها في الوصال، كانت تذوب خجلًا حين أتلفّظ ببعض كلمات مكشوفة تستدعيها تلك اللحظات.

أخبرتُ ليلى بأنّ حبّي لها هو الذي اضطرّني إلى التكتّم على زواجي الأوّل وعدم البوح به إلّا عند اللحظة الفاصلة: الآن، وقبل طلب يدها من أهلها، كشفتُ لها ما كان مستورًا، وتركتُ لها حرّيّة اتِّخاذ القرار.

***

بعد أيّام معدودات، انتظرتُها في مقهى إميل، انتظرتها ساعة وأربعين دقيقة ولم تجئ. اعتقدتُ أنّها استاءت من إخفائي أمر الزواج الأوّل عنها، وكذلك إخفائي أمر العقم الذي ابتليتُ به. قطعتْ كلّ اتصال بي، أغلقت هاتفها المحمول، ولم تعد تنشط على حسابها في الـ«فايسبوك»، ولم تردَّ على رسائلي التي أرسلتها إليها على الـ«واتس أب». لم أعد أراها وهي تنزل درج باب العمود أو تصعده، فقد كانت المدارس تجتاز عطلة الشتاء.

حين ابتدأ دوام المدارس شاهدتُها، اعتقدتُ أنّها تقصدت المرور من أمامي، ابتسمتُ لها وابتسمت لي، وواصلَت طريقها نحو الدرج النازل إلى باب العمود، نزلتْه درجة درجة برشاقة واعتداد، هاتفتُها فردّت عليّ في الحال، طلبتُ منها موعدًا، فلم تعترض. هاجني الشوق إليها وكنت أستعجل الدقائق والساعات في انتظار الموعد المرتقب.

***

التقينا بعد دوامها المدرسيّ في مقهى إميل.

جاءت بقوامها الممشوق، وبالجاذبيّة الغامضة التي تجعلها شديدة الحضور. جاءت وهي تحني رأسها خوفًا من متلصّص ما. أبهجتني طلّتها الجميلة، سلّمتْ عليّ واعتذرتْ لأنّها غابت عنّي كلّ هذا الوقت.

اقترب منّا إميل، كان نحيلًا محلوق الشاربين، على العكس من جدّه وأبيه. رحّب بنا كعادته، طلبنا فنجانين من القهوة. ذكّرتها بأوّل لقاء جمعنا في هذا المقهى قبل أشهر معدودات، ابتسمتْ وخلعت منديلها البنّي المرشوق بدوائر صغيرة بيضاء، فانسرح شعرها مثل طيور خرجت من قفص. فكّت أزرار جلبابها، فاندلع اللون الخمريّ البهيج لفستانها. اعتراني فرح، واعترت ليلى طمأنينة ما.

جاءت، وكنت أنتظرُ على نار، كلمتَها الأخيرة.

وصفتْ لي ليالي العذاب التي عاشتها وهي حائرة بين أن تنهي العلاقة التي نشأت بيننا، وبين أن تستمرّ فيها وتوصلها إلى الغاية المرجوّة منها. قالت إنّها كانت تنقض في النهار ما تبرمه بينها وبين نفسها في الليل. كانت تتّخذ قرارها بالاستمرار في العلاقة ثمّ تتّخذ قرارًا مضادًّا بإنهاء هذه العلاقة، ثمّ أخيرًا اتخذت قرارها الذي استقرّت عليه وجاءت لتلتقيني كالمعتاد. أكَّدتْ لي أنّها لن تتخلَّى عنّي مهما كانت الظروف والأسباب.

قالت إنّها تغفر لي كتماني أمر زواجي الأوّل عنها، وهي تتفهَّم سرِّي الآخر المتعلّق بعدم الإنجاب، ولن تفرِّط بي، وسوف تتحمّل العبء معي

لأنّها ليست أفضل من سناء، زوجة محمّد الأصغر، عمّ والدي. قالت لي في مزاح:

– أنت غشّاش، كتمتَ الأمر عنّي وانتظرتَ حتّى تمكَّنتَ من قلبي، ولم يعد سهلًا عليَّ أن أنساك.

أطربني كلامها، واحتدمت مشاعري، حتّى أنّني هممتُ بالنهوض من مكاني لكي أضمّها إلى صدري، لكني امتنعت خشية ردّ فعلها غير المحسوب. اكتفيت باعتصار يدها للتعبير عمّا أُكِنّه لها من حب. أمضينا ساعة في المقهى ونحن نخرج من حديث شهيّ لندخل في حديث أشهى، وبين الحين والآخر كنّا نتذكَّر أنّ لها أبًا قاسيًا وأشقَّاء متشدِّدين. تذكَّرنا مسدَّس شقيقها الذي يحتفظ به سرًّا للوقائع السود.

اقترحتُ عليها أن أوصلها بسيّارتي إلى بيت أهلها، تمنَّعت وقالت إنّها تفضِّل العودة في الحافلة. افترقنا، وكنت على تواصل معها على الـ«واتس أب». كنت أعرف إلى أين وصلت بها الحافلة وأين هي الآن، وكنت أتابعها وهي ترسل لي رسائل مختصرة وأنا جالس خلف مقود السيَّارة في انتظار راكب أو راكبة، أردُّ على رسائلها كما لو أنّنا ما زلنا جالسيْن معًا في المقهى نتبادل الكلام ونؤكّد أنّ الحبّ بين رجل وامرأة ممكنٌ في مدينة مبتلاة بأسوأ احتلال.

15

ذهبنا إلى أهل ليلى لنخطبها من أبيها لابننا قيس وأنا أكاد أجزم بأنّنا ذاهبون في مهمّة خاسرة. كنَّا سبعة رجال من أبناء عائلة العبد اللات، أنا ومنّان وابنه قيس وأربعة رجال آخرين، من بينهم أخي «ع» الذي سطا على جهودي في التدوين ونسبها إلى نفسه، وكانت معنا زوجتي سناء، وزهور أمّ قيس، وابنتها لمياء.

قيس متيَّم بليلى، وهو يحبُّها وهي تحبّه كما قال لي ولأبيه، وكما قال لأمِّه من قبل. كنت أعرف أنّنا نتخطَّى العادات المرعيَّة، فقد كان علينا ألّا نذهب إلى أهل ليلى إلّا ونحن متأكِّدون من ترحيبهم بنا، وقبولهم بمصاهرتنا.

قال لي منّان هامسًا كما لو أنّه يعبّر عن عدم رضاه عن هذا الأسلوب في التواصل مع الناس: «هذه هي رغبة قيس، ورغبة أمّه كذلك، نفاجئهم لعلَّهم يستجيبون».

اكتفينا بأن أخبرناهم برغبتنا في زيارتهم، وأكاد أجزم أنّهم رحّبوا بالزيارة على مضض. ذهبنا إلى بيت حنينا الجديدة حيثُ يقيمون، وكان برد أواخر شهر شباط «يقصُّ المسمار» كما يقال، ولم أكن أتوقَّع أن يوافق أهل ليلى على مصاهرتنا، لأنّهم ينتمون إلى شريحة اجتماعيَّة تتميّز بموقع أعلى من موقع عائلتنا في سلَّم التراتب الاجتماعي. عائلتنا كان لها وضعها الاجتماعي المرموق في زمن البرِّيَّة وما بعده بسنوات، لكنّها تعاني الآن من انحدار مريع، أو هذا ما تظهره المرحلة. كان ابن أخي،

منّان، متشكِّكًا كذلك في أمر المصاهرة، لكنّه انصاع لرغبة زوجته زهور وابنه قيس.

قال قيس إنّه يعوّل على حبِّ ليلى وقوَّة شخصيّتها، بحيث يضطرّ أهلها إلى الموافقة على الخطبة انصياعًا لرغبتها، وقال إنّه يعوِّل على مساندة أمّها، التي لم تعترض على علاقته بابنتها اعتقادًا بحسن سلوكه وطيب نواياه.

وقال إنّه يعوِّل على انقلاب الأحوال. في الماضي كانت عائلات المدينة تأنف مصاهرة عائلات الريف، لأسباب اقتصاديَّة وطبقيَّة، ولاختلاف درجات التمدُّن بين أولئك وهؤلاء، واليوم صار لشباب الريف جاذبيَّة لا تخفى على عيون البنات. ونظرًا لعدم توفُّر الوظائف، صار عدد كبير منهم أجيرين في الورش الإسرائيليَّة، أو سائقي سيَّارات أجرة أو سيّارات شحن كبيرة، فصار من المألوف أن يتقدَّم سائق سيَّارة أجرة لكي يخطب فتاة من المدينة، فتقبل به خطيبًا لها.

قال:

– ثمّ إنّ قرية راس النبع صارت اليوم حيًّا من أحياء القدس.

تذكّرتُ أنّني خطبت سناء قبل هذه التحوّلات. ربّما وافق أهلها على الخطبة لأنّها كانت امرأة مطلَّقة، وربّما لأنّني كنت موظّفًا في المحكمة الشرعيّة، والوظائف في تلك السنوات كانت شحيحة، وفي علب العرائس كما يقال. إنّما المهمّ في الأمر أنّ سناء وقعتْ في حبِّي آنذاك، ووقعتُ في حبِّها.

قلت في سرِّي ونحن ندخل حديقة البيت الغنيَّة بالأشجار ونباتات الزينة: قد يتمخَّض كلام قيس عن سراب. إلّا أنّني تمنّيت أن تتمَّ هذه الخطبة من دون عوائق أو تعقيدات.

استقبلَنا أهلُ ليلى بالترحاب، جلس أبوها وأعمامها وأشقَّاؤها في جهة من الصالة الفسيحة، وجلسنا نحن في الجهة المقابلة، وكانت بيننا مسافة فاصلة. كان ثمَّة صمت مشحون، كما لو أنّنا سندخل في مجابهة. كدتُ أخرج من السياق المألوف، انصياعًا لرغبتي في التدوين، وأتّخذُ قرارًا

اعتباطيًّا بإعلان الخطوبة بجرّة قلم كما يفعل الكتّاب المبتدئون، غيرَ أنّني تراجعت عن قراري هذا في اللحظة الأخيرة، إذ ليس مستساغًا لدى الناس ذوي الحسّ السليم لَيُّ أعناق القضايا جزافًا. ثمّ إنّ أخي «ع» قد لا يروقه مثل هذا التصرّف، فينشأ بيننا خلاف في غير أوانه، وقد يتطاول عليّ أمام الحضور قائلًا: ما أنت إلّا مخلوق في نصّ أدبيّ أنا خالقه. ولن أسكت له، سأتّهمه بأنّه هو الذي يسطو على ما أدوّنه من وقائع وتفاصيل، فلا يرتاح أهل ليلى لمثل هذا الخلاف.

أحضروا لنا القهوة، كانت رائحتها الزكيّة تعبق في فضاء الصالة. امتنعنا عن شربها – كما هي العادة المتَّبعة في مثل هذه الحالات – إلى أن يلبّوا طلبنا. أقنعونا بشربها وبعدم التشدّد، وقالوا إنّهم سيردّون لنا الجواب بعد أيَّام. أشفقتُ على ليلى من قسوة أهلها، كان وجه أبيها جامدًا مثل قطعة فولاذ. أشفقتُ أيضًا على قيس.

بعد أيَّام جاءنا الجواب، وكنت توقّعته من قبل.

كأنّه ظل

يقولون ليلى عذّبتك بحبّها / ألا حبّذا ذاك الحبيبُ المعذِّبُ

(مجنون ليلى)

الألم لا يتبعنا، إنّه يسير في الأمام

أنطونيو بورشيا

1

التقيتُ ليلى في حديقة المتحف بعد انقطاع، جلسنا تحت ظلّ شجرة هرمة، وكان غبارٌ قادم من جهة الصحراء يلوّث فضاء القدس غير عابئ بفصل الربيع الذي لا يليق به مثل هذا الطقس المقيت.

كنتُ محبطًا من رفض أهلها إياي، وكانت هي بوجهها الشاحب وعينيها الذابلتين مُسربلة بالحرج. أكَّدت لي أنّها تحبّني وأنّها لن تختار لنفسها زوجًا سواي. خفَّف كلامُها بعض الشيء ما أعانيه من إحباط، وكنت أشعر بأنّني وإياها نلعب في وقت لا يتنبّه إلينا فيه أحد.

قلت لها مازحًا:

– قد تجد قضيّة فلسطين حلًّا قبل أن أجد لي حلًّا مع أهلك.

تظاهرتْ بالغضب، رسمت تكشيرة على وجهها وقالت:

– أنت تبالغ كثيرًا.

ثمّ تبادلنا ابتسامات خافتة. قالت ليلى إنّ أباها كان متجهِّمًا على مائدة الفطور.

وأضافت:

– راح يعاتبني وهو يمضغ طعامه بنزق واستياء. سألني: ما الذي يعجبك في سائق سيَّارة أجرة وأنت ابنة عائلة عريقة؟! أجبته بهدوء كي لا أعكِّر صفو الصباح: يهمّني الشخص لا العائلة. توقَّف عن مضغ الطعام وراح يقارن بين شخصكَ وشخصِ ابن التاجر الذي رفضتُه، وقال: ما دمتِ مهتمَّة بالشخص وليس العائلة، فإنّ ابن التاجر أفضل بما لا يقاس من

سائق سيَّارة أجرة، أليس كذلك؟ أجبته بالهدوء نفسه: يهمّني الشخص لا مهنته أو نسبه.

حدَّق بي متفاجئًا من جرأتي في مخاطبته، وواصل مضغ الطعام بعصبيَّة. قلت له: قيس مثقَّف وله اهتمام بالكتابة. ردَّ عليّ باستهزاء: أهلا بالمثقَّف، وأهلا بالكتابة! ضحك شقيقي مصطفى بسخرية وقال: أهلًا، أهلًا.

وحين حاولتُ مواصلة الكلام، رفع أبي يده في وجهي وقال: اسكتي، اسكتي.

حدَّقتُ في عينيْ ليلى وحدَّقتْ في عينيّ، وحين حاولتُ الكلام قالت لي وهي تبتسم:

– اسكت، اسكت.

افترقنا في ذلك اليوم ونحن أكثر تصميمًا على تكرار اللقاءات.

***

في اليوم التالي، شاءت الصدف أن نذهب، أنا ورهوان، لتناول طعام الغداء في «مطعم المدينة» في سوق باب خان الزيت. جلسنا إلى طاولة مطلَّة على فضاء السوق. تلهَّينا بالنظر عبر الزجاج إلى الناس الذين يعبرون السوق في حركة دائبة لا تنقطع، وكانت دوريَّة للجنود تلو أخرى تظهر بين الحين والآخر. كنّا نعي أنّ حياتنا عرضة لمفاجآت غير متوقّعة في كلّ حين.

جلنا بنظرنا في أنحاء المكان. رأيتُ ليلى وزميلة أخرى لها جالستين في الركن البعيد. نهضتُ نحوهما وسلَّمت عليهما، كانت زميلتها حاسرة الرأس، ترتدي بلوزة زهريّة وبنطالًا مشدودًا على جسدها. تبعني رهوان وسلَّم عليهما. عرَّفتنا ليلى إلى زميلتها أسمهان، وعرَّفتُهما إلى زميلي رهوان. كانت لحظات التعارف لا تخلو من بهجة، ولم يكن زبائن المطعم كثيرين.

اقترح رهوان عليهما أن تجلسا معنا. اعتذرت ليلى بلباقة ولم توافق على الاقتراح، ولم تتفوَّه زميلتها بأيّ كلمة، إلّا أنّ فضولًا ما كان يتبدَّى في عينيها كما لو أنّها كانت راغبة في الجلوس معنا، ولا أدري إنْ كنت على خطأ أم على صواب، لكنّني استنتجت من ملابسها العصريّة أنّها قادمة من بيئة متفتّحة في مدينتنا التي ما زالت تنطوي على بقايا تعدّدية كانت في ما مضى، كما قيل لي وكما قرأتُ في الكتب، ظاهرة للعيان. تأمَّلتُها على وجه السرعة بإعجاب، وقدَّرتُ أنّها أكبر من ليلى ربّما بسنتين أو ثلاث، أي أنّها ربّما كانت في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر.

ولم أكن راغبًا في جلوسهما معنا، حفاظًا عليهما من ألسنة الفضوليّين. عدنا أنا ورهوان إلى الطاولة التي اخترناها من قبل، وحين جاء النادل طلبنا لحومًا مشويَّة ولبنًا وسَلَطات وعصيرًا طازجًا. طلبتُ منه، وأنا أشير خفية إلى ليلى وزميلتها، بألّا يتقاضى منهما نقودًا حين تنتهيان من تناول الطعام.

دخلنا، أنا ورهوان، في حوار ممتدّ حول قضايا ذات علاقة بمهنتنا التي تنطوي على متاعب مثلما تنطوي على مسرَّات. تحدَّثنا عن سائق السيّارة المقدسيّ الذي استدرجه اثنان من المتعصِّبين الصهاينة إلى تلّ أبيب، وهناك ذبحاه، ثمَّ انخرطنا في حديث لا ينطوي على خطورة من أيّ نوع، حديث عاديّ يتكرَّر ما يماثله في المدينة آلاف المرَّات.

العجيب أنّ رهوان لم يُشر إلى ليلى بأيّ كلام، مع أنّه كان يعرفها وهي لا تعرفه، ولم يعلِّق بأيّ كلام على زميلتها، إلّا أنّه كان يسترق النظر إليها بين الحين والآخر، أو كأنّه كان يفعل ذلك.

***

لم يكن انتظار الركّاب مريحًا في ساعات المساء.

ورغم ذلك، بقيتُ أنقلهم إلى ما بعد الساعة العاشرة ليلًا، وباب العمود مثير للوحشة والأسى في تلك الساعة من الليل. الناس انصرفوا

إلى بيوتهم كالعادة مبكرين، خوفًا من مأزق ما، وليس في المدينة إلّا دوريّات الجنود وقلّةٌ من سيّاح وسائحات، وعاهرات إسرائيليّات في الزوايا المعتمة وقوّادون ومدمنو مخدِّرات، وقلّة من نساء ورجال اضطرّتهم ظروف طارئة إلى التأخُّر عن موعد العودة إلى بيوتهم.

جاء رهوان بعد أن أوصل رجلًا وامرأة إلى بيتهما، وبدا واضحًا أنّه دخَّن في طريق العودة إلى باب العمود سيجارة حشيش، أو ربّما كان ذلك قبل ساعات، وما زال أثر الكيف باديًا عليه. جلس على حافّة السور الحجريّ وتلفَّت حوله وهو يتهيّأ للكلام.

أخبرني من دون مقدِّمات بأنّه يغبطني على علاقتي بليلى، وقال إنّها تستحقّ كلّ خير، وهي كما يبدو إنسانة طيِّبة جديرة بالاحترام. شكرتُه، ثمّ سكتَ وبدا أنّه ما زال راغبًا في الكلام.

تنحنح ثمّ قال:

– أسمهان، صديقة ليلى جديرة بالاحترام أيضًا.

همس بصوت خافت كما لو أنّه يحدِّث نفسه: سبحان خالق الجمال، سبحانه!

توقَّعتُ أنّه سيدخل بلسانه البذيء في حقل المحظورات. تركته على سجيّته وأنا أقدِّر تأثير السيجارة عليه. وطَّنتُ النفس على احتماله ولو أساء إليّ أو إلى ليلى أو أسمهان.

قال:

– ليتك توافق على أن نذهب نحن الأربعة في رحلة إلى البحر.

وأضاف:

– أنا معجب بأسمهان، وأعوّل عليك بأن تُقنع ليلى بتقديمي إليها.

قال وهو يتلذّذ بأسلوبه المنحطّ حين يتحدّث عن النساء:

– هذه المرأة تسافر فيها ومعها من دون حاجة إلى ربط حزام الأمان، تحتويك بذراعيها وتحميك من السقوط.

جاء رجل ومعه زوجته وطفلتاهما، وكان الدور لي لنقلهم في سيّارتي، اتَّجهتُ نحو السيَّارة ولم أتفوَّه بكلمة.

على نحو غير موزون، أطلق رهوان خوارًا مثل ثور وهو يتمشّى فوق رصيف الشارع غير بعيد من سيّارته، وبدا لي أنّ المدينة كلها كانت تصغي إليه باستياء.

***

وذات صباح، كنّا نجلس على حافّة السور الحجريّ المحاذي للرصيف في انتظار الركّاب. كان الرجال يهبطون ويصعدون أدراج باب العمود بسرعات متفاوتة بحسب الأعمار والقدرة على احتمال التعب. كانوا يتلفَّعون بمعاطف ثقيلة، والنساء كنّ يربطن أوشحة من صوف على أكتافهنّ، أو يرتدين معاطف زاهية الألوان، ولا أدري إنْ كنّ مبتهجات أو حزينات. بدا الطقس كما لو أنّه اقتطاع من وقت الربيع لحساب الشتاء. قلتُ من باب الدعابة: هذا الربيع ملتبس، مرَّة يغمرنا بغبار الصحراء، وأخرى يذبحنا بالبرد الشديد.

وكنّا ننتظر أن يفاجئنا رهوان بحكاية ما. انتظرناه وهو يوقف سيَّارته خلف سيَّاراتنا. نزل منها واقترب منّا، وكانت مشيته السريعة تدلّ على حيويّة بالغة ومزاج مرح في هذا النهار.

قال:

– كان الطقس دافئًا أمس، وكان لي ولفريال وقت ممتع على شاطئ البحر. شوينا اللحم على نار الفحم، انبسطنا أيّ انبساط.

وأردف:

– كنت أسبح في ماء البحر غير بعيد منها، وكانت تكتفي برفع فستانها إلى أعلى فخذيها ثمّ تتقدّم بحذر في الماء، وما ينكشف من جسدها يتلامع تحت شمس الربيع مثل البلّور.

شعرتُ كما لو أنّه يقصد إثارة فضولي. ذكَّرني بأنّنا لن نعيش سوى عمر واحد، وعلينا ألّا نبدِّد أعمارنا في البلادة والخمول وفي ادّعاء الاستقامة وحسن الخلق، قال إنّه كان راغبًا في مشاهدة أسمهان وهي

تسلِّم جسدها الرشيق لماء البحر. ظلّ يحدّق في الفراغ مثل المهووس، ثمّ صاح مستجيرًا:

– يا ربّي يا خالق الخلق، أتوسّل إليك أن ترأف بحالي وأن تحنّن قلوب النساء عليّ.

كنّا أنا والزملاء نصغي إليه، ولم يعلّق أحد منّا على كلامه.

سمعنا صوت إطلاق نار، صمتنا مذهولين وانشدَّت عيوننا إلى مدخل باب العمود. كان الجنود يُجهزون بالرصاص على فتاة لها هيئة شقيقتي لمياء، لولا أنّها كانت تغطّي شعر رأسها بمنديل.

2

بعد ذلك بأيّام، كان مطر على شكل رذاذ يبلِّل حجارة السور العتيق، ويغسل على مهل بلاط الأرصفة والساحات، ويغلِّف فضاء المدينة بغلالة من أسى خفيف. كنَّا نقف قريبًا من سيَّاراتنا قبالة السور، ولا يزال المطر ضمن نطاق تحمّلنا فلم نحاول الاحتماء منه. ولم ينتظر رهوان حتّى يجيل النظر في ما حوله، بل بادرني منذ وصوله بالقول وهو بادي السرور:

– التقيتُ أسمهان مساء أمس.

قال:

– ترصّدتها طوال أيّام إلى أن عرفتُ المدرسة التي تعمل فيها هي وغزالتك، ثمّ عرضت عليها أن أوصلها إلى بيتها. وافقتْ من دون تردُّد، لكنّها أصرَّت على أن تدفع الأجرة. بيتها واقع في الطرف الشرقيّ للمدينة، ولم تكن المسافة طويلة لكي أثرثر معها، ثمّ إنّني قصدتُ أن أكون مؤدّبًا في اللقاء الأوّل.

قلت لكي أختبر مدى حرصه على مشاعر الناس:

– قد تكون أسمهان زوجة أسير أو أخت شهيد، ألا يضيرك هذا؟!

ردّ على الفور:

– لا يضيرني، هذا شيء وذاك شيء آخر.

وقال:

– أرجوك يا قيس، لا تكثرْ من توجيه النصائح لي.

وتابع:

– من يسمعك وأنت توجّه نصائحك إليّ سيعتقد أنّك أبو الوطنيّة والفداء.

ثمّ تمشَّى على نحو استعراضيّ بضع خطوات وأضاف:

– أنا أعتمد على ذكائي يا ابنَ العم، لا أريد معونتك ولا معونة غزالتك. أعطيتُ أسمهان رقم هاتفي لتتّصل بي كلّما احتاجت إلى سيَّارة أجرة.

ضحك ضحكة عالية فيها اعتداد بالنفس، وهو يتأمَّل سور المدينة حينًا وأجساد النساء اللواتي يعبرن الرصيف حينًا آخر. ثمّ احتمى من حبَّات المطر داخل سيّارته وراح يدخِّن سيجارة وينظر نحو البعيد.

وحين تزايد هطول المطر، احتمينا منه، أنا وبقيّة الزملاء، داخل السيّارات، بينما المدينة تغتسل.

***

بعدَ أيّام معدودات، جاء وهو مهموم كما لو أنّه خسر صفقة كان يظنُّها رابحة. بدا منذ الصباح غير قادر على الاستقرار في مكان واحد. يجلس على السور لحظات ثمّ ينهض ويتمشَّى بعصبيَّة فوق الرصيف، يجيل النظر في النساء اللواتي يتخطّرن هنا وهناك، يرفع رأسه نحو الأعلى ويتأمَّل الغيوم التي تتمطَّى بتكاسل من دون اكتراث للوقت، ثمّ يفتح باب سيّارته ويجلس خلف عجلة القيادة في انتظار الركَّاب. كان مشغول البال، يدير بينه وبين نفسه حوارًا داخليًّا لا يهدأ.

ناداني. اقتربتُ منه. قال:

– مرَّ أسبوع ولم تتَّصل بي أسمهان.

ثمّ سألني:

– هل ذكرتْ لك ليلى شيئًا له صلة بعلاقتنا، أنا وأسمهان؟

– كلّا لم تذكر لي أيّ شيء.

امتعضَ وهو يحدِّق في وجهي ولم يبح بأيّ كلام.

***

في الصباح التالي، كانت السماء صافية، والطقس معتدلًا، والناس منصرفين إلى شؤونهم، وقلّما يتلفّتون إلى يمين أو شمال، والأشجار ترمي بظلالها على الأمكنة.

قال وهو يشعر بارتياح:

– رأيتُها مع رجل خمّنتُ من اللحظة الأولى أنّه زوجها. كان يرتدي بدلة رماديَّة تدلّ على أنّه محامٍ أو موظَّفٌ في إحدى الشركات، وكانت هي تبدو مثل أميرة في حكاية ما، بشعر رأسها المنسدل على الكتفين، وفستانها الليلكيّ الذي يكشف ذراعيها والساقين، وبجسدها الكامن تحت فستانها مثل لغز أو بركان.

كانا واقفيْن على الرصيف في انتظار سيّارة، أوقفتُ سيَّارتي وأنا أحمد الله على محاسن الصدف، الصدف التي تأخذنا إلى ما نحبّ حينًا وإلى ما لا نحبّ حينًا آخر. جلسا في الكرسي الخلفيّ، وقال الرجل:

– إلى مستشفى الأمل لو سمحت.

اختلستُ النظر إليها من خلال المرآة، كانت شاردة الذهن وعيناها مشغولتين بالنظر إلى الخارج، كما لو أنّها تتأمَّل البنايات المبثوثة بكثافة على امتداد الشارع.

تجرّأتُ وقلت من دون مقدِّمات:

– إلى المستشفى في هذا الصباح!

قال:

– والدتي في المستشفى.

قالت مردِّدة كلامه:

– والدة زوجي في المستشفى.

اعتقدتُ أنّها لاحظتْ نظراتي نحوها عبر المرآة، هي بضع نظرات مرَّرتُها بحنكة وذكاء، فأرادت أن تُشعرني بأنّ الشخص الجالس إلى جوارها هو زوجها، وأنّها ترسل بذلك رسالة سرّيّة إليّ. قلت لنفسي: هذا فأل حسن، تبادلُ الرسائل أمر لا بأس به.

أنزلتهما أمام المستشفى، وحين مدَّ زوجها يده بالنقود، أرسلتُ

رسالة أخرى وقلت:

– على حسابي.

أصرَّ على الدفع، ولم أكن مصرًّا على تنفيذ كلامي، إلّا أنّ الرسالة وصلت كما أعتقد.

رفع رهوان ذراعيه نحو الأعلى كما لو أنّه يستجدي الرحمة من السماء، وقال باختصار وحسم وبما يشي بإعجاب عميق:

– إنّها امرأة وأيُّ امرأة!

***

وكان والده، عليوان، فكَّ ارتباطه بعائلة العبد اللات منذ زمن بعيد، بل إنّه كان مستهينًا بالعائلة، نُقلَ عنه أنّه قال ذات مرّة لرجل وجيه من إحدى عشائر راس النبع حين استكثر هذا عليه أن يفكَّ ارتباطه بعائلته على هذا النحو الصريح: «يا سِيدي بالناقص».

فلم يكتم الرجل الوجيه هذا الرأي، بل نشره، لا من باب الوشاية أو التحريض على الفتنة وإنّما من باب الاستهجان، بصفته مساسًا ببنية العائلة الممتدَّة التي ينبغي الحفاظ عليها في هذا الزمن الذي يرى الرجل الوجيه أنّه زمن الخراب.

ولم يكن الرجل الوجيه مدركًا ما في هذه البنية من تخلُّف وقصور، ولربّما لم يكن عليوان مدركًا هذا القصور، غير أنّ عيشه زمنًا طويلًا في المدينة هو الذي أملى عليه الانعزال عن العائلة، وعما يمكن أن تجرَّه عليه من التزامات ليست سويّة في كلّ الأحوال، كأنْ ينصاع لمشيئتها في أيّ شجار جماعيّ ضدّ عائلة أخرى، تلبية لرابطة القرابة، ولاشتراطات الهمجيّة التي لا تزال تعشّش في بعض الأذهان.

عليوان لم يعد معنيًّا بهذا السلوك المنافي للمنطق السليم، هو مكتفٍ من الحياة بأبسط المتع والرغبات. عملُه آذنًا في المؤسّسة يكفيه، وزوجته زهيّة هي كلّ دنياه. لم تنجب سوى ولد وحيد هو رهوان، في حين يتباهى أقاربه بكثرة الأولاد. هي ترضيه حين يقترب من جسدها،

ويرضيها حدّ الإشباع، يعيش معها الساعات والأيّام والأشهر والسنين في تفاهم وانسجام. رهوان نفسه ليس بعيدًا من قناعات أبيه، بل هو متماثل معه من بعض النواحي على نحو ما.

قال لي:

– أبي شخص قنوع، حين يعود من عمله في المؤسّسة لا يغادر البيت، لا يفكّر في السهر مع الأصحاب، لا يذهب إلى المقهى ولا إلى أيّ مطعم في المدينة، لا يزور أحدًا ولا يزوره أحد، ينضو عنه ملابس العمل، يستحمّ بماء بارد، وتكون أمّي في الأثناء منهمكة في تحضير الطعام، سَلَطاتٍ ومخلّلاتٍ وزيتونٍ ودجاج مقليّ بالزيت والبصل وخبز أسمر شهيّ، يفتح أبي زجاجة العرق، ويجلس مثل سلطان، تجلس أمّي على مقربة منه مثل أميرة غير متوّجة، يأكلان معًا. أمّي تشرب عصير البرتقال مع الطعام وأبي يشرب العرق الممزوج بالماء والثلج، ويتذكّر، للمرّة الألف، أيّام تعرّفه إليها وهي تبيع الزعتر والنعناع والبابونج والتين والعنب عند باب العمود، كيف لفتتْ نظره بجمالها القرويّ، ثمّ لاحظتْه وهو يتردّد إليها على نحو مقصود، كيف تبادلا كلمات الحبّ الأولى، ثمّ تواعدا، وكيف أخذها إلى مطعم، ثمّ ذهبا إلى البحر، بحر أريحا وليس بحر يافا الذي آلى على نفسه ألّا يزوره ما دامت يافا عصيّة على أبنائها الأصليّين. كيف احتضن يدها وهما يتمشّيان على شاطئ البحر.

هو يحكي ويحتسي العرق، وهي تتذكّر ما كان بينهما من ألفة وأشواق، وتضحك، تضحك مثل فتاة مراهقة في أوّل إطلالة لها على ملذّات الحياة.

وقال:

– ذات مرّة، شاهد أبي مفكّرًا فلسطينيًّا على شاشة التلفاز يؤكّد أنّ الشعب الفلسطينيّ رقم صعب في معادلة الشرق الأوسط، وليس من السهل تجاهل هذا الرقم أو شطبه لدى التفكير بأيّ مشروع سياسيّ في المنطقة، ومنذ ذلك الوقت وأبي يتفاخر ويقول: أنا رقم صعب في القدس، وأنا ثابت فيها مثل جبل.

قال:

– أبي يمعن في احتساء العرق ويكون له هو وأمّي أوقات ممتعة، فلا أثقل عليهما ولا أعكّر صفوهما، فإمّا أن أكون متعبًا وأمضي إلى سريري بعد يوم عمل طويل، وبعد كأس أو كأسين من العرق، وإمّا أن أغادر البيت، وبخاصّة في أمسيات الخميس، أذهبُ إلى مقهى قريب في طريق الواد، يخالف صاحبه المألوفَ ويبقي باب مقهاه مفتوحًا إلى منتصف الليل، يستقبل زبائنه من أبناء الحيّ للعب الورق، أو لمشاهدة مباراة في كرة القدم على شاشة التلفاز، ولا يندرُ أن تقتحم المقهى دوريّة للجنود، يحدّقون في وجوه الزبائن بارتياب، يفتّشون بعضهم بحثًا عن أسلحة أو سكاكين، ثمّ يغادرون تاركين خلفهم غضبًا حبيسًا في الصدور، وفي الأثناء تكون المدينة نائمة.

3

اتّفقنا على الذهاب إلى يافا.

كانت تنتظرني على الرصيف، وثمَّة طقس معتدل، وشمس تظهر بجلاء من بين الغيوم ثمّ تختفي لتعاود الظهور، وحركة السيَّارات لا تهدأ في الشارع الذي يربط القدس بيافا.

قلت لها:

– أحبُّ الذهاب معك إلى يافا وبحرها، لكي أكون أقرب إلى جذورك.

وقلت:

– أفعل هذا لعلّ أهلك يقتنعون بي.

قالت:

– أنت تفعل ذلك من أجلي لا من أجلهم.

قلت:

– يتّضح لي يومًا بعد آخر أنّ المسافة بينك وبينهم شاسعة!

نعم شاسعة، منذ أن اعترضوا على رغبتي وفرضوا عليّ رأيهم، وحتّى قبل ذلك، كانت بيني وبينهم مسافة.

لم أواصل التعليق على هذا الأمر كي لا أزعجها وأثير مواجعها.

تحدّثنا عن جمال الطبيعة من حولنا، وعن الخضرة الممتدّة، وتأسّينا على بلاد كانت لنا، وبقينا كذلك إلى أن وصلنا شاطئ البحر، كانت تسير إلى جواري على الرمل وهي حافية القدمين، وكنت أنا حافي القدمين. رفعتْ جلبابها وفستانها عن ساقيها كما لو أنّها تخوض في الماء. والماء

على مسافة خطوات منّا، والبحر ممتدٌّ فسيح، كأنّه يدعونا إلى التخفّف من الهموم، وكان على وجه ليلى مسحة من أسى لم تدم في حضرة البحر إلّا قليلًا، مشتْ برشاقة، ومشيتُ إلى جوارها. كانت أقدامنا تترك أثرًا بيّنًا على الرمل، وتنوب عنّا في البوح بما نختزنه من مشاعر متبادلة لا تحتاج إلى دليل.

اقتربنا من بقعة على الشاطئ يقلُّ فيها المتنزِّهون. خلعتْ جلبابها وناولتني إياه، نشرتُه حول جسدها مثل ستارة لعلّه يحجبها عن الأنظار. أخذَتْ تنضو عنها ثيابها وأنا أغضُّ النظر وأكتم انفعالًا مفاجئًا أمام حضور الجسد، وفي الأثناء اصطفقت مياه البحر وعلا الموج، ربّما احتفاء بجسدها وربّما لسبب آخر. واصلت خلعَ ثيابها بحياء، ثمّ ارتدت لباس البحر الذي غطَّى صدرها وبطنها وفخذيها. أدرتُ لها ظهري وهي منشغلة بحشر ملابسها في حقيبتها، خلعتُ ملابسي بسرعة البرق، وارتديت لباس البحر.

قدتها من يدها وتقدَّمنا نحو الماء. كانت متهيِّبة، طمأنتها إلى أنّني أجيد السباحة وعليها ألّا تخاف. تأسَّت عن قصورها الذي لم يكن لها فيه يد حين لم تعد قريبة من البحر. قالت إنّ جدّها ورجال عائلتها الأوائل كانوا سبَّاحين مهرة، حين كانوا قريبين من البحر، بحرهم. هذا ما كانت تقوله جدّتها في ليالي السمر.

قلت لها:

– تعلَّمت السباحة في برك القدس.

قالت:

– حين كنّا طفلتين أنا وشقيقتي، لم يسمح لنا أبي بتعلُّم السباحة في بركة جمعيّة الشبّان المسيحيّة، وكانت زميلات لنا التحقن بها.

سبحتُ في الماء وهي تراقبني بحذر، عدتُ إليها والماء بالكاد يغطِّي أسفل فخذيها، حملتها بين ذراعيّ، وكنت أتماهى في ذلك مع محمّد الأصغر، عمّ أبي، حين أخذ زوجته سناء إلى البحر أثناء زيارتهما الأندلس قبل سنوات. ساعدتُها على تحريك جسدها، ضربتْ بيديها وساقيها

سطح الماء، إلّا أنّها ظلّت خائفة. كانت تحتمي بي كلّما هجم الموج على جسدها، وكنت أحميها من هجمة الماء.

كنت على يقين من أنّ حياتي من دونها لا تساوي شيئًا، وفي الوقت ذاته متخوّفًا من انكشاف مشاويرنا إلى كلّ تلك الأمكنة، ذلك أنّ اصطحاب سائقي سيّارات الأجرة بنات الناس في سيّاراتهم يثير هلع الأهل، ويفضي إلى مشكلات فادحة ودماء.

لكني لم أطلعها على ما أتخوّف منه كي لا تُصاب بالذعر، ومن ثمَّ لن تذهب معي إلى البحر أو إلى البرّيّة أو إلى أيّ مكان.

حين غادرنا البحر، قالت ونحن في طريق العودة إلى القدس:

– أهلي يعتقدون أنّك تريد الزواج بي طمعًا في ثروتهم.

تبادلنا ابتسامتين ساخرتين ولم نكن في حاجة إلى أيّ كلام.

***

بعد سبعة أيّام، كنت أرقبها بشغف وهي تسير بخطوات حذرة فوق التربة الحمراء، كانت الطبيعة من حولنا تجود علينا بكلّ ما أمكنها من خضرة وجمال.

كانت تتمايل في مشيتها مثل غصن البان، وكنت أخشى عليها من التعثُّر، وقبل أن أحذِّرها من ذلك تعثَّرتْ ووقعت لكنها لم تُصب بأيّ أذى، استقبلتِ التربةُ جسدها بترحاب. ضحكتْ وتلوّى جسدها برشاقة، ولم تنهض إلّا حين مددتُ إليها يدي. وقفتْ بمحاذاتي ورحتُ أنفض عن جلبابها بعضَ ما علق به من عشب وتراب. ثمّ مشينا معًا ويدها في يدي.

حين مشينا ما فيه الكفاية، جلسنا متقاربيْن على العشب. قشَّرتْ برتقالة، التهمناها معًا في أتمِّ انسجام.

قشَّرتُ البرتقالة وكنت أشعر بألفة غامرة نحوه وأنا أطعمه بيدي، وهو يطعمني بيده.

ثمّ نمنا على العشب مثل طفلين، جسدها متَّجه نحو الشمال، وجسدي متَّجه نحو الجنوب.

وكان رأسي قريبًا من رأسها ويدانا متشابكتين، وكنت أتشمَّم رائحتها الزكيَّة التي تشبه رائحة الأرض بعد المطر.

قلت:

– هنا، في البرِّيَّة، حرث أجدادي الأرض وزرعوها قمحًا وشعيرًا وذرة.

تذكَّرتْ أجدادها الذين أتقنوا التجارة وبرعوا فيها.

قالت:

– هناك في يافا، استقبل أجدادي السفن الراسية في الميناء وهم ينزلون منها البضائع القادمة من بعيد. وهناك كدَّسوا الثروات، وبنوا بيوتًا باذخة لم يلبثوا أن غادروها مُكرهين.

توغلنا في الكلام عن البرِّيَّة وعن يافا، وكانت مرارة الفقد تتبدّى في كلامها، والشمس تحتجب بين الحين والآخر خلف الغيوم، ونحن نتكلَّم ونصمت، نصمت ونتكلّم، وأمامنا، على مساحة غير قليلة من أرض البرّيّة، ثمّة مستوطنة جاثمة تتوسّع وتلتهم المزيد من الأرض سنة بعد سنة، ولا أستبعد أنّ سبعين امرأة فيها يغتسلن الآن بماء ساخن، غير آبهات بمشاعر أهل الأرض الأصليّين ما دام هنالك حرّاس مسلحون على أطراف المستوطنة.

مرَّ الوقت سريعًا، نهضنا من فوق العشب، وعدنا إلى المدينة. كان مصير علاقتنا ما زال طيَّ المجهول، وكانت ليلى تعود بالذاكرة سنوات إلى الوراء.

قالت وهي إلى جواري في السيّارة:

«حين كنتُ طالبة في الإعداديّة، في المدرسة التي أعمل فيها الآن، تعرَّضتُ غير مرّة لمطاردة من رجل بالغ، ربّما كان في الأربعين. كان يقترب منّي، مستفيدًا من شدّة الازدحام في السوق، ويهمس في أذني: أنت امرأة ناضجة، لك ساقان من رخام.

كنتُ أحدجه بنظرة قاسية، ثمّ أتحاشاه في الحال.

وكنت في الوقت ذاته أتعرّض لمطاردة من تلميذ يكبرني بسنتين أو ربّما أكثر. ابتسمتُ له ذات مرَّة فتشجَّع ودسَّ في جيب مريولي

المدرسيّ رسالة، استغلَّ زحمة السوق واقترب منّي وأدخل يده في جيب المريول. تحسَّستُ الرسالة، وتوهَّج قلبي بدهشة وخوف، ولم أفتحها إلّا حين وصلت البيت ودخلت غرفتي.

قرأتُ فيها غزلًا مكتوبًا بخطٍّ رديء. قرأتها مرّات عدّة، ثمّ تركتُها تحت كتاب الجغرافيا، وذهبتُ إلى الحمَّام لكي أغتسل. دخل شقيقي مصطفى غرفتي، قلَّبَ كعادته أوراقي وكتبي ودفاتري، ولم يلفت انتباهه كتاب الجغرافيا إلّا في آخر لحظة، رفعه بيده وعثر على الرسالة. قرأها وذهب في الحال إلى أبي. وكانت النتيجة إجباري على ارتداء بنطال تحت المريول، وارتداء الحجاب.

ولم تقفِ المشكلة عند هذا الحدّ. ذهب شقيقي ومعه اثنان من أبناء العائلة إلى السوق، تربَّصوا بالتلميذ إلى أن لاحظوه وهو يتابعني. قبضوا عليه وضربوه، ولم يعد إلى الظهور في طريقي.

يومها تألّمتُ وتأذّيتُ واستأتُ من شقيقي مصطفى، ومن كلّ شخص على شاكلته».

***

وكنّا ذات نهار نتجوَّل في المتحف الفلسطيني الواقع قريبًا من باب الساهرة ومن سور المدينة، شاهدنا بعضًا من تراث الأجداد، وترحّمنا عليهم ونحن نتوقّع الصعوبات التي واجهتهم كلّما تعرّضت القدس لغزو أو عدوان.

كنّا نتجوّل ببطء تقتضيه الضرورات، وأنا ممتنّ لوجودها معي برغم ما في ذلك من مجازفة. نتوقَّف بين الحين والآخر لنشاهد الأدوات المعدنيَّة والفخّاريَّة التي اعتمد الأجداد عليها لتصريف أمور حياتهم اليوميَّة، كنّا معجبين بذلك ونحن نبحر في مدى الزمن السحيق قبل آلاف السنين.

فجأة، شعرتْ بألم في بطنها. توجَّعتْ وراحت تعضُّ على شفتها السفلى. قدتُها من يدها، ومدّدتها فوق الكرسي الخلفيّ لسيّارتي،

هاتفتُ أمِّي وكانت لديها مناوبة مسائيَّة، بعد عشر دقائق كنّا في المستشفى.

مدَّدتْها أمِّي على سرير الفحص في غرفةٍ جيَّدة الإضاءة، قاست درجة حرارتها، ثمّ فكَّت أزرار جلبابها، ورفعت فستانها إلى أعلى في انتظار الطبيب، وحين بان بطنها أمرتني أمِّي أن أغادر الغرفة. كان لبطنها لون الفضّة. خرجتُ ورحتُ أتخيّلها وهي حبلى، كيف سينتفخ بطنها ويزداد جمالًا حين يتّخذ شكل قبّة بيضاء، تخيّلتُ نهديها حين يشرئبّان ويشخب الحليب منهما لدى أقلّ لمسة في انتظار الطفل الحبيب.

تأسّيتُ عليها وعليّ وتعاطفتُ معها ومعي، ولم يقطع تخيّلاتي سوى خروج الطبيب من الغرفة بعد عشرين دقيقة. بقيتْ أمِّي بالقرب منها وسمحتْ لي بالدخول، وضعتُ باطن كفّي على جبينها. قالت:

– أنا الآن في وضع أفضل.

وقلت له: تأتيني هذه الحالة قبل الدورة الشهريَّة وأثناءها. فهزَّ رأسه وابتسم.

ابتسمتُ، وابتسمتْ أمِّي وهي تقف على مقربة منّا، بدت كما لو أنّها تتذكّر أيّام شبابها حين وقعتْ في حبّ أبي ووقع أبي في حبّها. تأمّلتْ مدى الانسجام بيني وبين ليلى، ثمّ خرجت.

بعد ساعة، غادرنا، أنا وليلى، المستشفى، وكان أحدنا أقرب إلى الآخر أكثر من أيّ وقت مضى، ربّما بسبب الوعكة الصحيّة التي تعرضّت لها، وربّما لأنّها جديرة بهذا القدر من المشاعر الصافية التي أكنّها لها.

أوصلتها إلى بيتها، ثمّ عدت إلى باب العمود، وهي حاضرة معي على الدوام.

***

في الليل جاءت، وتذمَّرتْ من العتمة التي تحاصرها، ومن ماء النبع البارد، ما يعني أنّها لن تستحمَّ كما تشاء.

قالت: أبحثُ عنك ولا أراك، فأين أنت؟ قلت: أنا هنا على مقربة من حلمك، سأجمع حطبًا من هذا الخلاء، وأوقد نارًا وأغلي لكِ الماء.

خلعتْ ثيابها وتهيَّأتْ للاستحمام. بانت فضّة الجسد بأبهى تجلّياتها. سألتني: هل ترى جسدي؟! قلت: أراه وأحبّه وأخشى عليه من دوريّة الجنود التي تقضُّ مضاجعنا في كلّ حين. قالت: لا تخف، جسدي عصيٌّ عليهم، وأنا أحافظ عليه وأحميه.

اطمأنّ بالي وسارعتُ إلى جمع الحطب.

فجأة، ظهرت الممرِّضة، الممرّضة نفسها التي شاهدتها في المقهى، كم ترهقني هذه الممرِّضة! تضطرّني إلى التدقيق في ملامحها لكي أميّز بينها وبين أمِّي. خلعتْ معطف التمريض والفستان، وجلستْ على مسافة ما، وأنا أواصل جمع الحطب، وكنت نهبًا لتوقُّعات عدَّة.

في اللحظة التالية، وأنا أوقد النار، جاءت أمِّي وهي ترتدي معطف التمريض، تمنّيتُ ألّا تخلع ثيابها كما فعلت ليلى والممرّضة، فلم تفعل، راحت تحدِّق في عينيّ. غضضتُ النظر، وتلاشى ما في داخلي من توقُّعات. بعد لحظة، ارتدت الممرّضة ملابسها وغادرتنا من دون استحمام. غادرتنا أمّي كذلك، وبقيت ليلى معي في العراء تنتظر الماء الذي سيغلي بعد لحظات.

4

وكنّا، أنا وسناء، نمشي قبيل الغروب فوق رصيف الشارع بالقرب من باب الخليل. كان سور القدس بالعراقة التي تشعّ من حجارته الثابتة على يسارنا، والجزء الغربي من القدس بالأبنية الممتدّة المتلاصقة على يميننا. وكنت أتوقَّع أن نرى قيس وليلى في المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه. كان جنود مدجَّجون بالسلاح ينتشرون في المكان، وثمَّة رجال إسرائيليّون ونساء فوق الرصيف، وسائحات وسيَّاح. كان المشهد خليطًا متنافرًا من أشكال وهيئات، وثمّة مظاهر قوّة زائدة تدلِّل على أنّ المدينة تتعرَّض لانتهاك.

كنّا وادعَيْن مُنتشييْنِ بنسائم المساء التي تهبُّ علينا رغم الجراح، جراح المدينة التي لم تهنأ بطمأنينةٍ منذُ سنوات.

فجأة، رأيتُها. كانت تمشي بخيلاء وهي ترتدي فستانها الأسود القصير.

قلت لسناء:

– إنّها ماريا زخاروفا، ولا أدري ما الذي جاء بها من موسكو إلى القدس؟!

أفلتُّ يدَ سناء ومشيتُ مسرعًا لكي أدركها قبل أن تغيب. اقتربتُ منها، تأمَّلت قوامها المشدود، ودقَّقتُ النظر في ملامح وجهها، وسألتها:

– هل أنت ماريا زخاروفا؟!

حدَّقتْ في وجهي باستغراب، لم تبتسم ولم تردّ على السؤال، بل إنّها أشاحت بوجهها عنّي في استياء، وبما يوحي باحتقار.

قلت:

– أنا آسف، اعتقدتُ أنّكِ ماريا زخاروفا.

وحين ابتعدتْ وغابت في الزحام قلت: ربّما كانت مهاجرة جديدة جاءت إلى البلاد من وارسو أو من بطرسبورغ.

ابتسمت سناء وقالت:

– هذا جزاء التسرّع يا محمّد.

– أخطأنا ومنكِ السماح يا سيَّدة النساء.

قبضتُ على يدها وواصلنا المشي فوق الرصيف الذي أخذنا إلى المقهى. بقينا هناك ساعة أو أكثر قليلًا، ولم يكن قيس وليلى هناك.

أكادُ أجزم أنّه يختلي بها الآن في مكان ما.

ومن محاسن الصدف أنّني رأيتُها في الليل على شاشة التلفاز. كانت تحمل حقيبتها الديبلوماسيَّة وتمشي مع مسؤولين بارزين بالملابس الرسميَّة، يحيط بهم وبها عدد من المرافقين. كانت المفاجأة مثيرة للدهشة. قلت لسناء:

– إنّها ماريا زخاروفا، انظري إليها، وهي تمشي باستقامة وشموخ مثل نمرة.

تابعتُها مثل طفل رأى أمّه بعد غياب. تعجَّبتْ سناء من انبهاري ولهفتي.

أشاحت بنظرها عن الشاشة ونظرتْ نحوي وقالت:

– محمّد، ماذا جرى لعقلك؟!

قلت:

– أنا معجب بالذكاء حين يقترن بالأناقة والجمال يا سناء.

وقلت:

– أحبّ أن أتسلّى، تسلية بريئة، فهل هذا حرام؟!

ابتسمتْ وهي تتأمَّلني، ضغطتْ على ذراعي بحنان كما لو أنّها تلفتُ

انتباهي بشكل غير مباشر إلى عدم الابتعاد كثيرًا تحت تأثير هذه المشاعر الجامحة. وحين انتهى المشهد الذي بثَّه التلفاز، رحتُ أبحث عن شريط الـ«يوتيوب» لأستمتع بالرقصة التي تؤدِّيها ماريا زخاروفا أمام الضيوف. وجدتُه، تابعتْه سناء معي لثوانٍ معدودات ثمّ انصرفتْ إلى القراءة في كتاب.

بعد الشريط، رحتُ أتصوَّر ماريا زخاروفا وهي تأتي مع زوجها لزيارتنا، يقيمان عندنا ثلاثة أسابيع أو أربعة. كنت أراها رأيَ العين وهي تدخل بيتنا بطولها الفارع، تتلوَّن حياتنا وتكتسب مزيدًا من الجدوى ونحن نستقبل امرأة لها مكانتها في بلادها، وربّما في العالم.

أرسلتُ نظرة خاطفة نحو سناء. كانت منهمكة في القراءة كعادتها، ولم أشأ أن أقطع عليها متعتها. لم أُطلعها على ما كنت أفكّر فيه، لم أقرِّر بعد إنْ كنتُ سأقدِّم قيس وليلى إلى ماريا زخاروفا أم لا.

5

كنت دائم الانشغال بليلى، ولا تلذّ لي الحياة من دونها، هاتفتُها وأبدتْ موافقتها على اقتراح أمِّي بالذهاب إلى البرِّيَّة لكي نستمتع بالطقس الربيعيّ الجميل، ولكي نحْضِر الخبّيزة والزعتر والفطر من هناك. تردَّدتْ لمياء في البداية، ثمّ وافقت على الذهاب معنا.

انتظرتْنا ليلى قريبًا من مبنى المتحف، وكان أبي يومها قرَّر الذهاب إلى مقرّ الصليب الأحمر في الشيخ جراح للمشاركة في اعتصام تضامنيّ مع الأسرى المضربين عن الطعام في سجون الاحتلال. كان معجبًا بصمودهم في السجون، وبقوَّة إرادتهم وهم يمتنعون عن تناول الطعام لأسابيع طويلة، وكنت معجبًا بوفاء أبي للواجب الوطنيّ ولو في حدوده الدنيا.

قبّلته أمّي على جبينه وهو يمضي إلى مهمّته، وكانت مبتهجة بحضور ليلى، وكانت تطوّقها بغلالات من الحبّ ومن العناية الزائدة كي تضمن أنّها لن تفلت من يدي، كانت ليلى كذلك سعيدة بلقاء أمِّي وشقيقتي، وكنت أنا سعيدًا، بل الأكثر سعادة، وأنا أرى كيف تتشكَّل ملامح أسرتنا منذ الآن، إن استطعنا أنا وليلى تخطّي الصعاب.

تمشَّينا في البرِّيَّة، ولم ننظر نحو المستوطنة القريبة المحوطة بأسلاك شائكة وحرّاس مدجّجين بالسلاح، إلّا أنّ لمياء كانت تنظر إليها بين الحين والآخر، وتطيل النظر، كما لو أنّها تدير في رأسها فكرة ما.

اقترحنا عليها أن تتجاهل المستوطنة لكي نستمتع بيومنا، إن استطعنا ذلك.

انهمكنا في تأمّل جمال الطبيعة من حولنا، ولم نتطرّق إلى ذكر الأجداد. كنّا معنيّين بالحاضر أكثر من انتباهنا للماضي، وكان طقس الربيع مريحًا ومثيرًا لشهوة الحياة. جلسنا فوق العشب على حرامات من صوف أحضرناها معنا. أحضرنا كذلك خضروات وفواكه وزجاجات ماء ومحارم ورقيّة وأقراصًا محشوّة باللحم أعدَّتها أمِّي على نار الفرن في الصباح. كانت هذه التفاصيل الصغيرة ضروريّة لنا لكي تكون رحلتنا ممتعة. وكان لا بدّ من توثيق هذه التفاصيل لكي نتذكّر في قادم الأيّام أنّنا كنّا هنا، التقطتْ لنا شقيقتي لمياء صورًا عدّة، والتقطتُ لها مع أمّي ومع ليلى صورًا احتفظتُ بها في هاتفي المحمول.

بعد أن تناولنا طعام الغداء، رحنا نجمع الخبّيزة والزعتر والفطر والبابونج والحنّون من أطراف السهل ومن على سفح الجبل، وكانت ليلى هي محطّ اهتمامنا، نمشي حيثُ تمشي ونتَّجه حيث تتَّجه، وتمسّد أمّي شعرها كلّما ضحكت لسبب ما أو تفوّهت بكلام ظريف، ّ لنعيش معًا أجمل اللحظات. لحظات أسريَّة لا ينقصها إلّا اعتراف ما.

هنا بيت القصيد: اعتراف ما.

6

كانت لهفتي إلى لقائها تزداد مع مرور الأيّام. اتّفقنا على موعد في المقهى. جاءت في الوقت المحدَّد، وكنت وصلتُ قبلها بخمس دقائق. سلَّمتْ على إميل وزوجته مريم. احتضنتْ طفلتهما ماري وقبَّلتْها على الخدّين.

سلَّمتْ عليّ وجلست ثمّ خلعت المنديل. قلتُ وأنا أتأمّل شعر رأسها وخدّيها وجيدها:

– أنت في هذا المساء جميلة أكثر من أيّ وقت مضى.

ابتسمتْ وقالت:

– اسكت، اسكت.

وبعد كلام كثير وحوارات عدّة، كنت معنيًّا بتوضيح بعض التفاصيل العائليّة لكي أعزّز مبدأ الصراحة والمكاشفة بيني وبينها، قلت:

– أبي هو الذي كان يصيح أثناء كتابة محمّد الأصغر في دفتره. أهانه أبناء العائلة كما أهانوا أمِّي، وشتموها بكلام قبيح، وضربوا شقيقتي لمياء لأنّها أحبَّت شابًّا.

وقلت:

– جاء هذا الشابّ ليخطبها من أبي، وناله من الإهانات الشيء الكثير. ثمّ ضربه أبناء العائلة لأنّه، في عرفهم، عرَّض شرف العائلة للأذى.

لم تقل ليلى شيئًا، بدا كما لو أنّني أقدّم مرافعة باهتة لا ضرورة لها، ران علينا صمت. وكنتُ أستعيد المشهد في ذهني.

قلت لعلِّي أسترعي انتباهها:

– حاولتُ الدفاع عن شقيقتي، لكنّهم دفعوني وأوقعوني على الأرض، حبيبها ارتعب من سلوك الأقارب، خاف من عاقبة حبِّه لها، ابتعد ولم يعد، ولم تسأل لمياء عنه بعد أن اكتشفت أنّه جبان.

بدا في عينيْ ليلى أسى ملحوظ، سألتني على نحو مفاجئ:

– هل لديك خشية من أهلي؟

فكّرتُ في سؤالها لحظات ثمّ أجبتها:

– لا، لأنّ أهلك ليسوا كذلك.

قالت بلهجة توحي بسخرية مبطّنة:

– شكرًا لك لأنّك تحسن الظنّ بهم.

تبادلنا ابتسامات يمكن تفسيرها على أكثر من وجه، ثمّ شربنا الشاي ونحن ننظر نحو الخارج عبر زجاج المقهى. المقهى الذي أصبح بمثابة بيت لنا، أنا وليلى، أو على الأقلّ محطَّة دائمة للاسترخاء، وانتظار ما ستبديه لنا الأيّام.

وقبل أن نغادره قالت:

– قبل يومين، هاتفت أسمهان زميلك رهوان لكي يوصلها إلى مبنى البريد. جاءها وأخذها من أمام بيتها، ثمّ راح يغازلها ويقترح عليها أن يلتقيها في أيّ وقت تشاء، تمادى في الإلحاح عليها، وحين نزلت من السيَّارة ناولته النقود ومعها البطاقة التي تحمل اسمه ورقم هاتفه، ثمّ ابتعدت من دون كلام.

حدَّقتْ في وجهي كما لو أنّها تنتظر رأيي. قلت:

– خيرًا فعلتْ أسمهان.

***

كانت شقيقتي لمياء تزهد في الكلام حين يضمّنا مجلس في المساء، ربّما لاكتفائها بما تخوضه من حوارات مع طلّاب الجامعة وطالباتها، وربّما ليأسها من أن نستجيب، أنا وأمّي وأبي، لوجهات نظرها، إلّا أنّها لطالما

لفتت انتباهنا بتكرار جملتها إيّاها كلّما جلسنا إلى مائدة الطعام، أو لمشاهدة الأخبار. تقول:

– الاحتلال هو سبب تخلّفنا.

وتضيف:

– هو سبب ما نحن فيه من انحطاط وبؤس وشقاء.

جاءها عريس من راس النبع. شابٌّ خلوق، يعمل سائقًا لشاحنة تنقل الفواكه والخضار، رفضته من دون إبداء الأسباب، قلت لنفسي: ربّما لم يعجبها لأنّه سائق شاحنة.

حاولت أمّي إقناعها بتغيير موقفها، ثمّ أقلعتْ عن ذلك حين وجدتها مصرّة على رأيها.

ولم تنقطع حواراتنا.

ذات مساء، قال أبي بهدوء ظاهريّ:

– كثيرون من الشباب والشابّات، ممّن أقدموا على طعن الجنود بالسكاكين، ضحّوا بأرواحهم من دون جدوى.

ثمّ استدرك وأضاف:

– أقدّر تضحياتهم، وأعرف أنّ ما قاموا ويقومون به هو احتجاج بالدم على عسف الاحتلال.

قالت أمّي:

– كنّا نذهب إلى مخيّمات العمل التطوعيّ، نعمّر ونبني ونزرع ونحصد، وما زلنا إلى الآن نعتصم ونحتجّ ونتظاهر سلميًّا ضدّ الاحتلال.

قالت لمياء وهي تعلّق على كلام أمّي:

– لم يرحل الاحتلال، ولم يغادرنا التخلّف.

تدخّلتُ في الحوار وقلت:

– صحيح أنّ الاحتلال جمّد تطوّرنا الاجتماعي، لكنّه ليس السبب الوحيد للتخلّف.

قالت لمياء:

– هو سبب رئيس.

ثم ذهبنا إلى النوم وفي ذهن كلٍّ منّا تصوّرات شتّى وأسئلة، وتأمّلات وأمنيات.

7

كنّا، أنا وسناء، نمشي فوق رصيف الشارع الذي يأخذنا من باب العمود إلى الباب الجديد، كان الوقت مساء، وثمّة نسيم عذب يهبُّ على وجوهنا ويداعب شعر سناء وذيل فستانها الأسود، كنت معجبًا بالفستان الذي ترتديه لأوّل مرّة منذ اشترته قبل أيّام، وجعلها تبدو أصغر من عمرها بعشرين سنة، وأكاد أجزم أنّها أصغر من ذلك بكثير.

كنت أخشى أن يقترب منها متزمّت ممّن نصّبوا أنفسهم وكلاء لله على الأرض، ويهمس في أذنها تعبيرًا عن عدم إعجابه بفستانها الرشيق. «أنت داشرة»، سيقول لها.

أو أن يقترب منها كهل مهووس بأجساد النساء، يلمس صدرها أو أسفل بطنها بحركة خبيثة مموّهة من يده، ثمّ يغيب في الزحام. ظلَّ جسدها يغويني ويؤرّقني على الدوام.

كانت تبتسم وأنا أكاشفها بما أفكّر فيه، تقول لي بثقة ومن دون اكتراث:

– لا تقلق يا محمّد، أرجوك.

حين وصلنا الباب الجديد خطر ببالنا أن ندخل السوق التي تقع داخل السور، وفيها محالّ تجاريّة ومقاهٍ وبارات، ثمَّ عدَلنا عن ذلك وواصلنا سيرنا خارج السور نحو باب الخليل. مشينا فوق الرصيف الذي يكتظُّ بالناس. ناس من مختلف الأجناس، كما لو أنّ المحتلِّين يروِّجون لكذبتهم التي

تدّعي أنَّ القدس مدينة العالم، مدينة كلّ الناس، ونحن – أهلَها – محرومون من حقِّ الاعتراف بنا، ومن حقِّ العيش فيها أحرارًا آمنين.

آنذاك، وقعتِ المفاجأة التي أثارت مشاعري. اقترب منّا سائح يبدو من ملامحه أنّه إسبانيّ، نظر في وجه سناء وسألها بفضول:

– هل أنت ماريا زخاروفا؟!

دُهشنا، أنا وسناء من وقع المفاجأة. ثمّ ابتسمنا، وقالت سناء:

– كلا لست ماريا زخاروفا.

خجل الرجل، اعتذر منها ومضى مسرعًا، وبقيت وسناء تلك الليلة نستذكر اللحظة المدهشة في تكرار محبّب: ماريا زخاروفا هي سناء. وسناء هي ماريا زخاروفا.

ثمّ تركتها في السرير مع كتابها، وتفرّغتُ للتدوين. لم أدوّن إلّا بعض تفاصيل صغيرة، كنت أفكّر فيها، وفي فستانها الأسود وفي رشاقتها التي تتبدّى بوضوح وهي ترتدي ذلك الفستان، وفي السائح الإسبانيّ. وكنتُ راغبًا في قضاء وقت ممتع معها بعيدًا من التزامات الكتابة والقراءة. قلتُ لها وأنا ألوب حول السرير:

– حين تنتهين من القراءة تعالي لنشاهد التلفاز معًا.

قالت وهي تدرك ما أرمي إليه:

– بعد دقائق آتيك.

كان فستانها الأسود عالقًا في ذاكرتي وهي تخلعه أمامي ثمّ وهي ترتديه، ولا تلبث أن تخلعه من جديد.

8

ولم نكن، أنا وليلى، نتطرّق إلى العبء الذي يتحمّله العمّ محمّد الأصغر جرّاء التدوين إلّا على فترات متباعدة. نتعاطف معه بعض الوقت ثمّ ننساه وننسى زوجته سناء.

قلنا:

– علينا أن نتحرّر منهما بعض الوقت.

وقلنا:

– على الأصحّ، علينا أن نتحرّر منه ومن دفتره السميك على نحو ما.

وكنّا راغبيْن في ذلك النهار في التخفُّف من ضغوط الحياة ومن فداحة الأيّام. مشينا جنبًا إلى جنب في أرض البرّيّة الواسعة مثل طفلين.

تأمَّلنا معًا السهول ورؤوس الجبال والوديان المكسوّة بالعشب. أينما نظرنا كان اللون الأخضر حاضرًا بقوّة وازدهاء، وكان هذا سببًا كافيًا للانطلاق. خلعت ليلى جلبابها وركضت مثل غزالة.

تأمَّلتُها بإعجاب وقلت على سبيل المزاح:

– من يبصرك وأنت تركضين على غير هدى سيعتقد أنّك مجنونة.

فكَّرتْ لحظات في كلامي، ابتسمتْ وقالت:

– نعم، أنا مجنونة.

ثمّ صاحت بصوت عالٍ مجبول بالتحدِّي وعدم الاكتراث:

– يا عالم، أنا مجنونة، مجنوووووونيييييه.

اقتربتُ منها وصحت بعدم اكتراث:

– حبيبتي ليلى مجنونة، مجنووووووونيييه.

ثمّ صمتنا. استلقتْ ليلى على العشب واسترخت عليه وهي تشعر بانتعاش.

استلقيتُ إلى جوارها، بقينا وقتًا ونحن مستلقيان على العشب بوداعة وانسجام، كان تجاور جسدينا على هذا النحو الحميم مصدر متعة لي، ولها كما أتوقّع.

وبعد وقت، نهضتُ ومددتُ يدي إليها وساعدتُها على النهوض، ثمّ ركضنا معًا في السهل الفسيح، وكنّا مثل مجنونة ومجنون، لا ندري ما الذي ينتظرنا من مفاجآت.

قالت: «حين انتعشتْ تجارة جدِّي في القدس عاد إلى مزاولة نشاطه الليليّ مع الأصحاب.

بعد نكبة 1948، ظهرت في الجزء الشرقيّ من القدس من جديد أماكنُ للهو وللسهر. صار جدِّي يتردَّد على بار داخل الباب الجديد، وعلى ملهى في شارع الزهراء، يحتسي الخمور وينطلق لسانه بالنوادر وسرد الحكايات وبالكلام المتمحور حول أجساد النساء، تشجّعه على ذلك طفرة الأزياء التي ظهرت في المدينة، واحتفاء المدينة بالأفلام المصريّة والأجنبيّة التي كان لها أثرها على العلاقات بين الرجال والنساء، حتّى أنّ البنات المراهقات كنّ يعشقن حدّ الهوس عبد الحليم حافظ وهو يصدح بأغانيه العاطفيّة في أفلامه التي داوم على تمثيل دور الفتى المحبوب فيها، وكان فريد الأطرش بصوته الرخيم ينال حظوة لدى نساء أخريات.

كان جدِّي مسحورًا بتلك الأجواء التي تكسر النمط المحافظ إلى حدٍّ ملموس. يضحك ويضحك معه الأصحاب، ولا يعود إلى البيت إلّا في ساعة متأخِّرة من الليل.

في بعض الليالي، كان يأخذ أصحابه في سيَّارته الكاديلاك إلى مضارب النَّوَر في الأغوار، للتمتُّع بغناء النوريّات ورقصهنّ الذي يخلب الألباب، وأحيانًا... كانوا ينامون هناك.

في النهار، كان يمارس تجارته من الصباح إلى المساء. قيل إنّه كان

يستغلُّ الناس، وإنّه اشتغل بالربا. كان يمنح زبائنه قروضًا لأمد معلوم ويتقاضى منهم فوائد عليها، ويستعيدها في الوقت المحدَّد من دون أن تنقص فلسًا واحدًا.

وحين تصاعد النشاط السياسيّ في الضفّتين، الشرقيّة والغربيّة، لنهر الأردن اللتين تشكلت منهما المملكة الأردنيّة، كانت له مشاركات من بعيد لبعيد كما يقال. رفض جرّ المملكة إلى الأحلاف الاستعماريَّة، وتعاطف مع ممثّلي التجَّار الراغبين في الوصول إلى البرلمان الأردنيّ، وتبرَّع لحملاتهم الانتخابيَّة بسخاء.

وكان يذهب بانتظام إلى صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، ولا يمارس السهر خارج البيت ليلتها. كانت تلك الليلة مخصّصة لجدّتي في غرفة نوم تغصّ حيطانها بالمرايا. كانت المرايا تتكتّم على الأسرار، على العكس من لسان جدّتي التي ماتت وبقيت ثرثراتها تتردّد في غرف بيتها وردهاته على الدوام، إلى أن وصلت إلى الحفيدات والأحفاد.

***

كنت أفكّر في ليلى وإقبالِها على البوح الصادق الحميم وأنا جالسٌ خلف مقود السيَّارة. ثمّ رحتُ أتصفَّح كتاب «البئر الأولى» لجبرا إبراهيم جبرا، وأنا معجب بالكاتب العابث الشقيّ وهو يعيش طفولته في مدينة بيت لحم، ثمّ وهو يعيش فترة من شبابه في القدس.

بعد نصف ساعة جاء دوري لنقل الركّاب، وكان رهوان مضى قبلي إلى جهة ما لتوصيل رجل وامرأتين. جاءت امرأة تعقد شعرها إلى الخلف وترتدي بلوزة تكشف جزءًا من صدرها وبنطالَ جينز يظهر امتلاء ردفيْها وعلى عينيها نظّارة شمسيّة، فتحتْ باب السيَّارة الخلفيّ وطلبتْ منّي أن أوصلها إلى فندق الملك داود.

قدتُ السيَّارة في اتّجاه الفندق، اختلستُ النظر نحوها عبر المرآة، كانت ملامحها مألوفة لي، ربّما نقلتها في سيّارتي قبل هذه المرّة، وربّما شاهدتها في مكان ما. كانت هي الأخرى تسترق النظر إليّ ثمّ تتجمَّع

على نفسها وتبدو متحفِّظة على نحو ما. فكَّرتُ باستدراجها إلى الحديث، سألتها:

– هل لديك عمل في الفندق؟

ظهرت تكشيرة على وجهها، ردَّت عليّ بسؤال:

– لماذا تسأل؟

شعرتُ بالحرج واعتذرت، وامتدَّ بيننا صمت. كان ثمّة ازدحام في الشارع المؤدّي إلى الفندق، وثمة على رصيفَيِ الشارع نساءٌ إسرائيليّات بتنّورات قصيرة، أو بناطيل لا تخفي إلّا مساحات قليلة من أجسادهن، ورجال إسرائيليّون من مختلف الأعمار، وعلى وجوه بعضهم فظاظة ولؤم، ولا أثر لفلسطينيّين في هذا المكان، لتخوّفهم من اعتداءات متطرّفين إسرائيليّين. أشعلتُ الغمّاز الأيسر وانعطفتُ بالسيّارة وأوقفتُها في ساحة الفندق.

قالت:

– انتظرني، سأغيب دقيقتين وأعود.

رأيتها تُخرج من حقيبة يدها رزمة صغيرة وتمضي نحو باب الفندق. قلت لنفسي: هل يُعقل أنّها تحمل عبوة ناسفة ستفجّرها بالحرّاس؟! في هذه الحالة، سيكون مصيري السجن لسنوات، لا، لا، لا يمكن أن تفعلها هذه المرأة. قلت: يبدو أنّها سترسل هديّة إلى قريب لها مقيم في الخارج مع شخص زائر، أو قد يكون لها قريب يعمل في الفندق، وقلت: ما شأني بها؟! ولماذا السؤال؟!

عادت وعلى ملامحها ارتياح. فتحتِ الباب وقالت بهدوء:

– خذني إلى الحيّ الشمالي.

عرفتُها في الحال. وفاحت تلك الرائحة من جديد. قدتُ السيَّارة في اتّجاه الحيّ الواقع على تخوم المستوطنة، وبقيتُ مبلبل الذهن: هل أصارحها بأنّني أعرفها أم ألتزم الصمت؟ وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: هل عرفتني ولم ترد أن تكاشفني بذلك؟ أم أنّها نسيتني ونسيتْ أنّني كنت في بيتها ذات مرّة؟! ربّما لم تعرفني، لأنّ رجالًا كثيرين زاروا البيت.

أخيرًا، وقبل أن نقترب من تخوم المستوطنة، تجرّأتُ وسألتها:
– هل أنت فريال؟
فوجئتْ، أو ربّما تظاهرت بأنّها نسيتني. سألتني:
– من أين تعرفني؟!
ابتسمتُ وقلت:
– كنت في بيتكِ أنا وزميل آخر اسمه رهوان.
ارتسمت على ثغرها ابتسامة فيها حرج، قالت:
– صحيح، لكنّني نسيت.
خيَّم علينا صمت. أوقفت السيَّارة في الساحة القريبة من البيت. قالت:
– تفضَّل لكي نشرب القهوة.
اعتذرتُ منها. نزلتْ من السيَّارة، ولمحتُ على وجهها ما يشبه الإحساس بالدونيَّة والصغار.
مضت نحو بيتها، وكان في مشيتها ارتباك.

***

كنّا، أنا وليلى، نمشي بمرح وانطلاق على العشب النديّ في برّيّة الأجداد، وهي ترتدي فستانًا أبيضَ.
قلت لها: «هنا كان أجدادي يكدحون ويمرحون وينامون ويحضنون زوجاتهم في الليالي الحالكات، وتحت ضوء القمر حين يكون هناك قمر».
قالت لي: «هنا أنا وأنت الآن، ولا أحد سوانا».
قدتُها من يدها وغنّيتُ مقلّدًا صوت عبد الوهاب، وأنا لا أجيد الغناء:
«ليلى بجانبي كلُّ شيء إذن حَضرْ
جمعتْنا فأحسنتْ ساعةٌ تَفضلُ العمرْ».
ردّت عليّ وهي تتخطّر إلى جواري مقلّدة صوت أسمهان:
«قيس ابن عمّي عندنا؟ يا مرحبا يا مرحبا».

ثمّ تلمّستْ جبيني وشعر رأسي، واستبدّت بها رغبة طائشة، نامت على العشب، تمرّغتْ، تقلّبت، تمطّت، شهقت، تأوّهت، والعشب يتلوّى تحتها ويصبغ بلونه بياض الفستان، ومن مكانٍ ما في البرِّيَّة انطلق الغناء.

فجأة، رأينا مصطفى، شقيق ليلى، يقترب منّا، يقبض على يدها ويزفّها إليّ، ثمّ رأيناه ينتضي مسدّسه ويطلق سبع رصاصات في الفضاء، وعلى الفور، تعالت الزغاريد. رأينا ابنة عائلتي معزوزة وحبيبها الشهيد حرّان وهو يحضنها بحنان، رأينا العمّ محمّد الأصغر وزوجته سناء. رقصت سناء مع الراقصات والراقصين، وبقي العمّ محمّد يرقب المشهد من مسافة ما. قلت مازحًا: انظري يا ليلى، ها هو العمّ (أكاد أجزم) يراقب الناس كعادته. ابتسمت ليلى ولم تبح بأيّ كلام. رأينا جدّي عطوان المغترب في البرازيل ومعه زوجته البرازيليّة جيزيل وجدّتي فهيمة. كان جدّي وزوجتاه يرقصون في أتمّ انسجام، ولم تنفر جدّتي المهجورة من ضرّتها المدلّلة. رأينا فليحان، عمّ أبي، وهو يقترب من رسميّة التي كانت مخطوبة لابن عمّها سرحان، يقترب منها ويحضنها على مرأى من سرحان، الذي انتضى مسدّسه وأطلق رصاصة واحدة في الفضاء، وكان يرنو إلى رسميّة وفليحان بحياد، وبدا كما لو أنّه نسي الجرح الذي سبّبه له فليحان حين اختطف رسميّة منه. وكنّا، أنا وليلى، نعجب كيف نسي الناس أحقادهم وَصَفَت نفوسهم في ليلة كهذه! كانت الجدّة الكبيرة صبحا وزوجها الجدّ الكبير محمّد العبد اللات، وابنهما مختار العشيرة منّان، يجلسون على مقربة من جدّة أبي، مثيلة وضرّتها وضحا، أمّ العمّ محمّد الأصغر، وبالقرب من الجميع تجلس جدّة ليلى، أنيسة، وأمّها فريدة وشقيقتها رجاء، فيما شقيقتي لمياء ترقص مع حشد من طلّاب الجامعة وطالباتها، وفرس العائلة التي لطالما تحدّث عنها رجال عائلة العبد اللات ونساؤها تركض في البرّيّة وهي تطلق الصهيل تلو الصهيل، ولم يكن فارسها الجدّ الأوّل عبد الله يمتطيها لأنّه قتل منذ سنوات طويلة عند بئر الماء.

وحين غابت الفرس غاب الجميع، ما عدا شخصًا واحدًا هو والد ليلى،

العمّ محمّد حسن القانع، باركَنا أنا وليلى ثمّ غاب. اقتربتُ منها لكي أجرّدها من فستان الزفاف وأرى جسدها الفتّان، غير أنّها تمنّعت وابتعدت بدلال وهي تقول في حلمنا البهيج: ليس الآن، ليس الآن.

9

كان رهوان يقف على مقربة منّا وهو يفرك كفّيه دلالة على الرضا والحبور، وجهه يطفح زهوًا وفرحًا، شعرُ رأسه الكثيف يهبط بفوضى مقصودة نحو جبينه، فيبدو كأنّه ممثّل في أحد أفلام المغامرات. قال لكي يُشعرني بأنّ فريال لا تخفي عنه أيّ خبر:

– ذكرتكَ فريال بالخير.

ابتسمتُ، لأنّني لم أكن معنيًّا بأن أخبره عن لقائي العابر بها، ولم أكن معنيًّا بأن أكاشفه بما أخبرتني إياه ليلى حول ما جرى بينه وبين أسمهان. أصغيت له بانتباه كي لا يتعكّر مزاجه.

قال لي وللزملاء:

– زرتُها عند الأصيل.

صمتَ لحظة لكي يشوِّقنا إلى متابعة الكلام، وقال:

– كانت وعدتني بمفاجأة. وجدتُ عندها ناتاشا الروسيَّة التي قدِمَتْ يافا قبل أشهر. أحضرتْها عصابة لتوريد البنات إلى المواخير. قيل لها إنّ عملًا نظيفًا ينتظرها في مطعم على شاطئ البحر. التقطتِ الطُّعْم وجاءت تتأوّد مثل سمكة.

قال وهو يبلع ريقه كأنّه يتذوّق حلوى شهيّة:

– ناتاشا بنت شقراء، شعرها ذهبيّ وجسدها نحيل. لها ابتسامة عذبة ممزوجة بأسى خفيف. ابتسمتْ لي كأنّها تعرفني من قبل. أخذتُها

في حضني من دون مقدِّمات. تلوَّتْ وضحكت بدلال، وأمعنتُ في احتضانها حتّى اعتصرتُ جسدها بين ذراعيّ.

بدت فريال منتشية، وطلبت منّي أن أترفَّق بالبنت كي لا أكسر عظامها.

حملتُها بشغف، واتَّجهتُ بها نحو غرفة النوم. أغلقنا علينا الباب، وكانت ستارة النافذة تحجب عنّا ضوء النهار، وتحجب في الوقت ذاته بيوت المستوطنة. راقني بياض جسدها، وكانت مثل سيّارة طالعة لتوّها من شركة السيّارات، لا تحتاج إلّا لنقرة سيلف واحدة لكي تشتغل وتمضي منطلقة في الطرقات. قلت لنفسي وأنا أتأمّلها: منذ الآن انتهى زمن سميرة، وابتدأ زمن ناتاشا.

حدَّق رهوان في وجهي ووجوه الزملاء منتظرًا تعليقًا ما. بقينا صامتين، ربّما لإحساسنا بأنّ الأمر لا يحتاج إلى تعليق. ابتسم وقال في مزاح:

– أنتم تحسدونني على هذه النعمة يا أوغاد.

ضحكنا، وضحك معنا رهوان.

وكنتُ أقدّر أنّنا نسير، بحسب مزاج كلّ منّا وسلوكه، في دروب مختلفة، برغم اشتراكنا في العيش في مدينة واحدة، مدينة لها مصير مبهم ملتبس حتّى الآن.

***

وذاتَ مساء، جاءت ليلى.

كانت البراءة المرتسمة على وجهها تنعش قلبي، وتشعرني بالتميّز على أقراني في العائلة وفي المهنة. وقفتُ لتحيّتها ومددتُ يدي بابتهاج. ابتسمتْ وهي تستكثر هذا الاحتفاء. جلستْ ورحنا ننتظر أن يأتي إلينا إميل.

ارتاح إميل لنا وارتحنا له منذ لقائنا الأوّل في مقهاه. وكان يتعاطف معنا ونحن نلوذ بالمقهى، يرحِّب بنا ويبتهج لحضورنا، وحين تكون طفلته ماري

في المقهى، فإنّها تركض نحو ليلى وتجلس في حضنها، تقبّلها ليلى على خدِّها وتمسّدِ شعرها، وتدخل معها في حوار ظريف.

هذا المساء، جلست في حضنها كالعادة وسألتها:

– أنت ابنة إميل أم ابنة مريم؟

أجابت في مشاكسة عذبة:

– أنا ابنة القدس.

سألتها:

– طيب، حبيبك إميل أم حبيتك مريم؟

استمرّت في المشاكسة وقالت:

– حبيبي هذا المقهى.

سألتها في مناورة مقصودة:

– حبيبتك القدس أم القدس؟

فكّرت قليلًا وقالت:

– حبيبتي السمكة الذهبيّة.

ضحكت ليلى وربّتتْ على كتف ماري بحنان.

في الأثناء، اقترب منّا إميل، ولم تكن النادلة سوسن في المقهى. كان متجهِّم الملامح على غير عادته. أفصحَ عمَّا في نفسه وقال:

– وصلتني رسالة فيها تحذير ووعيد من جماعة تُدعى «حرّاس الشرف»، يعتبرون هذا المقهى بؤرة فساد.

صمت لحظات، تلفّت حوله لسبب ما ثمّ أكمل:

– طالبوا بمنع دخول النساء مع الرجال إلى مقهاي.

بدا الامتعاض واضحًا على وجه ليلى وفي عينيها، امتعضتُ أنا كذلك، ولم نجد كلمات مناسبة نعبّر بها عن صدمتنا. كانت عيوننا تحمل رسائل واضحة، ما أشعَرَ إميل ببعض العزاء، وحين ابتعد ليخدم زبائن آخرين رحنا أنا وليلى نرسم صورًا متخيَّلة لحرّاس الشرف هؤلاء. قالت:

– أكيد شعر ذقونهم طويل ممتدّ إلى أسفل بطونهم.

قلت:

– ليس بالضرورة شعرًا طويلًا إلى هذا الحدّ، ربّما كانوا بشوارب محلوقة وبلحى قصيرة.

وتذكّرنا معًا بيت شعر للمتنبّي لطالما تكرّرَ في مناسبات شتّى:

أغايةُ الدين أنْ تُحفوا شواربَكم / يا أمّةً ضَحكتْ من جهلها الأممُ

ثمّ أقلعنا عن ترديد الشعر وعن تخيّل الصور، فقد طفح في داخلنا الكيلُ وفاض.

في ذلك المساء، غادرت مريم وطفلتها ماري المقهى على عجل، ربّما لهذا السبب، الذي يقطع مسيرة الحياة بشكل فظّ، وربّما لسبب آخر لا نعرفه. بدا المقهى ناقصًا حين لم تعودا حاضرتيْن فيه.

شربتُ وليلى قهوتنا على مضض.

***

كان رهوان حين جاء، على العكس من ذلك.

بدا منتعشًا راضيًا، تدلّ على ذلك ملامح وجهه وحركات يديه، غير أنّه كان يتلفّت بحذر في كلّ اتّجاه، كما لو أنّه يخشى الوقوع في المحظور، أو في مساءلة عمّا سيقوله ولو بعد حين. وقف أمامنا، رفع بيده شعره النازل نحو جبينه وعينيه، حدّق في وجوهنا ثمّ قال بصوت خافت لكي يثير فضولنا:

– أخذتُها إلى يافا من دون علم فريال.

أثار ذكر يافا في نفسي مشاعر شتَّى، بعضها بهيج وبعضها الآخر مثير للأسى والإحساس بالخسران. أصغينا إليه بانتباه.

قال:

– مشينا معًا في شوارع يافا تحت مطر نيسان. ظلَّت المظلَّة تتحرَّق شوقًا إلى المطر، إلّا أنّ ناتاشا لم تخرجها من حقيبتها، وقالت إنّها تحبّ أن يبلّلها المطر. مطر خفيف على أيّ حال، ومحتمل. نامت ونمتُ إلى جوارها على سرير غرفة صغيرة في فندق محاذٍ للبحر. كانت لنا ليلة لم

أجرِّب مثلها من قبل، والبحر كان يرسل إلينا همهماته الخافتة كما لو أنّه يغبطنا على وقتنا.

في الصباح، كان كلّ منّا على سرير. لم أصدّق عينيّ. ربّما كنت غير قادر على تمييز الأشياء من حولي من أثر الكيف. كانت ناتاشا هي الأخرى مُسلْطِنة على نحو عجيب، ظلّت نائمة إلى ما بعد الضحى بقليل. تأمّلتُها وهي نائمة فشعرتُ بالغبطة لهذا الجمال الراقد على مرأى من عينيّ. حين استيقظتْ قلت لها: «كان في الغرفة سرير واحد، فكيف أصبحا سريريْن؟»، قالت: «هما سريران منذ دخلنا الغرفة»، فقلت مكابرًا: «سرير واحد»، وأصرّت على رأيها: سريران. ثمّ نسينا الأمر وضحكنا باستمتاع.

التفتَ إليّ بإيحاء خاصّ وقال:

– هكذا هي الحياة وإلّا فلا. أليس صحيحًا هذا الكلام؟

قلت لكي أبلبله:

– ربّما نعم، وربّما لا.

ابتسم وقال:

– بل نعم يا ابن العم، نعم.

ثمّ غنَّى أغنية قديمة باستهتار: «نعم يا حبيبي نعم، أنا فوق شفايفك نغم».

***

بعد أيّام جاء مهمومًا.

نعم، جئت متأخِّرًا عن موعدي المعتاد هذا الصباح، والصباح كان غامضًا ينوء باحتمالات شتَّى، والقدس القديمة تتجمَّع على نفسها داخل السور مثل طفلة تلوذ بحضن أمّها خوفًا من خطر ما. اقتربتُ من قيس وبقيّة الزملاء وهم جالسون على حافّة السور الواطئ في انتظار الركّاب. طرحتُ عليهم تحيَّة الصباح.

صحيح، رددنا عليه تحيّته بمثلها، ولم نُثقل عليه بأيّ سؤال، لأنّ السؤال الذي لا يروقه يستفزّه. جلس وتلفَّت في كلِّ اتجاه. لربّما راقه تدفُّق الناس مثل سيل لا ينقطع عبر باب العمود، بحيثُ غطَّت كثافة حضورهم على حضور دوريَّة الجنود الواقفين هناك.

نعم، راقني تدفّق الناس عبر باب العمود، وراقني حضور النساء في المكان، نساء بهيجات بملابس شتّى ومن كلّ الأعمار. أشعلتُ سيجارة ونظرتُ في وجوه الزملاء وقلت: غابت ناتاشا ولم أقابلها منذ أيَّام. غيَّبتْها فريال لأنّها اكتشفت ذهابنا إلى يافا، وكنت سجَّلتُ على هاتفي رقم هاتفها المحمول، ثمّ عرفتُ أنّ الهاتف لفريال. سحبتْه منها عقابًا لها. وهكذا انقطع الاتصال بيني وبينها.

بعد لحظة صمت استدركتُ وقلت: ستجيء، هي تعرف مكاني هنا، وأنا أستغرب لماذا لم تجئ حتّى الآن!

بقينا صامتين، ولم نعلّق على كلامه، واستغرق رهوان في صمت لم يدم طويلًا، إذ راح يغنِّي بصوت مجروح، غناء لا طرب فيه ولا إمتاع.

نعم، غنّيتُ من قهري وأساي، ومن حقيقة العذاب الذي يصيبني جرّاء تمنّع النساء، هذا التمنّع غير المفهوم وغير المقبول في الوقت ذاته، بل المرفوض. قلت وأنا ناقم على الدنيا: «زمانٌ عَرْص، وأعْرَصُ من عَرْص هذا الزمان».

10

وحين يكون لديه ما يقال، فهو لن يستريح إلّا بعد أن يُفرغ ما في جعبته من كلام. راح يتلفّت كعادته في كلّ اتّجاه، ويفرك يديه ويمسح جبينه براحة يده، ربّما لكي يهيِّئ نفسه للكلام. حدّقنا في وجهه وأبدينا استعدادًا للاستماع إليه. قال:

– هاتفتني فريال قبل ثلاث ساعات، وقالت بصوت مهتاج: أريدك، تعال.

لم أخيّب أملها. ركبتُ السيَّارة وقصدتُ بيتها وأنا ممتنٌّ لما في هذه الحياة من مفاجآت. خلعتْ قميص النوم، ونثرت شعرها على صدرها، كان لجسدها حضور يملأ المكان، دخلنا معًا في طقس الغياب عمّا في الدنيا من هموم، وحين شهقتْ شهقتها القصوى وارتخى جسدها راحت تتلفّظ بكلمات سمعتُها منها للمرّة الأولى: أكرهه، أكرهه، جاء بي إلى هنا وأدخلني في العذاب.

لم أكترث لكلماتها، وكنتُ على وشك أن أكرّر ما فعلناه، لكنّ عينيّ وقعتا، كأنّما للمرّة الأولى، على صورة لها وله معلّقة على الحائط المحاذي للسرير. تسلّطتْ عليّ فكرة منفّرة تمحورتْ حول استحواذ هذا المختبئ في بيت متاخم للمستوطنة على جسدها متى شاء! فترتْ همّتي وتقزّمتْ شهوتي. حاولتْ فريال استنهاضي بشتّى الوسائل وبكلّ ما اختزنتْه من فنون الإثارة، فلم ينجح مسعاها ولم نتوصّل إلى انسجام. كان جسدها متروكًا في السرير مثل صفيح بارد.

بكتْ وتجمّعتْ على نفسها لتحتمي من انكشاف مهين، ولم تأخذ النقود. ألقيتُ بها قريبًا من جسدها، وأنا أشعر بتقزّزٍ جرّاء هذا الإحساس الذي طغى عليّ.

قالت في شماتة، وهي تشير إلى الصورة على الحائط: سأترك نقودك على السرير لكي يراها ويلمّها بيده.

***

ظلّ رهوان يشعر بالقرف بضعة أيّام، ولم يطل انتظاره، جاءته فعلًا كما توقّع.

رأيناها وهي قادمة من بعيد، لها مشية رشيقة وساقان مصقولتان تنطويان على إثارة لا لبس فيها ولا غموض، لها شعر ذهبيّ يلعب به الهواء من دون محاذير، ورمّانتا صدرها تقولان ما يقال وما لا يقال. ابتهج رهوان وهو يراها مقبلة عليه، راح يكيل المديح لنفسه لأنّه جعلها تعرف أين يكون إذا ما افتقدته وقرَّرت القدوم إليه. قال لنا وهي تقترب منه:

– ألم أقل لكم إنّها ستجيء؟!

ثمّ قال وهو يفتح لها ذراعيه: ناتاشا!

قالت وهي تدخل في حضنه مثل حمامة: رهوان!

كانت ترتدي تنُّورة صاخبة الألوان، وبلوزة يطلُّ من تحتها سفح بهيّ لنهدين فَرْخين، وكانت ملامح وجهها لم تتشوَّه بعد بفعل السهر وما يتبعه من ممارسات.

قدَّمها إلينا في مباهاة، سلَّمت علينا وسلَّمنا عليها، أشفقتُ على البراءة التي ما زالت ترتسم على وجهها وفي عينيها. تأمَّل رهوان جسدها بشغف ثمّ أخذها في السيَّارة إلى جهة ما.

وثمّة في المدينة ضجيج يشتدّ حينًا ويخفت في بعض الأحيان. وكنت كما لو أنّني أسمع حفيف أثواب على الأرصفة وداخل السيّارات الذاهبة في كلّ اتّجاه، وعلى الأسرّة وفي غرف النوم، في المدينة التي ينتهكها المحتلّون كلّ صباح وكلّ مساء.

***

في الصباح التالي، باغتني وأنا أجترُّ خواطري، خواطر من النوع البسيط الذي لا يؤذي أحدًا، وقال:

– أنا متأكِّد من أنّها أعجبتك يا قيس، كنت أتابعك وأنت تتأمَّلها بعينين نهمتين، وكدت أقول لك: غزالتك لا تساوي شيئًا أمامها! غزالتك تدفن جسدها في جلباب، وناتاشا تعرض جسدها للشمس والهواء والمطر والغيوم، إلّا أنّني أشفقتُ عليك، وامتنعتُ من الكلام.

لم أعلّق على كلامه، تركته يثرثر على هواه.

ثمّ راح يروي لنا كلامًا يقال وكلامًا لا يقال عن ناتاشا الشقراء.

11

وكانت سناء فاجأتني ونحن نشرب القهوة في شرفة بيتنا. بدت متعكِّرة المزاج مستاءة، وكانت بين الفينة والأخرى تتحسَّس بطنها وثدييها الرابضين تحت قميص نومها الفضفاض، كأنّما لتلفت انتباهي إلى أمر ما.

رحتُ أخمِّن ما الذي يدور في ذهنها وأنا أعرف أنّ لها ثديين أتعبهما الانتظار، وكنت أتقصّد ألّا أوجِّه إليها أيّ سؤال، تاركًا لها الفرصة لكي تبوح بما تشاء. تشاغلتُ بالنظر إلى بيوت الحيّ من خلف الزجاج، وكنتُ مرتاحًا للمساحة التي تفصلني عن هذه البيوت، إلّا أنّني أيقنتُ وأنا أنظر إليها، بأنّها تنطوي على هموم ومشكلات يتسرَّب بعضها من ثقوب الأبواب والنوافذ المواربة، ويبقى بعضها الآخر طيّ الكتمان.

حين وضعتُ عينيّ في عينيّ سناء، ابتدأتْ هجومها المنظَّم بتوجيه اتِّهام:

– أحدكما لم ينصفني، كنتُ ضحيّةً لواحد منكما.

سألتُها وأنا أتظاهر بالهدوء:

– من هو الآخر الذي تقصدينه؟ وما الذي يزعجك يا سناء؟

رشفتْ رشفة من فنجان قهوتها، ولم تسارع إلى الردّ عليّ. استثمرتُ صمتها لكي أؤكّد إخلاصي لها منذ تزوّجتُها قبل سنوات طويلة إلى هذه اللحظة، ثمّ سألتها:

– هل تشكِّين في إخلاصي لك وفي استعدادي لتقديم الغالي والنفيس من أجلك؟

قالتْ وهي تتجاهل سؤالي:

– الشخص الآخر هو أخوك الذي ترمز له بالحرف «ع» يا محمّد. أحدكما تصرَّف معي من دون أن يأخذ بعين الاعتبار أنّني امرأة لها مشاعرها، امرأة أنثى بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى.

– تقصدين دورك المرسوم في «مديح لنساء العائلة».

– نعم، المرأة العاقر التي لا تنجب.

– أنا المسؤول عن ذلك يا سناء.

– رسمتَ لي هذا الدور لكي تثبت أنّك رجل شهم تحترم المرأة ولو كانت غير قادرة على الإنجاب، وأنّك مستعدّ للارتباط بها حتّى النهاية من دون أن تفكِّر بالزواج بامرأة ثانية.

صمتتْ لحظة وهي مُستفَزّة ثمّ قالت باستهانة:

– رجل ولا كلّ الرجال، ولتذهبْ مشاعري إلى الجحيم.

حلَّتْ لحظة صمت ثقيلة قطعَتها قائلة:

– لديّ مشاعر أمومة غير مشبعة، كنت راغبة في أن يكون لي أطفال، أحبلُ بهم وألدُهم وأتحمّلُ عذاب الحبَل والميلاد، أحضنهم وأرضعهم من ثديي حتّى يتدفَّق الحليب من أشداقهم. لكنّك خلقتَ منّي ظلّ امرأة لكي تُرضي غرورك.

قاطعتُها وقلت:

– يا حبيبتي يا سناء، ما الذي تقولينه؟! لك جسد كان بهيًّا فاتنًا وما زال، وأنا لستُ المسؤول عن عقمك. ألم نذهب أنا وأنت إلى الطبيب، والطبيب قرَّر بعد الفحوصات الطبيَّة أنّك لا تستطيعين الإنجاب؟!

أتتْ على آخر رشفة من فنجان قهوتها، ثمّ نظرتْ عبر زجاج الشرفة نحو البعيد، وقالت:

– أخشى أنّنا، أنا وأنت، لسنا سوى شخصيّتين من حبر وكلمات محشورتيْن بين دفتيْ كتاب كتبه أخوك «ع».

قلتُ في لهجة عتاب:

– أنت في هذه الحالة تنحازين إلى أخي «ع»، وتصادرين جهودي التي

بذلتها في التدوين.

حدَّقتْ في عينيّ، ولم تفكّر بالردّ. غادرَتِ الشرفةَ وذهبتْ إلى الحمّام. مشيت خلفها، وبعد لحظات، سمعتُ صوت انهمار الماء على جسدها الذي من لحم ودم وألَق وبهاء.

ثمّ رحتُ أفكّر في مصيرنا، أنا وسناء، وفي مصائر الناس وما يتعرّضون له من مفارقات، سواء أكانوا قادمين من بطون الكتب أم من دروب الحياة.

وكنتُ آنذاك مشغولًا بمشورة جديرة بالاهتمام.

أرسلَ إليّ قيس منّان فصلًا من رواية يعكف على كتابتها منذ شهور، يتحدَّث فيها عن علاقة حبّ بين بطل الرواية، الذي ينتمي إلى عائلة العبد اللات، وفتاة من عائلة ثريّة أصلها من يافا واسمُها ليلى، وهي مقيمة مع أهلها التجَّار في حيٍّ بيت حنينا الجديدة. اللافت في الأمر أنّ اسم البطل هو قيس، اسم المؤلّف نفسه، فهل يعني هذا أنّه يتحدَّث عن قصَّة حبٍّ تخصّه أم أنّ ما يسرده هو مجرّد خيال في خيال؟!

ابتسمتُ لسبب ما، ولم أتوقَّف عند هذا الأمر طويلًا، فثمّة حيَلٌ فنّيّة كثيرة يلجأ إليها كتَّاب الروايات، وفي بعض الحالات يبرز بطل الرواية ويشتهر على حساب خالقه، مؤلّف الرواية الفعليّ، والأمثلة على ذلك كثيرة، لعلّ أبرزها «دون كيخوته» بطل الرواية التي كتبها الإسبانيّ ثيربانتس، فاشتُهِر البطل حتّى فاقت شهرته شهرة خالقه، وطبّقت الآفاق، كما يقال على ألسنة الأدباء، وكذلك «الجندي الطيّب شفيك»، بطل الرواية التي كتبها التشيكي ياروسلاف هاشيك، و«سعيد أبو النحس المتشائل» بطل الرواية التي كتبها إميل حبيبي.

الجدير ذكره أنّه، كما أخبرني، أرسل هذا الفصل من مخطوطته الروائيَّة إلى أخي المؤلّف «ع»، فأثنى هذا على أسلوبه في السرد المتقشِّف، وفي الاستفادة من إمكانات القصَّة اللقطة في التضافر والاحتشاد مع مشاهد أخرى مطوَّلة بعض الشيء، لتقديم رواية مكتملة متساوقة مع طبيعة عصرنا التوَّاق إلى سرعة الإيقاع. وبالطبع، فإنّ

الإيقاع السريع هو سمة من سمات هذا اللون القصصيّ من الإبداع. وكنت غير مرتاح لإرساله هذا الفصل إلى أخي «ع».

قرأتُ الفصل في جلسة واحدة، وشعرتُ بأنّ فيه مقدارًا من التشويق. قرأتْه سناء أيضًا وأثنتْ عليه، غيرَ أنّني حذَّرتُ قيس منّان من تأويلات القرَّاء والنقَّاد. قلت له: «أنت تنقد ظواهر اجتماعيّة تَصْدُق على غير مكان في بلادنا، لكنّك لن تعدم مَن يتّهمك بذمّ أقرب المقرَّبين إليك، وأنا على يقين من أنّك لا تقصد شخصًا بعينه، لأنّ الشخصيَّة في الرواية تتشكَّل من مجموع صفات ومناقب ومثالب لا تجتمع في شخص واحد في الواقع».

ردَّ قيس عليّ في رسالة أرسلها عبر بريدي الخاصّ في الـ«فايسبوك»، شكرني فيها على ملاحظاتي، وقال إنّه لا يقصد ذمّ أشخاص معيّنين، لكنّه يقصد بالفعل ظواهر معيّنة إنْ تخلَّصنا منها كان لنا جميعًا خيرٌ عميم.

أعجبتُ بذكاء هذا الشابّ، إلّا أنّني عدتُ إلى تحذيره من مغبَّة سوء التأويل الذي قد يوقعه في ورطة أو في التباس، وضربتُ له مثلًا ناقدًا راح يؤوّل ما ذكرْتُه عن زواج الرسول الكريم بعائشة بنت أبي بكر ولها من العمر تسع سنين، فاعتبر هذا غمزًا على الرسول. فهل يمكن الأدب في بلادنا أن يزدهر أمام ظاهرة التفتيش في النوايا، وإلصاق التهم بالآخرين للنّيل من كتاباتهم والتعريض بها أمام الجمهور!؟

عبَّر قيس عن موقفه برسم وجوه باسمة احتلّت سطرًا بأكمله على صفحة المراسلة، وقال: دعنا يا عمّ نتقبَّل النقد مهما اشتطَّ في التأويل وفي التفسير.

أعجبتُ بالشابّ لسعة صدره، ولأنّه خاطبني بالقول: يا عمّ.

ثمّ انشغلت بأمر مفاجئ.

ماتت أمِّي وضحا بعد عمر طويل. ماتت معزَّزة مكرّمة في ظلّ اعتناء أولادها وبناتها وأحفادها وحفيداتها بها. ظلَّت تمارسُ هواية الحكي حتّى ما قبل الأشهر الأخيرة من وفاتها. تسرد الحكايات المختزلة، وتعلِّق على

ما يجري في الحيّ من أحداث، وتخفض صوتها حتّى يصير أقرب إلى الهمس حين تتحدَّث عن عسف الاحتلال، خوفًا من مُخبر وضيع يصغي من خلف الشبّاك لكلّ كلمة تقولها.

وكانت بين الحين والآخر تشتمُ التلفاز الذي ضيَّقَ عليها فرص الحكي، وفرض عليها التكيُّف مع مزاج السامعين الذين لم يعودوا مغرمين بالحكايات الطويلة. كانت تنتقل من موضوع إلى آخر بعفويّة إلى أن تُفرغ كلّ ما في جعبتها من كلام.

في الأشهر الأخيرة، تشوَّشَ ذهنُها وصارت تخلط شعبان برمضان. تسأل السؤال الواحد عشر مرّات، وتعيد الخبر الواحد مرَّة ثمّ مرَّات، تتذمّر من البنات والأولاد، لأنّهم مقصِّرون معها، ثمّ تناقض نفسها وتثني على الجميع لأنّهم لا يقصِّرون. صارت تتطيَّر من ظلِّها حين تخرج للتمشّي في ساحة البيت تحت ضوء الشمس. في الماضي كانت تحبُّ ظلَّها، تلاعبه وتلعب معه، الآن تحاول التملُّص منه فلا يفارقها ما دامت عرضة للضوء، وحين يعتريها اليأس منه تعود إلى غرفتها، تجلس على حافّة السرير وهي بالغة الاستياء.

وحين كنّا نأتي إليها للتسامر معها وإحاطتها بالرعاية والاهتمام، تخبرنا بأنّها ترى فرس العائلة وهي تركض في البرّيّة بجموح غير معهود، تركض بشكل محموم وتطلق صهيلًا متّصلًا، تسمع وقع حوافرها كأنّها تركض داخل رأسها، تقول إنّها تَعرف معنى هذا كلّه، تعرف أنّ زوجها منّان ينتظرها ولا بدّ من أن تذهب إليه.

ماتت الوالدة بعد أن خارت قواها وأرهقتها الشيخوخة. قالت في لحظة صحو حارقة:

– ادفنوني في قبر مجاور لقبر منَّان.

كانت تتذكّره وتترحّم عليه باستمرار، وحين مات أعلنت الحداد عليه ثلاث سنوات، صارت تلبس ثوبها بالمقلوب، لكي تخفي التطريز بالأحمر والأخضر على الصدر وعلى الجانبين، وصارت تتجنّب حضور الأعراس.

ولسوء الحظّ، لم تتحقَّق رغبتها، لأنّنا لم نجد فسحة مجاورة لقبر

زوجها. دفنّاها في الحيّز المخصَّص لقبور العائلة، على مسافة عشرين مترًا من قبره.

علَّق أخي فليحان -غريمها التقليديّ والطاعن في السنّ الآن- بخبث لا يتحمّله الموقف:

– يسمعها لو نادت عليه من قبرها.

وقال:

– ثمَّ إنّهما سيلتقيان هناك في الدار الآخرة.

غمز بعينه اليمنى وقال في لؤم:

– وقد لا يلتقيان.

بمعنى أنّ أحدهما – يقصد أبانا منّان – سيكون في الجنّة والآخر في النار، يقصد غريمته، أمّي وضحا، سامحه الله.

***

في تلك الأثناء، تكلَّلتْ جهودي بالنجاح، وشعرتُ بأنّ الحياة عوّضتني عن فقدي أمّي، حين جاءت مَنِ انتظرتُها طويلًا، أقصد ماريا زخاروفا.

وافقتْ على زيارة فلسطين بعد مراسلات عدَّة، وبعد دعوات متكرِّرة لها لقضاء أربعة أسابيع في حيِّنا. أرسلت لي ماريا رسالة عبر بريدي الإلكترونيّ فيها تلبية لدعوتي، وكنت شجَّعتها على القدوم إلينا بالقول إنّ أخي «ع» سبق أن دعا عددًا من نجوم السياسة والغناء وعرض الأزياء وكرة القدم والسينما لزيارة حيِّنا، جاؤوا فعلًا أو حضرت أسماؤهم. جاء الأمريكيّون رامسفيلد وزير الدفاع، صاحب الابتسامة الاستعلائيّة السمجة، ورامبو بطل الأفلام الذي لا يقهر، ومايكل جاكسون نجم الغناء، وحضر اسم وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة كوندوليزا رايس، واسم لاعب كرة القدم البرازيلي رونالدو، واسم المغنِّية الكولومبيَّة من أصل لبنانيّ شاكيرا، واسم عارضة الأزياء البريطانيّة نعّومي كامبل، وآخرين وأخريات. دعاهم أخي لكي يلعب لعبة فنّيّة ممتعة، وأنا أفعل الشيء ذاته مضاهاة لأخي في لعبته.

تشجَّعتْ ماريا زخاروفا وقرّرت المجيء، فرحتُ فرحًا غامرًا وأشركتُ سناء معي. فرحتْ سناء باعتدال، كشأنها دائمًا حين لا يستخفُّها الفرح، فتبقى محافظة على رصانتها. وقبل أن أتَّخذ قراري بالتكتُّم على الخبر، وجدتُه قد شاع من دون إبطاء، وتسرَّب إلى أسماع نساء الحيِّ ورجاله، وصار خبرًا عاجلًا في كلّ بيت.

صار أهل الحيِّ يترقَّبون قدوم ماريا زخاروفا، مع أنّهم لا يعرفونها ولا أعتقد أنّهم شاهدوها وهي ترقص رقصتها الشهيرة على أنغام الموسيقى الشعبيَّة الروسيَّة.

غير أنّهم كانوا متلهِّفين للقائها، تلك المرأة الياسمينة الرشيقة، وأكاد أجزم أنّ قيس وليلى يترقّبان قدومها مثل غيرهما من الناس.

12

لم أنشغل بأمر ماريا زخاروفا، كنت منشغلًا بشأني الخاص.

قلت لحبيبتي ونحن نتمشّى في سوق أفتيموس:

«أبي ينتمي إلى عائلة بدويّة كانت تعيش في البرّيّة، وأمِّي تنتمي إلى عائلة مقدسيَّة متوسّطة الحال، كانت وما زالت تعمل ممرّضة كما تعلمين، ولم تكن هذه المهنة مرغوبة في عائلتنا حتّى في زمن الانفتاح، فكيف تكون الحال ونحن في زمن التزمُّت والانغلاق؟! وأنا أتوقّع أنّ أيًّا من أبناء العائلة لم يقرأ قصيدة ابراهيم طوقان «ملائكة الرحمة»، التي يشيد فيها بالممرّضات:

بِيضُ الحمائم حَسْبُهُنّهْ / أنّي أردّدُ سَجْعَهنّهْ
رمزُ الوداعة والسلامة / منذُ بدءِ الخلق هُنّهْ

أو ربّما قرأها أحدهم ولم يعلَقْ في ذهنه شيء منها.

كان الشابّ منّان، أبي في ما بعد، سائقًا لسيّارة فورد، ينقل الركّاب من باب العمود إلى أماكن شتّى في المدينة، من بينها «مستشفى الأمل» الذي كانت الشابّة زهور، أمّي في ما بعد، ابتدأتْ عملها فيه منذ أشهر معدودات. تعرَّف إليها منّان حين كانت تذهب في سيّارته إلى عملها في الصباح. بقيتِ العلاقة بينه وبينها عاديّةً إلى أن أصيب بجرح في ساقه من رصاصة أطلقها عليه أحد الجنود الاسرائيليّين، أثناء

مشاركته في تظاهرة احتجاج. نقله زملاؤه إلى مستشفى الأمل، وهناك قامت الممرِّضة زهور برعايته حتّى غادر المستشفى. أحبَّها وأحبَّته.

قلت له في مزاح: الولد سرّ أبيه كما يقال. حدّق في عينيّ بشغف، ثمّ ابتسم وواصل الكلام.

صار منّان يصطحبها معه إلى مدينة الناصرة للمشاركة مع آلاف الشابّات والشبّان في مخيّمات العمل التطوعيّ التي كان يقودها رئيس البلديَّة، الشاعر توفيق زيّاد. وهناك صار حبُّ منّانٍ زهورًا على كلّ لسان.

وكان رجل من عائلة العبد اللات، وهو سطّام، أحد أبناء فليحان، ينتظر أن يتزوَّج منّان بابنته، ولمّا خاب أمله وقف عائقًا أمام رغبته في الزواج بالممرِّضة. ظلَّ منّان مصرًّا على موقفه برغم الشائعات التي أطلقها سطّام وبعض نساء العائلة عن زهور. قالوا إنّها كانت على علاقة بممرِّض، زميل لها قبل الزواج بمنّان، ثمّ تركها هذا الممرِّض لسبب ما. وقالوا إنّها تدين بدين أمّها المسيحيّة، وإنّ أباها وأمّها يذهبان إلى المسجد وإلى الكنيسة في آن، وهي مثلهما من دون شكّ. قال منّان يومها مستغربًا: وما العيب في ذلك؟!

وأنا قلت له بدوري: وما العيب في ذلك؟! ابتسم ولم يتوقّف عن الكلام.

قيل إنّها تكشف عن أجساد الرجال من دون حياء. ظلَّ منّان مصرًّا على موقفه حتّى تمَّ الزواج على النحو الذي يريده ويرضاه. ولم أكن قد جئت بعد إلى هذه الدنيا آنذاك.

وحين ولدتني أمّي وكبرتُ، تشرَّبتُ شيئًا من حسّ التسامح لديها وشيئًا من اهتمام أبي بالشأن العام، إنّما من دون إفراط ومن دون الذهاب إلى حدِّ المجابهة المباشرة مع سلطات الاحتلال».

قلت له: هذا واضح ولا يحتاج إلى دليل. صمت قليلًا وفكّر في ما قلتُه ليرى إنْ كان فيه شيء من اللوم والتقريع، ثمّ ارتسمت على شفتيه ابتسامة في منتهى البراءة والجمال.

ابتسمتُ وابتسمَتْ ليلى، وكانت عتمةُ المساء تزحف ببطء على

المساجد والكنائس والبيوت والأسواق، وعلى المدينة بأكملها وعلى كلّ البلاد.

وكان لا بدّ من أن نفترق ولو إلى حين.

***

ثمّ حان موعد قدومها إلى بيتنا. اعتبرتُ ذلك اليوم من أبهى أيّام حياتي.

وجَّهتْ أمِّي إلى ليلى دعوة قبلتْها بسرور، وأنا فرحتُ ورحَّبت بها واعتبرتُ مبادرة أمِّي فأْلًا حسنًا يبشّرِ بآفاق واعدة.

قلت لها على سبيل المزاح:

– تعالي أنت وشقيقك مصطفى ومعه مسدّسه.

ابتسمتْ ولم تقل أيّ كلام.

حدَّدنا معًا موعدًا لذلك، ورحتُ أرتِّب للزيارة المشتهاة، كانت غيوم بيضاء في السماء تتحرّك على رِسْلها بنعومة وبطء كأنّها تشاركني فرحتي.

أحضرتُها في سيّارتي من على رصيف الشارع بالقرب من باب الخليل. كانت منفعلة متوتّرة، وكنت أقدِّر ما ينتابها من مشاعر وهي تزور بيت حبيبها للمرَّة الأولى. البيت الذي سيحتضنها في المستقبل القريب، كما أتمنّى، زوجة وحبيبة وصديقة.

استقبلتْها أمِّي بمودّة وترحاب، وكذلك أبي وشقيقتي لمياء. كان الوقت عصرًا والطقس ربيعيًّا، وكان بيتنا منوّرًا وهي تتخطَّر فيه من غرفة إلى أخرى. كانت تتصرَّف بدلال وهي تقف عند هذه النافذة أو تلك لتنظر نحو الخارج، وترى الخضرة التي تمتدُّ بين البيوت وتنتشر على سفوح الجبال!

كانت أمِّي وأبي قد أعدَّا وجبة سمك مع أنواع من المعجّنات. قالت أمّي بأسلوبها المحبَّب في الكلام:

– هذه وجبة طعام، لا هي غداء ولا هي عشاء، وهي بيْنَ بيْن.

ابتسمتْ ليلى وجلست إلى المائدة وجلسنا معها. كنت أشعر بأنّها منّا وفينا، وربّما كان هذا هو شعور أمِّي وأبي وشقيقتي. وكنتُ على ثقة من أنّ ليلى تعتبر نفسها منذ دخلتْ بيتنا واحدة من أهل هذا البيت.

قال أبي بمودّة وتلقائيّة:

– زارتنا البركة.

قالت شقيقتي لمياء:

– أهلًا بكِ في بيتنا.

بدت ليلى مسرورة لهذا الاحتفاء الصادق بها.

بعد الوجبة، أخذتُها إلى الشقَّة الخاصَّة بي، الملاصقة لبيت أهلي، التي أصبحتْ جاهزة للسكن قبل أسابيع (عشتُ أنا ونفيسة، في بيت أهلي الذين خصّصوا لنا غرفة فيه، لكنها لم ترضَ بذلك). تأمَّلتْ صالة الضيوف والمطبخ والحمَّام وغرفة النوم، تأمَّلتْ خزانة ملابسي، فتحتْها من دون حرج، هزَّتْ رأسها بإعجاب وقالت إنّني أجيد ترتيب الملابس. اقتربتْ من سريري، استلقتْ عليه وقالت بدلال:

– اذهبْ إلى بيت أهلك، أريد أن آخذ غفوة في سريرنا.

ثمّ أطلقتْ ضحكة عذبة ونهضت، وكنتُ معجبًا بهذه العفويَّة الصادرة من قلب مفعم بالحبِّ.

توقَّفتْ عند مكتبي وكتبي، وعند الحاسوب الجاثم فوق المكتب، نظرتْ إلى الأوراق التي أدوِّن عليها مسوَّدات روايتي، شعرتُ باعتزاز لأنّ ليلى تأكَّدت من أنّني كاتب، ولستُ مجرَّد سائق سيّارة أجرة.

ولم يدفعها الفضول إلى قراءة أيٍّ من سطور الرواية، ربّما لأنّها لم تكتمل بعد. نظرتْ إليَّ وقالت بدهشة وإعجاب:

– أنت كاتب!

احتشدتْ في صدري انفعالات عارمة، ولم أتلفَّظ بأيّ كلام، فالمشهد يتحدَّث عن نفسه، وكنتُ كمن نال شهادة لا زيف فيها ولا التباس تؤكِّد الرغبة التي لطالما اشتهتها نفسي: أنْ أكون كاتبًا.

هذا اليوم، جاءتني الشهادة من إنسانة تملأ عليَّ حياتي.

خطَتْ ليلى خطوات قليلة، تركتني نهبًا لانفعالاتي، أو ربّما لم تستطع متابعة المشهد لما فيه من احتشاد. خرجتْ إلى الشرفة وخرجتُ في أثرها، نظرتْ نحو البعيد وبكت.

ربّما بكت من فرح، وربّما بكت من أسى وأحزان.

***

عصرَ اليوم التالي، التقينا في سوق أفتيموس، وكنّا بين الحين والآخر نلقي نظرة على كنيسة الفادي المخلِّص، لعلّنا نستمدّ منها أملًا أو خلاصًا. قالت ونحن نتمشَّى من دون استعجال:

– أنهضُ من النوم في بعض الأحيان فلا أستشعر أيّ بهجة أو أيّ جمال.

صمتتْ لحظات لترصد ردَّ فعلي على كلامها، فلم أشأ أن أقاطعها. قدَّرتُ أن هذا البوح ضروريّ لكي تتخفَّف ممّا يزعجها.

واصلتْ كلامها:

– لا يغريني ضوء النهار، ولا تغريني خضرة الأشجار وروائح الورود، ولا مشي البنات والأولاد إلى المدارس، ولا تغريد العصافير، ولا وعود الحبّ وما يسفر عنها من بهجة وآمال. لا تغريني ملذَّات الحياة، أتشهَّى الموت لأنَّني لا أرى إلّا سوادًا من حولي يتلوه سواد. أقول لنفسي: إنْ لم يأتني الموت لكي يريحني من هذا العذاب، فسأضع أنا بيدي حدًّا للعذاب، وسأجرّ الموت من أذنه مثل أرنب، وأطلب منه أن يقبض روحي لكي أرتاح، أو أقبضها أنا وأسلِّمها إليه، ثمّ أركله بقدمي وأقول له: امشِ واذهبْ بها إلى حيث تشاء.

قالت إنّها تشعر باشمئزاز حين ترى شقيقها مصطفى وهو يخرج مسدَّسه من المخبأ السريّ، يتأمَّله بشهوة جامحة، ينظِّفه ويستعرض من خلاله ذكورته، يصوّبه نحو خصم وهميّ، أو ينظر نحوها ليبلّغها رسالة ما، ثمّ يعيده إلى مكانه المموَّه بإتقان.

قالت:

– أرغب في الموت بأيّ وسيلة إلّا بمسدَّس شقيقي.
وقالت:
– حين تدهمني هذه الفكرة السوداء أكون وحيدة على نحو مريع.
تألّمتُ لألمها، ثمّ تأمَّلتُ ثقل الحالة التي تستحوذ على مشاعرها، وأدركتُ أنّها ليست طليقة كما أتوهَّم، أو كما أحبُّ أن أوهم نفسي.
هدأتْ قليلًا، ثمّ سألتني:
– من يضمن لي أن تستمرَّ عواطفك تجاهي كما هي الآن؟
رددت عليها بسؤال:
– ومن يضمن لي أن تستمرَّ عواطفك تجاهي؟
قالت:
– النساء أكثر وفاء من الرجال.
– هل تشكِّين في وفائي؟
– لا أشكُّ، لكنّك كاتب معنيّ بكتابة الروايات، وقد تفترُ مشاعرك تجاهي، قد تنصرف إلى الكتابة وتتركني وحدي. هناك أمثلة على كتَّاب تفرَّغوا للكتابة وأهملوا زوجاتهم وتركوا لهنّ الاهتمام بالأطفال، هل قرأت «حليب أسود» للتركيّة أليف شافاك؟
مسَّدتُ ظاهر كفِّها برفق، وقلت:
– نعم، قرأتها وتابعت ما كتبته شفاك عن سلوك بعض الكتّاب تجاه زوجاتهم. لكن، يا ليلى، أين أنا من هؤلاء الكتَّاب؟! أنا ما زلت في بداية المشوار، وأنا أكتب بوحي من حبّي لك.
قالت متشكِّكة في كلامي:
– أخبرْتَني حين تعارفنا أنّك تكتب رواية، فكيف تكتب بوحي من حبّك لي؟!
– مزَّقتُ كلَّ ما كنتُ كتبتُه وأعدتُ الكتابة، حتّى أنّني جعلت بطلة الرواية تحمل اسمك.
تأمَّلتْ وجهي، ونظرتْ في عينيّ، كانت مشاعر حبّ غامرة تتبدَّى في عينيها، ابتهجتُ لمشاعرها الصادقة وللتحوّل الذي طرأ على مزاجها،

وكان الوقت يدهمنا، والبنايات المحيطة بفضاء السوق راحت تحجب أشعَّة الشمس عنّا، وتنشر فوقنا ظلالها، وأسواق المدينة تتناقص فيها حركة الناس، بينما تنتصب كنيسة الفادي هناك، صامتة في فضاء السوق.

وبرغم ما كنّا نشعر به من انسجام، كان ثمّة فراغ لا نستطيع، أنا وليلى، صدّه أو ردّه، أو قد نستطيع، فمن يدري؟!

13

نعم، كان ثمّة فراغ، وثمّة موت.

مات جيل الأمّهات والآباء وتركوا وراءهم فراغًا غير قليل. ماتوا كلّهم تقريبًا، ولم يبقَ منهم إلّا ما دوَّنتُه عنهم بجهودي وأنا أكتب سيرة العائلة، منوِّهًا بما اتسم به رجال منها ونساء، من مزايا وسمات.

مات أبي منّان وهو يتوقَّع أن أجمع شتات العائلة. مات عمِّي عبّاس في بيته بمدينة القدس، مات في السنة الثانية لانتفاضة الحجارة التي اندلعت في العام 1987. مات أيضًا عدد غير قليل من أبناء جيلي، بعضهم قبل سنة، وبعضهم الآخر قبل سنوات.

حين كنتُ أبدي مخاوفي من الموت وأقول لسناء إنّ دوري اقترب، ورحلتي هذه أوشكت على الانتهاء، كانت تزجرني وتقول إنّني ما زلتُ قويّ البنية، وسوف أعيش حتّى أبلغ من العمر مئة وعشرين سنة. عندما كنت أجادلها في الأمر وأذكِّرها بما كانت تقوله جدَّاتنا: اللهمّ أمِتْني وغبار الطريق على قدميّ، وأقول لها: «هل يروقك أن أموت وأنا عاجز عن الحركة؟!»، و«أتمنَّى أن أموت قبل أن أرتمي كتلة هامدة في الفراش»، كانت تنهاني عن الاستسلام للمخاوف، تفرك جبيني وتقول: بالله عليك يا محمّد، لا تذكرِ الموت، دعنا نعش حياتنا من دون منغِّصات.

وكنت أتجاهل الموت، ذلك الثابت في حياة البشر، ولا أذكره. أكتفي بتذكُّر من كانوا هنا من الأجداد والآباء ثمّ مضوا، ومن كنّ هنا من الجدَّات والأمّهات ثمّ مضين.

وكنت أشعر بالغربة حين أدركُ أنّني لا أعرف إلّا عددًا قليلًا من أبناء الجيل الجديد، الذين يتكاثرون مثل الفطر بعد مطر الربيع، فلا يكاد يمرّ شهرٌ من دون أن نذهب، أنا وسناء، إلى بيت أحد الأقارب للمباركة بمولود، ولا يكاد يمرّ أسبوع من دون أن نذهب إلى زفاف عريس من العائلة أو عروس.

كنّا نذهبُ إلى قاعة العرس، وهناك نتفرَّق: أنا إلى قاعة الرجال وسناء إلى قاعة النساء. الرجال يجلسون صامتين أو ربّما تدور بينهم أحاديث متناثرة، والنساء يرقصن على أنغام مسجِّل يبثُّ أغاني خفيفة:

ادَّلَّع يا عريس يا بو لاسه نايلون
ادَّلَّع يا عريس وعروستك نايلون

وفي بعض الأحيان تُبثُّ أغانٍ شعبيَّة جميلة:

يا زارعين الورد، خلّي الورد على إمّو
وللي يهوى وما يوخذ لخلّي القرد يزمّو

أو أغانٍ وطنيَّة عن فلسطين وعن التضحية والفداء:

دقُّوا الحجر بكفّ الزين، وإنتو يا نشامى منين؟
إحنا من قدس الثورة، بنعلّي الراية الحرَّة

في أحيان أخرى، كنّا نذهب، أنا وسناء، إلى عرس يقيمه معارف لنا وأصدقاء على قدر من التحرّر والانفتاح. نجلس في قاعة غاصّة بالموائد التي يلتفّ حولها رجال ونساء بلا تحفّظ أو تمييز. يروقني أن أستمع إلى الغناء، ولو من النوع الخفيف، في حضور النساء، لأن ذلك يضفي عليه متعة، ويروقني أن أرى رقصهنّ على أنغام الموسيقى والغناء، فأشعر ببعض عزاء بأنّ حركة الحياة تمضي إلى الأمام على هذا النحو أو ذاك.

ولم يكن نادرًا أن نذهب، أنا وسناء، إلى عزاء بشهيد، وما أكثرَ الشهداء في فلسطين! وهم في الأغلب الأعمّ من جيل الشباب، الجيل

الذي أخفقت كلّ محاولات المحتلّين الإسرائيليّين في حرفه عن المسار الوطنيّ الصحيح، فالنزعة الوطنيّة للغالبيّة العظمى من أبناء هذا الجيل تتجدّد وتتأكّد باستمرار، على عكس مواقفهم من القضايا الاجتماعيّة التي ما زالت تحكمها الاعتبارات العائليّة والعشائريّة المتزمّتة، وبخاصّة حين يتعلّق الأمر بالنساء وبالعلاقة معهن.

دخلتُ قاعة الرجال حيث يتقبَّل أهل الشهيد، الذي حضرنا حفل زفافه قبل سنة أو عدة أشهر، العزاء فيه بعد أن قتله الجنود أو المستوطنون، وسناء إلى قاعة النساء، وصور الشهيد تملأ جدران الحيّ وتنتشر قريبًا من خيمة العزاء، والناس محزونون على فراقه، واحرَّ قلباه!

كأنّه ظلٌّ آخر

«الرغبة ليست ما تراه بل ما تتخيّله.»

باولو كويلو

ضاقتْ عليّ بلادُ الله ما رحبتْ / يا لَلرجالِ فَهلْ في الأرضِ مُضْطرَبُ

(المجنون)

1

جاءت ماريا زخاروفا ومعها زوجها إلى فلسطين لقضاء أربعة أسابيع في راس النبع. لم أقم بدعوتها ولاء منّي لحكّام روسيا أو إعجابًا بهم، إنّما هو انجذاب خاصٌّ إلى هذه المرأة، لما لديها من مزايا وسمات. استضفناها وزوجها في بيتنا ثلاثة أيّام، ثمّ خصّصنا لهما البيت الذي كان يسكنه والدي منّان وأمِّي وضحا للإقامة فيه.

كانا قادميْن للاستمتاع بطقس الصيف في بلادنا، وبالشمس التي يفتقدانها في بلادهما معظم أيّام السنة. أقمنا لهما حفل عشاء، وفي الأثناء جئنا على ذكر بوتين الذي كان مسؤولًا في المخابرات السوفياتيَّة، وعضوًا في الحزب الشيوعيّ، ثمّ أصبح رئيسًا لروسيا في العهد الجديد، عهد الدولة الرأسماليّة، وعجبتُ من تحوّله على هذا النحو من النقيض إلى النقيض، عجبت من افتتانه بقوّته البدنيّة وتبختره كلّما مشى، كما لو أنّه ذاهب إلى حلبةٍ للمصارعة، وكدتُ أقول إنّني لا أطيقه بسبب نزعته الفرديّة وتسلّطه، ثمّ تراجعت عن ذلك كيلا تغضب منّي الضيفة وزوجها.

جئنا على ذكر الرئيس الأمريكيّ ترامب، المتشامخ بمعطفه الأسود الطويل وبدلاته غالية الأثمان وربطات عنقه صاخبة الألوان، المتباهي بالقرارات التي يتخذها، بإغماض عينيه وزمِّ شفتيه أمام كاميرات المصوّرين، وهو الذي عزف على وتر الشعبويَّة، وخاطب المشاعر لا العقول أثناء حملته الانتخابيَّة، فانتخبه قسم غير قليل من الشعب الأمريكيّ. قلتُ إنّ الفيلسوفة اليهوديّة «حنّة أرندت» كانت ترى «أنّ

الفاشيّة قد تقدَّمتْ ونمتْ على أيدي الناس العاديّين حاملي النوايا الحسنة».

تطرَّقنا في حديثنا إلى اليمينيَّة المتطرِّفة مارين لوبان، زعيمة الجبهة الوطنيَّة في فرنسا، التي قد تصل إلى رئاسة الجمهورية في أحد المواسم الانتخابيّة المقبلة، إلّا إذا حالت حكمة الفرنسيّين، أحفاد روسّو ومونتيسكيو وديدرو وفولتير دون ذلك. تطرَّقنا إلى المتطرِّفين الصهاينة، بدءًا من جابوتنسكي مرورًا بمناحيم بيغن وأريئيل شارون وانتهاء ببنيامين نتنياهو ونفتالي بينيت. قلت: «إذا جمعنا المذابح التي تسبّب بها هؤلاء المتطرّفون الصهاينة ضدّ الشعب الفلسطينيّ وشعوب البلدان العربيّة خلال الأعوام المئة الأخيرة، فلن تقلّ في مجموعها وفي فداحتها عن الكارثة التي تعرّض لها اليهود على أيدي النازيّين».

تحدَّثنا عن ظاهرة التطرُّف الديني وما يرتكبه المتطرِّفون المتأسلمون من جرائم ضدّ المدنيّين، هذه الظاهرة التي تمثّل ردّ الفعل المشوَّه على أنظمة الاستبداد الحاكمة في كثير من البلدان العربيَّة والإسلاميَّة، وعلى توحّش النظام الرأسماليّ وإشاعته الخراب في العالم الثالث.

بدا أنّ ماريا زخاروفا لا تتَّفق معي في كلّ ما قلته، وهذا من وجهة نظري طبيعيّ، ولا يستدعي أيّ إشكال. ثمّ إنّها، كما يبدو، تعبتْ من حديث السياسة ولم تعد قادرة على السهر. أدركتُ ذلك حين ذبلت عيناها، وارتخى جسدها في المقعد وتهدّل شعرها الذهبيّ على جبينها. نهضتْ هي وزوجها إلى غرفة نومهما، وخلدنا أنا وسناء إلى النوم.

***

في ضحى اليوم الرابع، رأيتُها وهي تنشر غسيلها على حبل غسيلنا.

قلت لنفسي: سيكون لنساء العائلة كلام مهموس حين يجتمعن وهنّ يعلّقن على ماريا زخاروفا وغسيلها بعد ليلة يتوقَّعن بعض تفاصيلها

الحميمة. سيتبادلن النظرات ويواصلن الكلام على الضيفة الشقراء التي أنعش طقسُ بلادنا مشاعرَها.

أثناء ذلك، وأنا أجترُّ خواطري، جاء القنفذ وهو يحمل إلينا ثلاثة أرطال من اللحم، أخذتُها منه ونقدتُه ثمنها، وحين رأى ماريا وغسيلها، راح يتأمّل المشهد بفضول، ثمّ غضّ النظر وتململ قليلًا في وقفته وبدا كما لو أنّه سيدلي بشهادة حول سلوكه القويم، ثمّ تراجع عن ذلك ومضى مبتعدًا، وأكاد أجزمُ أنّ نظراته الحادّة بقيت تحوم في المكان، أو هذا ما اعتقدتُه.

ثمّ أمضيتُ وقتًا وأنا أفكّر في مصائر الناس، القريبين منهم والبعيدين.

2

وكنّا التقينا في مكتبة المدينة قُبيل الغروب.

حدَّق فينا موظَّف المكتبة بعينين فضوليّتين، كانت له عينان جاحظتان ربّما من كثرة التحديق في روّاد المكتبة، وربّما بالوراثة المفترضة من جينات أمّه وأبيه. لم نعره اهتمامًا. كان في القاعة بنات وأولاد يجلسون حول الطاولات، يقلِّبون صفحات الكتب وينسخون منها بعض فقرات.

تقدَّمنا نحو طاولة في الزاوية البعيدة وجلسنا على كرسيّين من خشب صقيل. فتحتُ رواية «أفراح القبّة» لنجيب محفوظ، وقرأتُ صفحتين أو ثلاث صفحات من أوَّل الكتاب. فتحتْ ليلى كتاب «البحث عن وليد مسعود» لجبرا إبراهيم جبرا، وقرأتْ صفحتين أو ثلاث صفحات من منتصف الكتاب. كنت ألقي نظرة بين الحين والآخر على يديها الرشيقتين القابضتين على الكتاب، وعلى أصابعها التي تقلِّب الصفحات، ثمّ رحنا نتبادل الهمس، وكانت ليلى مهمومة البال.

قالت:

– يحاصرني أشقَّائي وأبي، ولا أجد عزائي إلّا في أمِّي وشقيقتي.

وأضافت:

– يشكّون بوجود رجل في حياتي، ويسألونني باستياء: قولي لنا، من هو هذا الرجل؟ ويقول شقيقي مصطفى باستهزاء: ربّما كان سائق سيّارة الأجرة إياه هو من يشغل قلبك.

قالت:

– يكثرون من طرح الأسئلة ومن تحذيري من مغبّة أيّ سلوك يمسّ بسمعتهم، وأنا أصدّهم من دون انكسار وأقول: أنا لستُ متّهمة.

أكبرتُ فيها موقفها الصريح وعدم خضوعها للضغوط، ضغطتُ على يدها بإعجاب، وتبادلنا نظرات فيها شوق، واكتفيتُ بذلك ولم أبح بأيّ كلام.

كان في عينيها تصميم، وكان هذا التصميم يزيدهما جمالًا وبهاء.

قالت:

– بي رغبة في الصراخ، هذا الهمس يزيدني توتُّرًا ومعاناة. هيّا بنا نخرج إلى الهواء الطلق.

استعرْنا الكتابين وغادرنا المكتبة. تنفَّستْ ليلى بعمق، وعبَّتْ من الهواء بكلّ ما تستطيع من قوَّة وقالت بارتياح:

– ما أروعَ الفضاء الفسيح!

تنفَّستُ مثلها الصعداء، وتذكّرنا أنّ فضاء مدينتنا يضيق علينا يومًا بعد يوم، ثمّ أقصينا على الفور ما تذكّرناه، ورحنا نتمشَّى في الساحة المجاورة لمبنى المكتبة. كان أولاد وبنات، ربّما من طلاب الجامعة أو من طلاب الثانويَّات، يجلسون على أطراف الساحة ويتبادلون كلامًا حميمًا تبدو آثاره على ملامحهم البريئة. كان المشهد الذي يتشكَّل في المكان أمام عيوننا جديرًا بالانتباه، كأنّه واقع خارج زمان المدينة المبتلاة بكلّ ما في ترسانة المحتلّين من قيود، وبكلّ ما يثقل كاهل الناس في مجتمعنا من محافظة وجمود.

***

بعد خمسة أيّام، اتّجهتُ إلى المقهى، وكان ميدان عمر بن الخطّاب غاصًّا بمستوطنين بلحى طويلة، وبنساء بأزياء مختلفة متنوّعة، وبأعداد من السائحين والسائحات، ولم تكن المدينة تعيش حالة انسجام، ثمَّة جنود يتجوّلون كالعادة في المكان. وكنت أعجب كيف أنّني ولدت في مدينة محتلَّة، وما زلت أحيا تحت الاحتلال، ولا أدري متى يمكن المدينة أن تعيش لحظة الخلاص؟! قلت لنفسي: ليلى تشاركني هذا البلاء،

وزميلي رهوان كذلك، وقلت: نحن جيل زمن الاحتلال. ثمّ تمنَّيت لو كان لديَّ وقت لكتابة بحث أستخلصُ فيه ملامح هذا الجيل، وأشرح للقرّاء ما تركه الاحتلال عليه من بصمات. وكنت أتساءل في بعض الأحيان عمّا تفعله السلطة الفلسطينيّة للقدس. يقول العارفون بأمور السياسة إنّ للقدس اثنتين وعشرين مرجعيّة سياسيّة وحقوقيّة، تعمل كلّها من أجل القدس، ولخدمة سكّانها وصيانة مقدّساتها الإسلاميّة والمسيحيّة، وللعناية بشؤون أهلها الذين تُهدم بيوتهم، ويُقتل أبناؤهم أو يُعتقلون، وتُستنزف مداخيلهم جرّاء الضرائب الباهظة التي يفرضها عليهم المحتلّون. وللأسف، فإنّ أوضاع القدس تتدهور من سيّئ إلى أسوأ، وجهود المرجعيّات لا تظهر آثارها للعيان إلّا على نحو محدود.

وصلتُ المقهى، ووجدتُ بابه مغلقًا. كان إميل يقف مع زوجته مريم وطفلتهما ماري والنادلة سوسن على الرصيف. كان وجهه مكفهرًّا ومشاعره مستفزَّة، وكانت مريم صامتة وعلى وجهها أسى، والطفلة تبدو ساهمة الوجه لا تدري ما الذي حلَّ بالمقهى، فلا تتاح لها فرصة لدخوله ولممارسة هوايتها في اللعب بين الطاولات.

فوجئتُ بالمشهد.

قال إميل:

– تلقَّيتُ إنذارًا ثالثًا، ولم أجد بدًّا من إغلاق مقهاي.

قال:

– سأحوّله إلى متجر لبيع أدوات الكهرباء.

أضاف ساخرًا:

– أرجو ألّا يظهر في هذه المدينة من يحرّم الكهرباء.

ابتسمتُ بمرارة وأسى. جاءت ليلى بعد دقائق وهي ترتدي جلبابها الأسود ومنديلها الرماديّ. اعتقدتُ للوهلة الأولى أنّها عرفت بما آلَ إليه مصير المقهى، ولهذا جاءت في ملابسَ بهذا القتام. اقتربتْ منّا وسلّمتْ علينا، داعبتْ شعر ماري وحملتها بين ذراعيها ووقفتْ إلى جواري. وحين

رأت باب المقهى مغلقًا استبدَّ بها الفضول. رويتُ لها ما جرى، غامت عيناها وتبدّلت ملامح وجهها وظلّت صامتة مثل تمثال.

في الأثناء، جاء عدد من السائحين والسائحات. وقفوا حائرين أمام المقهى. أدركوا أنّ ثمَّة أمرًا ما قد حدث، فلم يطيلوا المكوث معنا.

مرّتْ بنا دوريّة راجلة للجنود، حدّقوا فينا ونحن متجمهرون على الرصيف، كانوا على وشك أن يطلبوا منّا الانصراف، إلّا أنّهم غيّروا رأيهم في اللحظة الأخيرة لسبب ما. ثرثرنا قليلًا، ثمّ خيَّم علينا صمت. قال إميل:

– لننصرفْ من هنا.

قالت مريم:

– لننصرفْ، فهذا أفضل لأعصابنا.

قالت ليلى بعد أن أنزلت ماري من حضنها، في مجاملة لإميل ومريم وتجاوبًا منها مع كلامهما: – نعم لننصرفْ.

ركضت ماري نحو باب المقهى وهي تقول:

– لا، لا، لن ننصرف.

ثمّ راحت تقرع باب المقهى لعلّه ينفتح. اقتربت منها أمّها وسحبتها من يدها وهي تمسّد شعرها. بكت ماري وأمعنت في البكاء، سالت الدموع من عينيْ ليلى، وتكهربَ الموقف على نحو مثير للأسى.

وقبل أن نستدير ونبتعد رأيت العمّ محمّد الأصغر يسير نحو المقهى المغلق وفي يده دفتره السميك، وإلى جواره تمشي زوجته سناء.

همستُ في أذن ليلى:

– جاء العم (أكاد أجزم).

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خافتة. حدَّقنا فيهما بفضول وهما يقتربان منّا. كانت لنا لحظات مثيرة، اختلط فيها الحلم بالواقع، والواقع بالحلم. وكانت سناء تحدِّق في ليلى بإعجاب.

بعد أن شرح لهما إميل ما جرى لمقهاه، أدلى العمّ محمّد بتعليق مختصر وقال:

– أكادُ أجزمُ أنّنا ذاهبون إلى كارثة إنْ بقينا على هذه الحال.

هزّت سناء رأسها وقالت:

– أكيد، أكيد.

ولم ينبس أحد منّا بعد ذلك بكلمة، تفرَّقنا، ولم تذهب ليلى من طريق وأنا من طريق. مشينا معًا من دون اكتراث لأحد. أمضينا وقتًا غير قليل ونحن نتمشَّى في المدينة. كان يخيّم على المدينة غباش وغموض.

3

وكان قيس منّان أرسل إليّ رسالة عبر بريدي الإلكترونيّ يستشيرني في القرار الذي يمكن أن تتَّخذه بطلة الرواية ليلى إذا لم يوافق أهلها على خطبتها وزواجها ببطل الرواية قيس. أكبرتُ فيه هذا التواضع والرغبة في طلب المشورة، وعدم التسرُّع في إصدار الأحكام، حدَّثتُ سناء عن تواضعه فأبدتْ إعجابها به.

قال إنّه استشار المؤلّف «ع» فلم يرشده إلى موقف ملموس. نصحه بكلام غامض: دَعْها تتصرَّف وفق ما يمليه عليها قلبها. دَعْها تتَّخذْ قرارها من دون تدخّل منك، وبما ينسجم مع منطق تفكيرها.

طيّبْ، آمنّا وسلّمنا بما تقترحه يا سيّد «ع»، ولكنْ ما هو هذا الموقف الذي يمليه عليها قلبها؟! وما هو القرار؟!

كتبت لقيس: «أنا أستغربُ كيف تطلب النصح من «ع» وهو الذي سطا على جهودي! وقد يسطو على جهدك».

كتبت له: «تجنَّبْ طلب النصح منه ولا تعتمد على أحد سواي».

وكنت في تلك اللحظة كما لو أنّني أخاطب نفسي وأحاورها وأمحضُها النصيحة بإخلاص.

نصحتُه بألّا يلجأ إلى المواقف التي لطالما صوَّرتها الأفلام المصريّة حدّ التخمة، حيثُ الفتاة المحبّة التي يرفض أهلها تزويجها بمن تحبّ، تغافلهم في الليل، تحمل صرّة ثيابها وتقفز من نافذة غرفتها لتهرب مع حبيبها. ذكرتُ له ما فعلَتْه فَلْحة، إحدى بنات عائلتنا، التي هربت مع

حبيبها نعمان. كتبت له: «ربّما كان هذا الموقف مقنعًا في ثلاثينيّات القرن العشرين، لكنّه لم يعد مقنعًا هذه الأيّام». نصحته بألّا يجعل بطلة روايته تُقدم على الانتحار بتجرُّع السمّ أو برمي جسدها في بئر الماء، أو بمغادرة بيت أهلها لتستجير بأحد الناس المعروفين، كما فعلت رسميّة، زوجة أخي فليحان، حين غادرت بيت أهلها في المخيَّم واستجارت بأحد شيوخ العشائر وبقيت في بيته إلى أن وافق أبوها على زواجها بفليحان.

نصحته بأن يهيّئ البطلة لمواجهة أهلها بالحقيقة، وبالإصرار على موقفها إلى أن يستجيبوا لها.

أرسل إليّ قيس رسالة ثانية مختصرة، قال فيها: الإصرار على موقفها، هذا جيِّد، لكن ألا يمكن أن يعرِّضها هذا لمصير فادح؟ القتل على يديّ شقيقها مثلًا، شقيقها الذي اقتنى مسدّسًا ليس لمقاومة المحتلِّين وإنّما لتصفية الخصوم، ولقتل ليلى إنِ اكتشف أنّها تحبُّ سائق سيَّارة أجرة وتلتقي به في أمكنة شتّى؟!

أرسلتُ إليه: «يا قيس، أهلها تجَّار يجيدون حساب الربح والخسارة، ولن يفكِّروا بهذا التصرُّف المشين، كن مطمئنًّا».

وأرسلتُ إليه: «في هذه المدينة وفي غيرها من مدن فلسطين وقراها ومخيّماتها، لا يسير الحبّ فوق أرض ممهّدة، إنّه محاصر بالشكوك والاتّهامات والنوايا السيّئة، وعليك احتمال ذلك إلى حين».

***

كنت في الأثناء أَعجب كيف تأقلمتْ ماريا زخاروفا سريعًا مع ظروف حياتنا.

بدت كما لو أنّها تعيش معنا منذ سنوات، كم هي بارعة هذه المرأة! وكم هي بالغة الذكاء!

تعلَّمتْ بعض المفردات من لغتنا. تعلَّمتها من زوجتي سناء ومن الممرِّضة زهور وابنتها لمياء.

صارت تنشر غسيلها ثلاث مرّات أو أربع مرّات في الأسبوع، هل هي شبقة إلى هذا الحدّ، أم إنّ طقس فلسطين المنعش يشجّع على

احتدام الشهوات؟! ما أثار غيرة الجارات، وجعلهنّ أكثر اهتمامًا بتتبّع كلّ أمر له علاقة بماريا، ماريا التي صارت تعجن الطحين في وعاء معدنيّ وهي تشاهد برامج التلفاز، أو وهي تدير حديثًا مع بعض نساء العائلة في المطبخ، ببعض مفردات من العربيَّة والروسيَّة، وباللغة الإنكليزيَّة التي تتقنها ضيفتنا، وببعض إشارات بالأيدي والعيون.

صارت تخبز العجين في فرن الغاز، وتطبخ لحمَ الضأن الذي يحضره القنفذ لها باللبن، يناولها اللحم ويتقاضى منها الثمن من دون أن يرفع عينيه عن الأرض، ومن دون أن يسترق النظر إلى جمالها الفتّان، لأنّه لا يوجد في هذا الحيّ من هو مثله في المحافظة على أعراض الناس، كما يقول كلّما جمعته سهرة مع بعض أبناء الحي.

ولا تنسى ماريا أن تشتم دوريَّات الجيش التي تجوب شوارع راس النبع بين الحين والآخر، وتعلن انزعاجها من طائرات المحتلّين التي تحلِّق على ارتفاع منخفض في سمائنا. تعلن رفضها كلّ هذه المظاهر التي تؤكّد أنّ الحياة هنا مكبَّلة بقيود، بعضها منظور وبعضها الآخر غير منظور، تحدِّق نحو السماء وتقول: لا، لا، لا.

وحين تدعوها سناء لكي تشرب القهوة هي وزوجها في بيتنا، تلبّي الدعوة بسرور. تشرب قهوتنا بتلذُّذ وهي ترنو عبر النافذة إلى البيوت وإلى الأشجار وإلى السماء الزرقاء التي لا تخلو من غيوم، ويدور بيننا حديث خفيف، يتمحور حول قضايا عابرة هنا وهناك. تشرب ماريا آخر رشفة من فنجانها، ثمّ تقول: شكرًا، شكرًا.

تنهض هي وزوجها ويغادراننا بهدوء.

وذات صباح، رأيناها تخرج من البيت وهي ترتدي ثوبًا فلسطينيًّا أسود مطرَّزًا بشتَّى الألوان، يُضفي على بياض وجهها ورقبتها واليدين والكاحلين جمالًا يُضاف إلى جمالها الذي حباها به خالق الجمال. قالت لنا:

– صباح الخير.

قلنا لها:

– صباح الخيرات.

كم كان بهيجًا ذلك الصباح، وماريا زخاروفا تتخطَّر بثوبها الفلسطينيّ مثل سروة سامقة في ساحة الدار! ثمّ تذهب هي وزوجها إلى كنيسة القيامة للصلاة، وإلى مركز المدينة للتسوّق.

كم أحبّت ماريا زخاروفا هذه المدينة التي لا يمكن من زارها مرّة أو أقام فيها أن ينساها، أو ينسى ما تشتمل عليه من عراقة وتاريخ!

***

في الليل جاؤوا.

دقّوا باب بيتنا بضراوة وإصرار، ضربوا الباب بأحذيتهم الثقيلة وصاحوا: افتح الباب، افتح الباب.

نهضنا، أنا وسناء، من نومنا مفزوعيْن. كانت سناء في قميص النوم، تدثّرت بروبها الزهريّ، وتدثّرتُ بعباءة رماديّة خفيفة وفتحتُ الباب. اقتحموا البيت مثل الثيران. قال الضابط: أنت محمّد الأصغر، مدوّن أخبار عائلة العبد اللات؟ قلت: نعم. قال: نريدك أن تدلّنا على بيت لمياء منّان العبد اللات، البنت التي تهدّد أمن إسرائيل. شعرتُ بالخوف على لمياء. قلت: لا أعرف بيتها. قال: أنت كذّاب. قلت: أنا لا أكذب. لكمني على خاصرتي، اعترضته سناء وقالت له: شُلّتْ يمينك التي تضرب زوجي. اقترب منها وهو ينوي صفعها على وجهها، ظلّت تحدّق فيه من دون ارتباك، استدار وغادر مع جنوده البيت. أغلقت سناء الباب ثمّ احتضنتني لتخفّف من أثر اللكمات عليّ.

نمنا ساعة أو بعض ساعة، وما لبثنا أن سمعنا دقّات مزعجة على الباب، نهضنا من نومنا وفتحنا الباب. كان أربعة من ذوي اللحى الطويلة يقفون أمامنا، قال كبيرهم: أين هي الكافرة ماريا زخاروفا؟ قلت: لا أعرف امرأة بهذا الاسم. قال: كذّاب. ثمّ قبض على ذراعي واقتادني إلى حيثُ تقيم ماريا وزوجها. اقتحموا البيت، ووجدوهما في الفراش. كانت تنام عارية، حدّقوا في جسدها الذي له لون الحليب. قيّدوا الزوج بحبل وجعلوه

يقف في ركن الغرفة وهو مرتبك مذعور، أمروها بأن تبقى مستلقية بكامل فتنتها في الفراش. اقتحموا جسدها واحدًا بعد الآخر وهم يطلقون التكبيرات، وأنا مصابٌ بالذهول. جاءت سناء، وحين رأت المشهد الفاضح قالت وهي تغضي حياء: لن ينزلوا عن بطنها إلّا بعد أن يحبّلوها، وفي الصباح، ستلد خمسة أطفال سيكبرون في يوم وليلة، وسيطول شعر لحاهم حتّى يصل أسفل بطونهم، ثمّ يمعنون في جزّ رقاب الناس، أشاحت بوجهها وانسحبتْ عائدة إلى بيتنا. غضبتُ وأطلقتُ صيحة لم تخرج من حلقي إلّا على نحو مكتوم، استيقظتُ من نومي وتلمّستُ جسد سناء. كانت تغطّ في نوم عميق. كدتُ أوقظها لكي أحدّثها عمّا شاهدتُ في المنام، ثمّ أقلعتُ عن ذلك، نهضتُ من السرير وسارعتُ إلى دفتري السميك، ورحتُ أدوّن فيه هذا الحلم المريع.

وحين حاولت النوم، لم أستطع، بقيتُ متأرّقًا حتّى الصباح.

4

وأنا افتقدتُ ليلى هذا الصباح.

هاتفها المحمول مغلق، حسابها على الـ«فايسبوك» لا جديد عليه ولا إضافات، وهذا الفضاء الإلكترونيّ متجهِّم صامت لا يبوح بأيّ كلام.

افتقدتُها وأصابني قلق، وصرتُ نهبًا للوساوس. لم أفكِّر بالذهاب إلى المدرسة التي تعمل فيها لكي أستفسر عنها، لأنّ المدرسة دخلت في عطلة الصيف، والصيف كما يبدو لا يبشّر بخير، أو ربّما كنت متشائمًا أكثر مما ينبغي، فلماذا والحالة هذه أظلم الصيف؟!

راقبتُ أسراب النساء الداخلات إلى باب العمود والخارجات منه، كنَّ مثل كواكب سيّارة مسربلة بغموض، كلّ كوكب منشغل بنفسه قائم بذاته منطلق في مداره الخاصّ به، ولم أشاهد ليلى في أيّ مدار. تساءلت: هل أصابها مكروه؟! هل وقع خلاف بينها وبين أهلها فآثرتِ الاعتكاف في البيت؟! هل قرّرتْ قطع علاقتها بي فأغلقتْ هاتفها وتوقَّفت عن الدخول إلى حسابها على الـ«فايسبوك» لكي تتجنَّب أيّ تماسٍّ معي؟! أرسلتُ إليها خلال الأيّام الثلاثة الماضية سبع رسائل عبر بريدها الإلكترونيّ وعلى الـ«واتس اب»، ولم أتلقَّ أيّ جواب.

ثلاثة أيّام من الحيرة الممضَّة، استعرضتُ فيها علاقة الحبِّ التي نشأت بيني وبينها، علاقة لم يزد عمرها حتّى هذه اللحظة عن بضعة شهور، لكنّها تساوي حياة تمتدُّ إلى مئة عام، مع أنّ لقاءاتنا التي كنّا نختطفها اختطافًا لم تزد عن مئة ساعة، حسبتها بالدقائق، وكنت على

قناعة بأنّني محظوظ بهذا الحبّ الذي هبط عليَّ من دون ميعاد، فهل أفقده الآن على نحو مفاجئ؟!

في اليوم الرابع هاتفتني وقالت إنّها في مستشفى «الإخاء» جرَّاء التهاب طارئ في القولون، طرتُ إلى المستشفى وقصدتُ القسم الذي وصفتْه لي. أطللتُ من باب الغرفة بحذر، كان أبوها وأمُّها وشقيقتها هناك. ابتعدتُ وبقيت أنتظر في آخر الممرِّ إلى أن غادروا غرفتها.

دخلتُ وأنا مشتاق إليها متلهِّف إلى رؤيتها. ابتسمتْ حين شاهدتني فوق رأسها. قبَّلتُ جبينها، وكان وجهها شاحبًا. قبضتُ على يدها وبقيتُ إلى جوارها نصف ساعة، ثمّ خرجت خوفًا من زائر لا يروقه أن يراني بالقرب من سريرها.

كنتُ آنذاك، وبسبب الانفعالات التي اضطرمت في صدري، أتقمّص شخصيّة المجنون قيس بن الملوّح، تأكّدتُ من ذلك وقلبي يجيش بأبهى المشاعر، المشاعر التي ستجعلني قادرًا على مواصلة الكتابة، وعلى وصف ليلى مثلما يليق بها، ليلى التي اعتقدتُ وأنا أغادر غرفتها في المستشفى أنّها كانت في تلك اللحظات تتقمّص شخصيّة ليلى العامريّة، وتتذكّر مثلما أتذكّر ما قاله قيس في حبيبته:

يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ / فيا ليتني كنتُ الطبيبَ المُداويا
تمرُّ الليالي والشهورُ ولا أرى / غرامي لها يزدادُ إلّا تَماديا

***

عدتُ إلى باب العمود، وكانت ليلى حاضرة في قلبي ووجداني، وفي الأثناء جاء رهوان وقال من دون مقدّمات:

– يا سادة يا كرام، انكشف السرّ وبان. هاتفتُ فريال ولم أتلقَّ أيّ جواب. عجبتُ للأمر، وذهبتُ إلى بيتها. طرقت الباب. انتظرتُ خمس دقائق من دون جواب. قلت: ربّما كانت تغتسل في الحمّام.

انتظرتُ وطرقت الباب من جديد، ولكن من دون جدوى.

ابتعدتُ، وتذكّرتُ آخر مرّة بكت فيها فريال، وكنت انقطعتُ عنها فترة غير قصيرة.

بعد ذلك بساعة واحدة، التقيتُ سميرة بصدفة غير متوقَّعة. ركبتْ في السيَّارة إلى جواري، وقالت: فريال عادت إلى أهلها في القرية البعيدة.

ثمّ أخبرتني أنّ أحد المنتسبين إلى المقاومة أطلقَ الرصاص من مسدّس على زوجها وأصابه بجراح لكنّه لم يمت. زوجها جاسوس، هرب من قريته قبل سنوات حين تعرَّض لمحاولة اغتيال، واختفى في هذا البيت المتاخم للمستوطنة. قبل إطلاق النار عليه في المرَّة الأخيرة، شعر بأنّه مهدَّد، ربّما اكتشفه أحد معارفه في مكانه هذا، فأدرك أنّه في خطر. عرض على فريال الهرب معه إلى تلّ أبيب، إلّا أنّها رفضت الانصياع لرغبته. ظلَّ يحاول إقناعها وظلَّت هي مستمرّة في الرفض، وقع بينهما خلاف. وقبل أن يتمكَّن من الهرب حدثت المحاولة الأخيرة لقتله.

طاف رهوان بعينيه على وجوهنا ليرى ردّ فعلنا على كلامه، وقال:

– ذهلتُ ممّا سمعت، وكنتُ صدَّقتُ فريال حين أخفتْ عنّي حقيقة زوجها. كذبت الكذبة وصاغتها بإتقان. وبالطبع، ما كانت لتخبرني بحقيقة زوجها المقزّزة.

قلتُ له بما يشبه التشفِّي:

– ألم أقل لك يا رهوان؟!

نظر إليّ نظرة غريبة، أو هذا ما اعتقدته، وقال بلهجة مواربة:

– نعم، قلتَ لي يا قيس.

حلّت علينا لحظات صمت، ثمّ قلت لنفسي إنه لا يصدّقني ولا يثق بكلامي.

وقلت مقلّدًا العمّ محمّد الأصغر: أكادُ أجزم بذلك.

5

أنا أشعر بالأسى لأنّ أحدًا لم يعد يثق بأحد، تشاركني في هذا الرأي زوجتي سناء، وهو الرأي الذي ينطبق إلى حدّ كبير على أخي فليحان وأبنائه وأحفاده.

فليحان كان متفتِّح الذهن في ما مضى، بتأثير تجاربه في الحياة، وربّما بتأثير الكتب التي كنت أزوّده بها، غيرَ أنّه حين بلغَ أرذل العمر تحوَّل إلى كائن آخر بادي القسوة شديد النزق كارهٍ للناس، ولا أستبعد أنّه هو الذي حرَّض أبناءه وأحفاده على الاشتباك مع أخي «ع»، معتبرين أنّه أساء إلى سمعة جدّتهم مثيلة، أمّ فليحان، حين وجَّه إليها تهمة مخلَّة بالشرف وهي في مقتبل العمر، ولم يكن مضى على زواج والدي منّان بها سوى أشهر معدودات. اتّهمها «ع» بأنّها رضخت لإغواء الفتَّاح الدجَّال حميد، الذي عبث بجسدها واستسلمت لنزوته، وربّما كانت ابنتها فلحة ابنة للفتاح وليس لأبينا منّان.

ومن حسن حظّي أنّ هؤلاء الأبناء والأحفاد لم يلقوا بالًا إلى اتِّهامي أخي «ع» بأنّه سرق جهودي وادَّعى أنّه هو الذي كتب عن عائلة العبد اللات، فهم يطالبونه الآن بردِّ الاعتبار لجدّتهم التي ماتت قبل عشرين سنة، وبدفع غرامة ماليّة مقدارها خمسون ألف دولار، جرَّاء التشهير بعرض المرحومة المتوفَّاة.

وأنا أعجب من أين يمكن أخي «ع» أن يأتي بهذا المبلغ؟! وأكاد أجزم أنّه بالكاد يستطيع تدبير قوت يومه من راتبه التقاعديّ الشحيح، بعد أن

أفنى عمره وهو يعلِّم الأولاد في المدارس.

وأنا أضعُ يدي على قلبي خوفًا من أن ترتدَّ عليّ اتّهاماتي إياه بسرقة جهودي، إذ قد يستخدمها لردّ التهمة عن نفسه بالقول: إنّ محمّد الأصغر هو صاحب هذه الكتابات المنشورة في كتابين، ولربّما أخطأتُ في كتابة اسمي عليهما، وكان المفروض فيَّ أن أردَّ الفضل إلى صاحبه، فأشير إلى أنّ الأصغر هو صاحب الفضل في ذلك.

أخي «ع» قد يقْدِم على خطوة كهذه، والسؤال: هل يقتنع أبناء فليحان وأحفاده بهذا الكلام؟!

فإنِ اقتنعوا به فسوف تتزعزع حياتي على نحو لم يكن في البال، وسأضطرُّ إلى الدخول معهم في صراع مرير، لذلك فأنا أستعدُّ لمواجهة الأمر منذ الآن. سأعترف بأنّني صاحب الكتابين، إلّا أنّ أخي «ع» تدخَّل في بعض التفاصيل، ربّما لغاية في نفسه، وأضاف إليهما بعض إضافات، منها ما جاء في الكتاب الأوّل عن استسلام مثيلة لنزوة الفتَّاح الدجَّال.

وأعتقد أنّهم سيصدِّقون كلامي، فهم يعرفون مقدار صدقي واستقامتي، وسأشحذ قدراتي في اللغة لإفهامهم بمرافعة مطوّلة الفرقَ بين جهد المدوِّن وسرقات الكاتب وإضافاته، ذاك يراكم المادّة الخامّ وهذا يصوغها ويعدّلها ويضيف إليها على النحو الذي يشاء.

وسأقول في حزم وتصميم: الدليل الدامغ على تسرّع أخي «ع»، واتِّهامه مثيلة من دون وجه حقّ، أنّه جعلها تستسلم للدجَّال من أوّل لقاء، وهو أمر غير معقول ولا يقبله منطق ولا يعبِّر عن طبيعة المرأة التي لا يمكنها أن تتهوَّر على هذا النحو المشين (علمتُ من مصدر خاصّ بأن «ع» تنبّه إلى هذا التسرّع ووعد بتعديله في الطبعة الثانية للكتاب).

وأنا أشعر بالأسى جرَّاء هذا كلّه، لكنْ ما حيلتي أمام ظلم ذوي القربى؟! سأضطرُّ إلى التصرُّف على نحو لم أكن أتوقّعه، مع ما في ذلك من إحراج لي في زمن لم يعد فيه أمان، ولم يعد الأخ يثق بأخيه. جرّاء ذلك، وخوفًا من عواقب أخرى قد تلحق بي، ذهبنا، أنا وسناء، إلى مطعم المدينة في سوق باب خان الزيت، وكنّا على موعد مع قيس.

لم نفكِّر بالذهاب إلى بيته أو بدعوته إلى بيتنا. قلت: في المطعم نتناول الطعام ونتحاور من دون أن يتلصَّص على حوارنا أحد.

قالت سناء وهي تقصد مناكفتي: في المطعم نثبت لأنفسنا ولغيرنا أنّنا أشخاص من لحم ودم، لا مجرَّد شخصيَّات متخيَّلة في نصٍّ أدبيّ.

تطيّرتُ من كلامها، وكنت على وشك أن أجادلها في الأمر، لولا أنّ قيس جاء وهو يحمل كتابًا في يده، ربّما ليُثبت لي ولسناء وللناس المنبثّين في السوق وفي هذا المطعم، أنّه مثقَّف لا تغيب عنه الكتب، ولا يغيب عنها.

تأمَّلَنا نادلُ المطعم من مسافة ما، ثمّ اقترب منّا ووقف منتظرًا أن نملي عليه طلباتنا. اقترحت سناء أن نأكل سَلَطات وقليلًا من اللحم المشويّ على النار، فأيّدْنا اقتراحها.

وقبل أن نبدأ الحوار سألتُه عن شقيقته لمياء، قال إنّها بخير وهي مشغولة في دروسها هذه الأيّام، وفي أوقات فراغها تشغّل المسجّل وترقص على أنغام الموسيقى والغناء. ومن باب اللياقة، أبديتُ إعجابي بهذه الشابّة المجدَّة المجتهدة. ولم أتوقّف عند حدّ الإطراء على لمياء، وإنّما تجاوزت ذلك إلى إسباغ المديح على والده، منّان ابن أخي عطوان، وعلى والدته زهور.

بعد لحظة تأمّل وصمت، أبديتُ له مخاوفي ممّا يكتبه ويطلب رأيي فيه. قلت له:

– صديقُك من صَدَقك، وأنا أبدي مخاوفي هذه حرصًا على حياتك وعلى مستقبلك.

ثمّ أخبرته بما ينوي فعلَه أبناءُ أخي فليحان وأحفادُه ضدّ أخي «ع».

كان قيس يفكِّر في كلامي غير مدركٍ أبعاده كما يبدو، سألني بفضول:

– ما الذي تريد قوله يا عم؟

قلت:

– أنت تسترسل في وصف علاقة الحبِّ التي تربطك بليلى، تأخذها مرَّة إلى يافا..

قاطعني وقال:

– هي التي تقترح عليّ الذهاب إلى يافا، لأنّها مسقط رأس أجدادها.

قلت:

– ليكنْ، هي التي تقترح ذلك.

أضفتُ متمّمًا كلامي:

– وتأخذها إلى البرِّيَّة لأنّها مسقط رأس أجدادك. والسؤال: ألا تخشى من ردَّة فعل أهلها ومن ثمّ تحميلك مسؤولية التعريض بشرف ابنتهم في حال نُشر هذا الكلام؟!

ابتسمت سناء وابتسم قيس، وكدت أجزمُ أنّه متواطئ معها. سألني:

– ألم تقع في حبِّ سناء قبل سنوات طويلة؟! ألم تقم بدعوتها إلى بيت أهلك؟

هنا وجدتُ فرصتي السانحة وقلت:

– نعم، وقعتُ في حبِّها، ثمّ دعوتها إلى بيت أهلي ومعها أبوها وأمّها، أمّا أنت فقد قمتَ بدعوتها إلى بيتكم من دون أهلها.

قال:

– ليت أهلها يقبلون بي مثلما قبلَ بك أهل سناء. وليتهم يوافقون على القدوم إلى بيتنا، وأرجو أن تقوم بدعوتهم، وسوف أولم لهم، وأكون لك من الشاكرين.

قلت مشيرًا إلى اختلاف العقليّات واختلاف النظرة إلى الحياة:

– أهل سناء من بيت علم، أبوها كان معلِّمًا وأمُّها كانت معلِّمة، أمّا أهل ليلى فهم تجَّار.

أوضحتُ مثل معلِّم يشرح درسًا لتلاميذه:

– بالطبع، ليس كلّ التجَّار على الشاكلة نفسها، بمعنى أنّه لا يصحّ التعميم في حالتنا هذه.

أضفت:

– أهل ليلى كانوا راسخين في مدينتهم، يافا، وكانت لهم مصالح تجاريَّة وبيوت وأموال، ثمَّ اقتلعتهم الهجمة الصهيونيَّة منها، وراحوا

يؤسّسون لتجارتهم من جديد في القدس. ولا ينكر أحد أنّهم كانوا منفتحين على كلّ التطوّرات، لكنّهم كانوا يتذكَّرون دومًا مأساة الاقتلاع الأولى، وحين استشعروا الخوف على مصالحهم جرَّاء ما أنتجته الأيّام من أوضاع مقلقة ومن محافظة وجمود وتخلّف وارتداد إلى الوراء، انكمشوا على أنفسهم، وانقلبوا على قناعاتهم السابقة حفاظًا على ما في أيديهم من أموال ومتاجر وبيوت.

حدَّق بي قيس مبهوتًا وقال:

– أنت متابعٌ جيِّد للتفاصيل.

تظاهرتُ بعدم اكتراث لملاحظته، وكتمتُ فرحتي بهذا الإطراء.

اقترب منّا النادل، ووضع صحون الطعام على الطاولة وهو يرحِّب بنا بصوت مصقول. لم نكترث لترحيبه، لأنّه من لوازم مهنته، لكنّنا شكرناه بأصوات خافتة قبل أن يبتعد، ثمّ واصل قيس الإدلاء بحججه، قال:

– اسمع يا عمّ. أنا أحبُّ ليلى ولا أنوي التغرير بها، ثمّ إنّها إنسانة واعية، وهي تحبُّني، وأنا أسعى إلى الزواج بها اليوم قبل الغد.

فكَّرت في كلامه وقلت:

– كي لا تعتقد أنّني أظلمك، فأنا مع حرّيَّة المرأة نظريًّا، هذا أمر مفروغ منه، لكنْ لنفترض أنّ لي ابنة، ربّما ما كنت لأسمح لها بالخروج مع حبيبها إلى مقهى أو إلى شاطئ البحر أو إلى البرِّيَّة أو إلى حديقة المتحف، أو إلى سوق أفتيموس، وربّما ما كنت لأحتمل أن أراها جالسة معه وقد فكَّت أزرار جلبابها لتكشف له لون الفستان، وخلعت المنديل لكي ينسدل شعر رأسها على صدرها وكتفيها، فتبدو كما لو أنّها ستذهب معه بعد قليل إلى السرير.

انتفضت سناء وقالت بأسى:

– لو كانت لي ابنة كنتُ زوّدتُها بالوعي، وسمحتُ لها بالخروج مع حبيبها، وبالمشي في الشارع وهي ترتدي تنّورة قصيرة، وبالرقص في المناسبات أمام النساء والرجال مثلما تشاء، من دون قيود أو محظورات.

ثمّ سالتْ دموعها وقالت:

– حُرمتُ من الأمومة، وكُتب عليّ أن أحيا بلا بنت أو ولد.

فوجئتُ بانفعال سناء، وفي اللحظة ذاتها تدخَّل قيس في محاولة منه للتخفيف من ألمها وقال:

– أنا محروم من الأبوَّة. كُتب علينا، أنا وليلى، في حال زواجنا ألا ننجب أطفالًا، وسبب طلاقي من ابنة عائلتي نفيسة لم يعد يخفى على أحد.

تعاطفتُ معها ومعه، وكنت أشعر في تلك اللحظة بأنّني أعاني من تمزُّق في الوعي، أو ربّما كنّا جميعًا بلا استثناء، أو أغلبنا، نعاني من تمزّق في الوعي جرَّاء التباسات المرحلة وتناقضاتها، وجرّاء تزاحم الثقافات المختلفة التي تقتحم بيوتنا عبر التلفاز وغيره من دون استئذان، على ما بينها من تفاوت في القيمة والجدوى ومدى التأثير. ويبدو أنّ قيس أدرك ذلك فقال:

– أنا أتحمَّل المسؤوليَّة عمّا أكتبه يا عم، وأنت في حلّ من تحمُّل أيّ مسؤوليّة بسبب استشارتي إياك في ما أكتب بين حين وآخر.

شعرتُ بارتياح لإقراره الصريح بتحمّل المسؤوليّة.

بدت سناء غير مرتاحة بالمرَّة جرّاء مخاوفي الزائدة عن الحد. قالت:

– رقابة المجتمع وضغوطه تجعل منّا مسوخًا في أشكال آدميَّة.

أضافت وقد استبدّت بها الحماسة والتوق إلى كسر القيود، وتساءلتْ:

– هل نلغي قصص الحبّ من كتب الأدب لكي نرضي المجتمع؟! وهل نقوم بتحجيب اللغة وتعقيمها بحيث تصبح بلا طعم ولا لون؟! وما الذي يبقى من الأدب بعد ذلك؟! أم هل نلجأ إلى التلويح بعلاقات حبّ مقنّنة مضبوطة على المقياس الذي يُرضي سواد الناس، بحيث كلّما أحبّت شابّة شابًّا ورغبت في لقائه وجبَ عليها اصطحاب والدها أو شقيقها معها، لكي يكون رقيبًا عليها أثناء جلوسها مع الحبيب؟! فأيّ حبّ هو هذا الحبّ الخاضع لهواجس الرقيب؟! وأيّ حياة هي هذه الحياة؟!

واستطرادًا لذلك، وتعقيبًا على ما دار بيننا من حديث، تشجّعتُ وذكرتُ لهما أنّ عالم الاجتماع المغربيّ عبد الصمد ديالمي يتبنّى مفهومًا علميًّا

للتربية الجنسيّة يتجاوز ثنائيّة التحليل والتحريم، ولم أمعن في عرض آرائه الجريئة، ربّما لأنّني لم أرغب في إثارة نقاش متشعّب حولها.

حدّثتهما عن انتشار ظاهرة التحرّش بالنساء في الشوارع وفي أماكن العمل، وذكّرتهما بذلك الشيخ الذي استند إلى واقعة خاصّة في التراث وراح يفتي بجواز أن تقوم الموظّفة بإرضاع زميلها الموظّف لضمان ألّا يتحرّش بها. وقد تعرّضت تلك الفتوى لكثير من التندّر على موقع الـ«فايسبوك»، ومن ذلك ما سأله سائل: هل تقدّم زميلته له حليب ثديها في كأس أم أنّها ترضعه من ثديها مباشرة؟! وسألتْ سائلة: وإذا لم تكن الزميلة مرضعًا فمن أين تأتي لزميلها بالحليب؟!

ابتسم قيس وابتسمت سناء، ذكّرتُهما بتلك الفتوى التي تجيز للرجل أن يضاجع زوجته المتوفّاة على أساس أنّه بذلك يودّعها الوداع الأخير، زمّت سناء شفتيها في عدم ارتياح، وغامتْ عينا قيس. حدّثتهما عن نساء لا يعرفن لذّة الجماع ولا يصلن إلى الذروة المشتهاة باعتبار أنّ ذلك يشين المرأة ويسم سلوكها بالتفلُّت والانحلال، حتّى إنّ الواحدة منهنّ تكشف جسدها لزوجها ثمّ يعتريها النعاس أثناء الفعل الحميم (تذكّرتُ نعاس نفيسة وهي معي في السرير، وبقيتُ صامتًا مصغيًا لما يقوله العمّ محمّد الأصغر). ذكرتُ لهما بالمقابل تلك النصيحة المتعارف عليها في بعض الأوساط الشعبيّة، التي تنصح المرأة بأن تكون قحبة لزوجها، بمعنى أن تتوقَّح وترمي رداء الخجل جانبًا أثناء الجماع.

كدتُ أجزمُ أنّ النساء لسنَ على الشاكلة نفسها.

عرضتُ لهما ما كتبه الكاتب القرغيزيّ جنكيز إيتماتوف في روايته القصيرة التي تحمل اسم بطلته الفلّاحة المحبّة للحياة، جميلة، زوجة الجنديّ السوفياتيّ المحارب على الجبهة أثناء الحرب العالميّة الثانية، الذي لم يكن مهتمًّا بمشاعر زوجته، كان يرسل الرسائل من الجبهة إلى والديه، ولا يذكر زوجته في رسائله إلّا على نحو عابر، ما جعل الزوجة تنجذب أثناء غيابه إلى رجل آخر نال إعجابها ونالت إعجابه، فتركتْ بيتها وذهبت معه.

حدَّقتُ في عينيْ قيس وفي عينيْ سناء لأرصد ردَّ فعلهما على هذا الكلام. اكتفى قيس بأنْ هزَّ رأسه وعيناه غائمتان، واكتفتْ سناء بابتسامة غامضة اعتدتُها منها، ثمّ انفجرتْ فجأة في وجهي وقالت:

– لماذا لا تتطرّق لذكر الرجال الخوّانين الذين لا يتركون امرأة إلّا لهثوا خلفها، ولا يوجّه المجتمع لهم أيّ لوم؟! ولماذا ينصبّ اللوم على رؤوس النساء وحدهنّ؟! لماذا؟!

ابتسمتُ وقلت:

– سامحكِ الله يا سناء.

أنهينا اللقاء، وافترقنا. وكدتُ أجزم بأنّني تركت أثرًا ما في نفس قيس الذي عاد إلى باب العمود لنقل الركّاب، بينما عدت أنا وسناء إلى بيتنا في راس النبع.

***

في ذلك المساء، أبدت ماريا زخاروفا رغبتها في زيارة مدينة الخليل.

قالت إنّها سمعت عن هذه المدينة كثيرًا في نشرات الأخبار. استعنّا بقيس لكي يأخذنا في سيّارته. ذهبنا، ماريا وزوجها وأنا وسناء، في الصباح المبكّر إلى هناك. أعجبتْ ماريا بالأراضي الزراعيّة التي تترامى على جانبيّ الشارع، وهي مزدهية بصفوف منتظمة من كروم العنب، استاءتْ في الوقت ذاته من المستوطنات الإسرائيليّة المتناثرة هنا وهناك على رؤوس الجبال.

قالت لها سناء:

– هذه المستوطنات تتوسّع كلّ عام على أرض الفلسطينيّين.

وقالت:

– لا يكتفي المستوطنون بذلك، بل يدفنون نفاياتهم الكيمياويّة في أرضنا، ويرمون قمامتهم بالقرب من مدننا وقرانا.

أصغت ماريا إلى كلام سناء بانتباه، واكتفتْ بأن هزّت رأسها، ربّما لأنّها تدرك ذلك، وربّما لأنّها لا تريد توريط نفسها بتصريح ما.

وصلنا الخليل. كانت المدينة مكتظّة بالناس وبالسيّارات وبصخب الحياة اليوميّة فيها غير عابئة بالاحتلال، وبدوريّات الجنود المبثوثة في كلّ مكان. حدّثتُهما، هي وزوجها، عن بعض مزايا هذه المدينة الفلسطينيّة العريقة وعن بعض السلبيّات التي ما زالت سائدة فيها، عن عمق انتماء أهلها إليها وعن التصميم على الصمود فيها برغم محاولات الاقتلاع المتكرّرة، عن الروح المحافظة السائدة فيها إلى حدّ افتقارها إلى دار واحدة للسينما حتّى في أيّام الانفتاح التي شهدتها فلسطين في سنوات سابقة، حدّثتهما عن انتعاش التجارة فيها برغم إجراءات الاحتلال التي تحاول تقييد تطوّرها بكلّ الوسائل والأشكال، وعن انتعاش روح النكتة لدى الخلايلة، حتّى أنّهم يبتدعون النكات الظريفة التي تطاولهم هم أنفسهم.

رويت لهما نكتة الخليليّ الذي ركب الطائرة، وحين ذهب جاره في المقعد المجاور إلى الحمّام، جاءت المضيفة بالطعام والطائرة محلّقة في السماء. التهم الخليليّ طعامه ولم يشبع، فانثنى على صينيّة جاره الذي طال غيابه والتهم ما فيها من طعام. عاد الجار إلى مقعده وسأل الخليليّ: لماذا أكلت طعامي؟ ردّ عليه باللهجة الخليليّة الممطوطة: فَكّرْتك نزلت.

ضحكت ماريا زخاروفا وضحكنا معها، ثمّ اقتربنا في تجوالنا من البلدة القديمة، حيثُ استولى المستوطنون على بيوت الناس وصاروا يمنعونهم من ممارسة حياتهم العاديّة في هذا الجزء من المدينة. وكان ثمّة جنود يحرسون المكان، نظرتُ في وجوههم وعجبتُ من تفاخرهم بالانتساب لجيش مكرّس للعدوان، ومن تباهيهم بحمل السلاح، عجبتُ كذلك كيف يعيشون حياة طبيعيّة فيما تلوب فكرة القتل في رؤوسهم وعلى أطراف أصابعهم.

أخرجتْ ماريا زخاروفا الكاميرا من الحقيبة التي على كتفها، وحين شرعتْ في تصوير الأسلاك الشائكة وأعلام المحتلّين على أسطح البنايات الخليليّة طوّقها ثلاثة جنود، حاولتْ إبعاد أحدهم عن يدها التي تحمل الكاميرا، إلّا أنّه استولى على الكاميرا بالقوّة، تشبّثت به ماريا

زخاروفا وحاولتْ تخليص الكاميرا منه، قبض جنديٌّ آخرُ على يدها ودفعها بقسوة، اختلّ توازنها وسقطتْ على الأرض، ثارت حميّتي وغضبتُ، رفعتُ قبضتي في وجه الجنديّ، وقلت:

– عليك أن تحترم ضيفتنا.

صاح في وجهي:

– اخرسْ.

ثمّ دفعني بشراسة وسقطتُ على الأرض. أطلقتُ سيلًا من الشتائم، مدّت سناء يدها وساعدت ماريا زخاروفا على النهوض، وصاحت في وجه الجنديّ:

– هذه ماريا زخاروفا يا كلب، هذه ضيفتنا الروسيّة.

صاح الجنديّ في وجه سناء بلغة عربيّة مطعّمة بلكنة منفّرة:

– أنتِ كلبة وروسيا كلبة.

اقترب منّي قيس وهو شاحب الوجه، قادني من يدي إلى السيّارة، وكدتُ أجزم بأنّ هذا الذي وقع كان متوقّعًا من قبل، كنتُ أتوقّعه ولم أجاهر به كي لا تتعطّل رحلتنا إلى الخليل قبل أن تبدأ.

وأكاد أجزم بأن ماريا زخاروفا كانت تشعر بإهانة بالغة. ظلّت صامتة، كما لو أنّ الاعتبارات الدبلوماسيّة ألجمتْ لسانها عن الكلام. سلّمها الجنديّ الكاميرا، قادها زوجها من يدها، ركبنا السيّارة وعُدنا إلى القدس في ذلك النهار الحزيرانيّ المقيت.

6

وفي نهار آخر، كنّا، أنا وليلى، في السيّارة تحت شمس حزيران اللاهبة.

كانت ليلى مرتبكة بعض الشيء. غطَّستْ جسدها في المقعد ووضعت على عينيها نظّارتها السوداء. ولم تنتظر سؤالي بل بادرت بالقول إنّها تعرَّضت لأسئلة من أبيها ومن أشقّائها جرّاء تأخّرها في العودة إلى البيت في بعض الأيّام، وبخاصَّة أنّها في العطلة الصيفيَّة الآن.

قالت:

– عادوا يكرّرون الأسطوانة نفسها، أسئلة كثيرة مصحوبة بزفرات غضب واستياء، وقرف من البنات ومن اليوم الذي شهدوا فيه ولادة البنات.

قالت إنّ نقمة أهلها عليها ازدادت بعد أن جاءهم مهندس في الخامسة والثلاثين من العمر يطلب يدها، فلمّا سألوها رأيها فيه رفضته بحجّة أنّه أكبر منها بإحدى عشرة سنة، فلم يقتنعوا بكلامها وقالوا إنّها مجنونة، لأنّها ترفض مهندسًا تتمنّاه كلّ البنات.

وقالت:

– تحمّلتُ كلامهم الجارح، وبقيتُ مصرّة على موقفي الرافض. وكنتُ مضطرّة إلى اختلاق حجج لتبرير تأخّري في العودة إلى البيت: أذهبُ إلى بيت زميلتي أسمهان، أتجوَّلُ في الأسواق أنا وبعض الزميلات، أقوم بتدريس الطالبات والطلّاب الذين عليهم أن يقدِّموا فحوص الإكمال. ثمّ أتساءلُ بيني وبين نفسي بعد أن ألوذ بغرفتي: ماذا لو عرفوا أنّنا نلتقي في مقهى قريب من باب الخليل، أو أنّنا نذهب مرّة إلى بحر يافا، وأخرى

إلى برِّيَّة القدس؟! لو عرف أبي ذلك لأصابته سكتة دماغيَّة، ولو عرف أشقّائي ذلك لارتفع ضغط دمهم، وربّما ارتكبوا جريمة.

قالت:

– أشعر بالخجل من نفسي لأنّني أضطرّ إلى الكذب.

كنت أقود السيَّارة بقليل من الانتباه، وأنا أصغي إلى ما تقوله ليلى. كانت مسترسلة في الكلام وأنا لا أتلفَّظ إلّا بكلمات قليلة.

حين وصلنا البرِّيَّة، كانت شمس حزيران تُنضج القمح المزروع على مسافة ما من حدود المستوطنة. ولربّما تأخَّر الحصَّادون عنه لسبب لا أعرفه، ما جعله باللون الأصفر الطافي على امتداد السهول وباستحقاق الحصاد، مثيرًا لمشاعر شتَّى في نفسي، وربّما في نفس ليلى. تذكّرتُ المزارع عوّاد، الذي ركب في سيّارتي ذات صباح، وكان يشكو من تأخّر موسم المطر، ثمّ بدا في مرّة ثانية راضيًا من وفرة المطر، هذا المزارع، لم يلبث بعد ذلك أن مات في ليلة ماطرة جرّاء سكتة قلبيّة تاركًا وراءه امرأة في الأربعين، وولدًا واحدًا وأربع بنات. لا أدري لماذا تذكّرته الآن؟! ربّما لأنّني شاهدت القمح الذي أنضجته شمس حزيران.

مشينا ببطء ونحن نحاذر الاصطدام بسيقان القمح إلى أن وصلنا صخرة ملساء مطلَّة على وادٍ سحيق. جلسنا هناك وأرخيْنا أرجلنا نحو الأسفل. كانت ساقاي مجاورتين لساقيها على نحو حميم. اقترحتُ عليها أن نصيح لكي يردِّدَ الوادي والجبال المحيطة به صدى صيحاتنا. تحمَّستْ للفكرة وقالت: ابدأ أنت.

صحت: ليلسسسسسسسسسسسسسسسسسسسى.

ردّد الوادي الصدى: ليلسسسسسسسسسسسسسسسى.

صاحت ليلى: قيييييييييييييييييييييييييييس

ردّد الوادي الصدى: قييييييييييييييييييييييس.

كرَّرنا الصياح مرَّات عدّة، وشعرنا بأنّنا نفرغ طاقة حبيسة كانت داخلنا، أو كأنّنا أفرغنا تلك الطاقة. تأمَّلتُ شحوب وجهها وقلت:

– أنا أتسبَّبُ لكِ في أذى غير قليل.

نظرت نحوي وقالت:
– أنت لا ذنب لك.
ثمَّ خيَّم علينا صمت.

***

كان رهوان صامتًا على غير عادته هذا الصباح.
بدا مهمومًا بعض الشيء، سحنته مقلوبة وشعر رأسه منفوش وهو شارد الذهن. قلت لنفسي: لعلّ هذا الطقس القائظ هو الذي عكَّر مزاجه. ثمّ استبعدت الفكرة وقلت: ربّما تحرَّش بامرأة فأرسلت نحوه سيلًا من الشتائم.
بعد وقت، اقترب منّا ولم ينتظر حتّى نسأله ما الذي يزعجه. تلفَّتَ في كلّ اتّجاه كعادته، وقال:
– عرفتُ ليلة أمس أنّ ناتاشا حبلى.
قلت من دون أن أقصد إيذاءه أو خدش مشاعره:
– مبارك عليك وعليها حَبَلها.
قال بامتعاض وهو يحدجني بنظرة قاسية:
– لا مبارك ولا زفت. أمرتُها أن تُسقط الجنين. كانت متردِّدة، وسأقابلها مساء هذا اليوم.
كان الخبر قابلًا لأكثر من تفسير. تساءلتُ بيني وبين نفسي: ما الذي يؤكد له أنّ الجنين من صلبه؟! كدت أجاهر بالأمر، إلّا أنّني خشيتُ أن أثير غضبه، فلم أطرح عليه السؤال. سألته من دون استفزاز:
– لماذا لا يكون لك ولد من امرأة روسيَّة شقراء؟
فكَّر في سؤالي، كما لو أنّه راغب في التأكُّد من نواياي، ثمّ قال:
– لا أرغب في ذلك، وسأنصحها بالعودة إلى بلادها.
استدركتُ وأثنيتُ على موقفه، وقلت إنّها لن تستطيع البقاء هنا إلّا إذا تهوَّدت، وفي هذه الحالة سيكون ابنها يهوديًّا بحسب الشريعة اليهوديَّة، وسيكبر هذا الابن ويصبح جنديًّا في الجيش.

قلت وأنا أخلط الجِدّ بالمزاح، أو كأنّني أفعلُ ذلك:

– سيأتي ابنكما يا رهوان إلى هنا، إلى باب العمود لكي يطلق النار على الناس الأبرياء، تنفيذًا لرغبة الغزاة في القضاء على وجودنا بشتَّى الوسائل والأشكال.

أضفت:

– هذا إذا ظلّوا جاثمين على صدر بلادنا إلى أن يكبر ابنكما ويلتحق بالجيش.

جحظت عيناه، حدَّق في وجهي وهو منزعج من كلامي وصاح بي:

– قيس! اسكتْ يا قيس، اسكت!

7

وكان لا بدّ من تلك اللحظات المؤلمة، فهكذا هي أحوال البشر، تبدأ الرحلة من لحظة ما وتنتهي عند لحظة أخرى في شريط الزمن.

تتزاحم اللحظات، وتتهيّأ أنت لأمر ما، ويتهيّأ جارك أو صديقك أو ضيوفك لأمر آخر، تذبل حكايات بفعل الزمن وتنهض حكايات أخرى ينشغل بها الناس، ويستمرّ نهر الحياة في الجريان.

كان لا بدّ لماريا زخاروفا من أن تغادرنا بعد أربعة أسابيع من الإقامة في حيِّنا. كانت أسابيع ممتعة تخلَّلتها حوارات كثيرة. اختلفنا حول بعض القضايا واتَّفقنا حول بعضها الآخر، وهو أمر طبيعيّ لا غبار عليه. وكانت لنا نزهات ورحلات في أرجاء فلسطين، عكَّر صفوَها جيشُ المحتلّين مرَّات ومرَّات، وبخاصَّة عند الحواجز العسكريَّة التي كانت تهدر وقتنا وتجعلنا متذمِّرين، وأكاد أجزم أنّنا تذمّرنا كثيرًا أثناء تلك النزهات.

كانت ماريا زخاروفا تعبِّر عن تذمّرها بلغة إنكليزيَّة حينًا، وبمفردات عربيَّة تخالطها لكنة روسيَّة حينًا آخر: يا الله! ما هذا العذاب؟!

كنّا نبتسم لأسلوبها الظريف في الكلام، ربّما لكي نمرِّر الوقت وننسى بؤس الانتظار. نبتسم كذلك وهي تشتم جدار الفصل، وتعلن اشمئزازها من لونه الكالح القبيح، ومن نزعة التوسّع الاستيطانيّ التي تكمن خلف الهدف من إنشائه على أرض الفلسطينيّين، أرضنا.

جاءت ماريا زخاروفا إلينا محوطة بالترحاب وحسن الاستقبال، وغادرتنا محوطة بوداع حارّ وبمشاعر حرَّى وبكلمات طالعة من قلوبنا، وبدموع.

احتضنتها زوجتي سناء وفي عينيها دموع، وهي احتضنت سناء.
قالت بعربيَّة مكسَّرة:
– أنا أحبّكم.
قالت لها سناء:
– ونحن نحبكِّ.
ثمّ استدركت وهي تنظر نحو زوج ماريا:
– نحبّكما.
حملنا حقائب الضيفة وزوجها، حقائب ثقيلة امتلأت بهدايا من مطرّزات القدس وصَدَفها وخَزَفها وأيقوناتها المنحوتة من خشب الزيتون. وضعناها في الصندوق الخلفيّ لسيّارة قيس، الذي أخذهما على جناح السرعة والودّ إلى مطار اللد.
قالت والدة قيس، الممرِّضة زهور، وهي تودِّع ماريا زخاروفا:
– كم كنت طيّبة وقادرة على التواصل مع الناس!
ربّما فهمت ماريا زخاروفا كلام زهور وربّما لم تفهمه، لكنّها قالت بصدق وإخلاص:
– شكرًا، شكرًا.
قال زوجها بلغته الأم:
– سباسيبا.
ولم نكن في حاجة إلى مترجم أو مترجمة. كان الكلام يخرج من القلوب ويدخل في القلوب من دون وسيط، والشمس الساطعة في سماء فلسطين تشهد على مشاعرنا.
وحين انطلقت السيَّارة معلنة انتهاء الرحلة، ارتفعت أيدينا ملوّحة بأبهى وداع.
أمضيتُ ساعة وأنا أفكِّر في لحظة الوداع هذه لعلِّي أستخرجُ منها حكمة ما أستعين بها على تفسير بعض ألغاز الحياة. كانت سناء هي الأخرى صامتة كما لو أنّها ما زالت تعيش لحظات الأسى التي ترافق وداع الأحبَّة في العادة، وتبقى بعد وداعهم لساعات وأيّام وأسابيع.

***

بعد ذلك بثلاثة أيّام، ودّعنا أخي فليحان إلى مثواه الأخير.

كان يتمنَّى الموت في لحظات يأسه من الحياة، لكنّه عمَّر طويلًا وهو على كرسيّه المتحرّك، ربّما لكي ينال عقابه في الدنيا على ما اقترف من شرور وحماقات.

كان لا يفتأ يفتِّش الدفاتر العتيقة كما يقال، يتذكَّر كلّ ما مرَّ عليه في حياته المتشعِّبة المسالك، وكان أكثر المواقف إيلامًا له يوم أطلق عليه سرحان النار بعد هزيمة حزيران 1967، لأنّه خطف منه خطيبته رسميّة. أحبَّها فليحان وخطفها وتزوّجها، ولم تقتله الرصاصة، إلّا أنّها جعلته عاجزًا طوال حياته حتّى الممات.

أحد النقّاد لم يقتنع بقدرة فليحان على تحليل الظواهر، وبخاصّة ارتداء النساء في بعض مناطق الريف الفلسطينيّ السراويل الداخليّة الطويلة، جرّاء اشتغالهنّ بالزراعة، واضطرارهنّ إلى رفع أثوابهنّ عن سيقانهنّ أثناء العمل، فتقوم السراويل بستر السيقان. كنت على قناعة بأنّ قراءات فليحان المتنوّعة والحوارات التي كنت أديرها معه حين أحضرُ له الكتاب تلو الكتاب، ساعدَتْه على تكوين وجهات نظر تجاه بعض الظواهر التي لها علاقة بحياته، ذلك أنّ زوجته رسميّة كانت ترتدي السراويل الطويلة، وقد بذل جهدًا غير قليل إلى أن أقنعها بالتوقُّف عن ارتدائها، فانصاعت بعد تردُّد لموقفه وارتدت السراويل الداخليَّة القصيرة التي كانت رائجة في المدن وفي بعض مناطق الريف الفلسطينيّ.

مع ذلك، ربّما كان الناقد على حقّ، أكاد أجزم بأنّه على حق، فمن أين لفليحان ذي التحصيل العلميّ البسيط كلّ هذه القدرة على التحليل؟!

قبّلتُه على جبينه وأنا أودّعه الوداع الأخير، وكانت غبرة الموت تكسو وجهه على نحو منفِّر. قبّله أشخاص كثيرون، وهيّأ له أبناؤه وأحفاده جنازة مهيبة. جاءت عشيرة العبد اللات كلّها تقريبًا، وجاء أهل راس النبع وبعض أهل المدينة والقرى المجاورة. وكنت أرى في هذه الجموع التي جاءت

للسير في جنازته نوعًا من النفاق الاجتماعيّ، بسبب سطوة فليحان وسطوة أبنائه وأحفاده الكثيرين.

حين مات أخي محمّد الكبير قبل عشر سنوات (عاد من المنفى إلى الوطن في العام 1994) لم تكن له جنازة كبيرة. الأمر نفسه وقع حين مات أخي محمّد الصغير، إمام مسجد راس النبع، قبل ثماني سنوات.

كانت جنازة أخي فليحان علامة من العلامات الدالَّة على مفارقات هذا الزمان. دفنّاه في مقبرة راس النبع، وظلّت سيرته تلوب لبعض الوقت في أذهان الناس.

قال لي قيس منّان ذات مساء إنّه لم يكن يألف هذا الرجل، بسبب سوء نواياه وكُرْهِه الناس.

8

وكنّا، أنا وليلى، عائديْن من يافا، نتبادل الحديث بابتهاج، برغم ما يتهدَّد علاقتنا من مفاجآت. كان الوقت بعد العصر بقليل، وثمّة غيوم بيضاء تتهادى على صفحة السماء، وليلى ترتدي فستانًا خمريًّا مرشوقًا بورود مختلفة الألوان، يكشف جزءًا من صدرها ولا يغطِّي الساعدين. كان جسدها يعبّر عن حضور باذخ إلى جواري، أو كأنّه كان يعبّر عن ذلك الحضور الذي يبهجني.

فجأة، انتبهتُ إلى أنّ سير السيَّارة لم يعد متوازنًا، فأدركت أنّ ثمَّة خللًا في إحدى العجلات. خفَّفتُ السرعة وأوقفتُ السيَّارة في أقصى يمين الشارع. نزلتُ منها ونزلتْ ليلى معي بعد أن أبقت جلبابها في السيَّارة، ولم نلق بالًا لحركة السيَّارات التي تعبر الشارع بضراوة واستعجال.

كانت العجلة الأماميَّة التي على اليمين معطوبة. لعنتُها لأنّها خذلتْنا ونحن في أتمِّ انسجام. لم توافقني ليلى في تصرُّفي، طلبت منّي أن أخفِّف انفعالي، وقالت إنّ هذا ممكنُ الحدوث في أيّ وقت. قلت لها في مزاح:

– أنا متأسّف، نسيت أن هذه العجلة تمتُّ بصلة قرابة لعائلتك.

ثمّ أذعنتُ لرأيها، فتحتُ الصندوق الخلفيّ للسيَّارة، وأنزلتُ الرافعة المعدنيَّة ومفتاح البراغي.

رفعتْ ليلى طرف فستانها الطويل إلى تخوم ركبتيها وثبَّتته بتكَّة سروالها الداخليّ، وأنزلتْ العجلة الاحتياطية. قلت لها:

– أرجوكِ، لا تتعبي نفسك.

بعد لحظات، خفّفتْ سيّارة فيها عنصريّون صهاينة من سرعتها واقتربتْ منّا. صاح أحدهم موجّهًا كلامه إلينا:

– كلب وكلبة، هنا أرض إسرائيل.

لم أشأ أن أردّ على الشتيمة بمثلها كي لا أتورّط في مشكلة وليلى معي.

فككتُ العجلة المعطوبة، حملتْها ليلى وأعادتها إلى الصندوق الخلفيّ، راقني هذا التفاني وهذا النشاط، وفي الأثناء تشحبرتْ ركبتها اليمنى بالسواد. لم تكترث، أو ربّما لم تتنبّه. بعد تركيب العجلة كانت أيدينا تشحبرت. فتحتُ زجاجة ماء، مدَّت ليلى يديها وصببتُ عليهما الماء. ثمَّ قبضتْ على الزجاجة وصبَّت الماء على يديّ. بعد دقيقة أخرجتُ منشفة من الصندوق، صبَّت ليلى الماء على طرف المنشفة، فركتُ بها ركبتها لكي أزيل عنها السواد، واصلتُ ذلك وهي ترفع فستانها إلى أعلى، وتقول لي بصوت خافت:

– كفى، كفى.

اقتربتْ منّا سيّارة أخرى فيها عنصريّون صهاينة، قال أحدهم موجّهًا كلامه إلى ليلى:

– أنتِ شرموطة.

ردّت ليلى عليه:

– أنتَ قبيح.

ثمّ انطلقت السيّارة مسرعة، ومنها يتناثر سيل من الشتائم البذيئة.

***

في الليل، كنت أشعر بالضيق وبانسداد الأفق، وأتنفَّس بصعوبة.

بحثتُ عن ليلى لعلّها تنقذني من هذا الوضع الملتبس. حاولتُ أن أفتح عينيَّ ولم أتمكَّن من ذلك إلّا على نحو طفيف.

فوجئتُ بأنّني أغرق في اكتظاظ مريع من حولي: أمِّي زهور، أبي منّان وشقيقتي لمياء. وثمّة حشد من رجال ونساء: الممرّضة التي شاهدتها في المقهى وهي بمعطف التمريض، نادلة المطعم سوسن التي صارت نادلة للمقهى، إميل وزوجته مريم وطفلتهما ماري، أسمهان، زميلة ليلى في المدرسة، ماريا زخاروفا وزوجها، فريال وسميرة وناتاشا. تقترب ماريا زخاروفا منّي وتمدّ يدها إليّ لكي أرقص معها، أتردّد وأنا واقع تحت تأثير ما لديها من إغواء، ثمّ أتراجع مثل بدويّ جلف عن تلبية رغبتها، لأنّني لا أجيد الرقص أولًا، ولأنّني أخشى غضب ليلى ثانيًا. تبتعد عنّي ماريا زخاروفا وفي عينيها عتاب.

وعلى مقربة منّي وجوه تظهر وتغيب، وتغيب وتظهر، لشهيدات وشهداء كنت شاهدتُ صورهنّ وصورهم من قبلُ على الـ«فايسبوك» وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي. وعلى مسافة ما، يقف محمّد الأصغر وزوجته سناء، وكذلك عدد من أبناء فليحان وأحفاده وفي أيديهم سيوف، مؤلِّف الكتب ابن عائلة العبد اللات، الذي يرمز إليه محمّد الأصغر كلّما ذكره في دفتره السميك بالحرف «ع»، وفي يده راية بيضاء، أعداد من مجنَّدات الأعداء والجنود، وشخص آخر بدا غامضًا في الظلام، بقيتُ أنظر إليه لعلِّي أعرفه، ثمّ عرفته: إنّه رهوان. اعترتني خشية ما، قلت: ما الذي يريده رهوان؟! ولماذا يتخفَّى على هذا النحو ولا يظهر بصراحة ووضوح؟! ولم أفكِّر بأمره كثيرًا، تركته ورحتُ أبحث عن ليلى، وكنت مرهقًا من هذا الاكتظاظ، كانت تنطلق في الظلمة الحالكة ألعاب ناريَّة تتناثر على نحو دائريّ في السماء، وكنت أتساءل: هل هذا عرس أم مهرجان؟! أم أنّه احتفال بجلاء المحتلِّين من البلاد؟! قلت: ربّما هو مجرّد عبث لا يُقصد منه سوى الإزعاج وتطيير النوم من عيون الناس! وكنت أتساءل: لماذا يسيء الناس إلى الناس؟! ولماذا يسدُّون الطريق ويعيقون سير المارَّة من دون سبب مفهوم؟!

حين عثرتُ عليها بعد لأيٍ، قلت: هاتي يدكِ يا ليلى لكي أرى الطريق.

واصلتْ حلمها وهي تناولني يدها وقلبها، وأنا أمشي وهي تمشي معي، ونحن نمشي، ونمشي معًا وسط الزحام، ووسط المخاطر التي تترصَّدنا في كلّ حين.

9

أنا الموقِّع أدناه: محمّد الأصغر بن منّان بن محمّد العبد اللات، أقرُّ وأعترف من باب المسؤوليّة التي يمليها عليّ ضميري، بأنّ الروايتين اللتين نشرهما أخي «ع» بعد أن سطا على جهودي في التدوين، تتضمّنان إضافات من قلمه مثيرة لبعض الإشكالات، وأنا لست مسؤولًا عن هذه الإضافات.

فهو، على سبيل المثال، مَنِ اختار عنوان الرواية الأولى، واختار بالتشاور مع امرأة اسمها رنا حايك، المحرّرة ومسؤولة الإصدارات العربيّة في دار النشر اللبنانيَّة، صورة للغلاف تمثِّل امرأة بدويَّة من بنات البرِّيَّة التي عاشت فيها عشيرة العبد اللات، واختار عنوان الرواية الثانية وكذلك صورة الغلاف بالتشاور مع المرأة نفسها الموظّفة في دار النشر، بحيث جاء الغلاف وعليه صورة أزياء نسائيَّة هنديَّة. والسؤال: لماذا لم يختر «ع» أزياء فلسطينيَّة، وهي كثيرة ومتنوِّعة وجديرة بالاهتمام؟!

وللتذكير، ولإبراء ذمَّتي، فقد جوبه الغلافان بانتقادات، وأخصُّ بالذكر الغلافَ الثاني، ما اضطرّ «ع» إلى الدفاع عن هذا الاختيار بالقول إنّ طفرة الأزياء التي وقعت في القدس ورام الله وغيرهما من مدن البلاد إبّان ستينيّات القرن العشرين وسبعينيّاته، وترحيب النساء بهذه الأزياء الوافدة من الخارج، جعلتْ غلاف الرواية الثانية مسوَّغًا، وفي مكانه الصحيح.

أقول قولي هذا وأتبرّأ من أيّ اتِّهامات قادمة أو مشكلات قد تنشأ عن هاتين الروايتين، بالنظر إلى الالتباس الذي أوقعني فيه «ع» حين راح

يسطو على جهودي ويضيف إليها إضافات لم أقرّها ولم أكنْ راضيًا عنها بأيّ حال.

التوقيع: محمّد الأصغر بن منّان بن محمّد العبد اللات، راس النبع، القدس، فلسطين.

30/06/2017

***

بعد نشر البيان، ارتاح بالي ورحت أفكِّر بأن أخصِّص لزوجتي سناء فصلًا في دفتري المكرّس للتدوين.

تراودني هذه الفكرة كلّما تأمَّلتُ رحلة حياتنا المشتركة، رحلة حافلة بالمسرَّات، وإنْ شابتها عثرات ولحظات نكد في بعض الأحيان، كنت في لحظات النكد أهدّد بتكرار ما فعلتُه بالدفتر الذي دوّنت فيه قضايا النساء المطلّقات حين كنت موظّفًا في المحكمة الشرعيّة، ولم أنفّذ تهديدي بإحراق هذا الدفتر مثلما فعلت بالذي قبله، والفضل في ذلك يعود إلى سناء. وكما هو معلوم، ففي دفتري هذا ثمّة سجلّ ناطق لرجال ونساء، لولايَ لما ورد ذكرهم على لسان أحد. ومن حسن حظّي، أنّ سناء كانت تأخذ التهديد بحرق الدفتر مأخذ الجدّ فلا تمعن في إثارة أعصابي، وتعود أمورنا إلى ما كانت عليه من توافق وانسجام.

سأكتبُ عنها، وسأجعلُ ذلك مفاجأة لها، ولن أطلعها على هذا الأمر فورًا، لأنّني قد أضطرُّ إلى تأجيل ما أفكِّر فيه لضيق الوقت، وأكاد أجزم بأنّها ستعذرني إنْ لم أنفِّذ وعدي في وقت قريب. ثمّ إنّني ألهجُ دائمًا بحبِّي لها كلّما مشينا معًا في المدينة، أو كلّما ضمَّتنا جلسة في مطعم أو في متنزّه أو في شرفة منزلنا في الصباح أو في المساء.

10

كنّا على وشك الخروج من يافا.

وكنت أحدّثها عن التاجر عزّام الذي نقلتُه في سيّارتي غير مرّة من راس النبع إلى باب العمود، فقد انفصل عن زوجته التي خلّفت له ثلاث بنات وأربعة أولاد، فاتّفقا بعد طول اقتران على الطلاق. ثمّ عرض الزواج بعد قصّة عشق شاع خبرها بين الناس، على أمل، موظّفة البريد التي احتفلت قبل أيّام بعيد ميلادها التاسع والثلاثين. وافقت أمل على عرض عزّام، فتزوّجا ثمّ غادرا البلاد إلى تركيّا لقضاء شهر العسل. نقلتُهما في سيّارتي إلى مطار اللد. كانت أمل مبتهجة إلى أبعد حدّ وهي تردد: سأركبُ الطائرة لأوّل مرّة في حياتي.

وكان عزّام في غاية الفرح وهو يحتضن عروسه بامتنان، أو كأنّه كان كذلك.

لم تعلّق ليلى على حكاية التاجر وموظّفة البريد، بدتْ حزينة بعض الشيء. وكان الوقت قبيل الغروب والسماء تنطوي على غموض ما. فجأة، رأينا دوريَّة للجيش تعترض السيَّارات الذاهبة إلى القدس وتوقفها للتفتيش. كان ثمَّة سربٌ طويل من السيَّارات. اضطربت مشاعرنا ثمّ حمدتْ ليلى ربّها لأنّها استطاعت في الوقت المتاح أن تهاتف أمَّها وتخبرها بأنّها سوف تتأخَّر بعض الوقت عند إحدى الزميلات. صدَّقتْها أمّها، أو لعلّها تظاهرت بتصديقها، فلم تحرجها بأسئلة واستفسارات. والمكان من حولنا كان ينثر علينا تجهُّمه المريب.

شغَّلتُ المذياع لعلَّه يفضي إلينا بخبر ما، وهذا ما كان.

ثمَّة عمليَّة مسلَّحة في تل أبيب وقعت قبل نصف ساعة، وثمَّة طوق مضروب على مخارج يافا وتلّ أبيب. ارتبكتُ وخشيتُ أن يتمّ احتجازنا، أنا وليلى، ليلة في السجن أو ليلتين، فتقع الفضيحة التي أخشاها وتخشاها ليلى. امتقع وجهها وظلَّت تهذي بكلام مفهوم وبكلام غير مفهوم. كان أمنها الشخصيّ في مهبِّ الخطر فأخذت تتلفَّظ باسم أبيها وأسماء أشقَّائها بين الحين والحين. كنت قلقًا عليها وعلى نفسي من مغبَّة هذا الطوق المشؤوم.

بعد ساعة، اقتربنا من حاجز التفتيش. أوقفتُ سيّارتي ونزلت منها، وبقيت ليلى جالسة في المقعد الأماميّ. طلب الضابط منها النزول من السيَّارة. تفحَّص بطاقة هويّتها وبطاقة هويّتي. سألني:

– من هذه؟

قلت:

– خطيبتي.

سألها:

– من هذا؟

قالت:

– خطيبي.

تأمَّلَ وجهيْنا بعدم ارتياح، وفي الأثناء فتَّش الجنود السيَّارة. فتحوا الصندوق الخلفيّ وفتَّشوه، أدخلوا أيديهم تحت المقاعد ولم يعثروا على شيء، سلَّطوا جهازًا للفحص تحت جسم السيَّارة ولم يعثروا على شيء. بعد أسئلة شتَّى عن المكان الذي كنّا فيه، ولماذا كنّا فيه، ومتى جئنا إليه، سمح الضابط لنا بالمرور.

قالت ليلى وهي تبلع ريقها:

– يضيق علينا المكان يا قيس.

قلت وأنا أقود سيّارتي بأقصى سرعة ممكنة:

– نعم يا ليلى، نعم.

11

لم يعد مقهى إميل كما كان.

جئنا أنا وسناء إلى المقهى فرأينا بابه مغلقًا. وقفنا لحظات وتلفَّتنا يمينًا وشمالًا ولم يسرّنا منظر المستوطنين والجنود وهم يذرعون الساحة. كنّا نشعر كما لو أنّنا لسنا في القدس. كانت ثمَّة حركة زائدة للإسرائيليّين والإسرائيليّات في المكان.

عدنا أدراجنا ورحنا نتمشَّى في الشارع المحاذي للسور. كانت المدينة تكتم أحزانها على نحو ما، أو هذا ما خُيِّل إلينا، بل أكاد أجزم أنّها كذلك.

وكنّا في المرَّة السابقة، حين جئنا إلى المقهى، رأينا إميل وزوجته وابنتهما والنادلة على الرصيف.

وجوههم كانت تعبِّر عن حزن وأسى.

قالت سناء:

– رأينا أيضًا قيس وليلى. كانا يقفان وعلى وجهيهما هالة من غضب، أو ربّما هالة من غموض يستعصي على الأفهام.

قلت:

– لستُ متأكّدًا إنْ كنّا رأيناهما.

استغربتْ سناء كلامي، ثمّ اتَّهمتني بأنّني كنت مشغولًا بالنظر إلى سيقان النساء اليهوديَّات اللواتي يعبرن الساحة بفساتين خفيفة.

كدتُ أغضب منها، لأنّ التهمة غير صحيحة إلى حدٍّ ما.

قلت لها:

– أكادُ أجزمُ أنّني ربّما كنت أحاور نفسي حول موضوع فلسفيّ يا سناء، وربّما كنت أتأمَّل حالة اغترابنا عن المكان واغتراب المكان عنّا.

وحين أدركَتْ عمقَ ما كنت أفكِّر فيه ابتسمتْ وقالت إنّها تثق بي.

غفرتُ لها توجيه التهمة إليَّ ثمَّ تراجعها عنها، وقلت:

– هذا البني آدم، قيس منّان، سوف يتسبَّب للعائلة بفضيحة جرَّاء حبِّه لهذه البنت، ليلى، أكاد أجزم بذلك.

تذمَّرتْ سناء من كلامي وسألتني:

– أيَّ فضيحة تقصد؟ وهل الحبّ فضيحة؟!

ثمّ راحت تُنحي باللائمة عليّ، وتتَّهمني بأنّ قيم العائلة المتزمِّتة عادت تحتلُّ تفكيري.

ابتسمتُ وطلبتُ منها ألّا تتشدَّد في إصدار الأحكام، إذ بعد هذا العمر لا يمكن أن أعود إلى الوراء.

قالت:

– كثيرون كانت لهم قناعات شبيهة بقناعاتك ثمّ تنكّروا لها وعادوا إلى الوراء.

– أعرف ذلك، وأعرف السبب، لم يكن انتماؤهم إلى تلك القناعات عميقًا راسخًا يا سناء.

خفَّ غضبها جرَّاء كلامي، وارتاح بالها بالتدريج وقالت:

– سامحني يا محمّدي، كانت مجرَّد فكرة طائشة، ولم أقصد الإساءة إليك.

تعلَّقتْ بذراعي وسارت إلى جواري مثل ملاك.

***

كان تفكيري منشغلًا بأبناء أخي فليحان وأحفاده الذين لم يكفّوا عن مطالبة أخي «ع» بتبييض شرف جدَّتهم مثيلة. هذا الشرف الذي قيل فيه إنّه مثل زجاج ينكسر فلا يمكن تجبيره بعد ذلك أبدًا.

توسَّطَ أهل الخير لدى أبناء أخي وأحفاده لعلَّهم يخفِّفون من مطلبهم بدفع خمسين ألف دولار. والسؤال: من أين يأتيهم «ع» بهذا المبلغ؟! لو قاموا بعصره مثلما يُعصر الزيتون في المعصرة لما استخرجوا منه أكثر من ألف دولار.

ثمّ إنّهم مزَّقوا نسخ الكتاب الذي ورد فيه الافتراء على جدَّتهم، وشتموا «ع» على رؤوس الأشهاد، وطلبوا منه أن يحلف اليمين في ساحة المسجد الأقصى، ويزكّي يمينَه خمسةٌ من أبنائه وأحفاده، لتأكيد براءة الجدَّة من أيِّ سلوك مشين.

حلفَ «ع» اليمين وزكَّى يمينه خمسة من ذويه.

اشترطوا عليه أن يمشي مع أبنائه وأحفاده وهم يحملون الرايات البيض من البرِّيَّة، المكان الذي جرى اتِّهام مثيلة فيه، وصولًا بها إلى راس النبع، حيثُ البيت الذي عاشت فيه إلى أن توفَّاها الله.

حملَ هو وأولاده والأحفاد خمسين راية، وساروا بها من البرِّيَّة حتّى راس النبع، وكانوا يهتفون: شرف مثيلة أبيض، أبيض شرفُ مثيلة.

وقد جاء على لسان «ع» في حوار أجرته معه إحدى محطّات التلفزة، أنّه يخشى المجتمع أكثر ممّا يخشى الحكومات. قال: «الحكومات تقتادك إلى السجن، تعذِّبك شهرًا أو شهرين وأنت حبيسُ الزنازين، ثمّ تُبقيك في السجن، تأكل وتشرب إلى أمد قد يمتدّ إلى سنة أو خمس سنين، تخرجُ بعدها لتمارس حياتك كالمعتاد». وقال: «حين يناصبك المجتمع العداء، فإنّه يضعك في حالة رعب دائم. قد يأتيك القاتل تحت جنح الظلام، أو في وضح النهار. قد يتعقّبك أولاد الحيّ وأنت خارجٌ من بيتك، يقذفونك بالحجارة حتّى يدموا رأسك، وقد يقتلونك بحجارتهم. وحين ينبذك المجتمع تصبح ميّتًا وأنت حيّ».

على أثر ذلك، تردَّدت شائعة تقول إنّ «ع» اعتزل الكتابة، ووردت شائعة أخرى تقول إنّه لن يتوقَّف عن الكتابة مهما عانى، ومهما احتمل من تبعات ما يؤمن به من أفكار.

وكنت حين يبلغ بي الانزعاج مداه، أتناسى قليلًا أبناء أخي فليحان

وأحفاده وصراعهم مع أخي «ع»، وأواصل اهتمامي بقيس، ابن عائلتنا المحبّ، وبليلى ابنة التجّار، وبابن العائلة الآخر رهوان، العابث الثرثار.

12

كنّا نجلس في الصباح على السور الواطئ مقابل باب العمود، ولم يكن ثمَّة ركّاب، فالزبائن في مثل هذه الساعة قليلون في بعض الأحيان. رحنا نتسلَّى بسرد الحكايات والتعليقات العابرة، وكان ثمَّة هدوء حذر من حولنا.

قال رهوان:

– اختفتْ ناتاشا ولم أعثر عليها. يبدو أنّها تريد الاحتفاظ بالجنين.

قلت:

– افرح يا ابن العم، سيكون لك ولد أشقر بعينين خضراوين.

لم أقصد الإساءة إليه. وكنت أتوقَّع أنّه لن يستاء، أو كأنّني توقّعت ذلك، لأنّه كثير المزاح، ولا يتورّع عن الخوض في أمورنا الشخصيَّة، فلا نغضب منه إلّا حين يتمادى أكثر ممّا ينبغي.

بدا هذه المرّة على غير ما عهدناه. اعتقد أنّني قصدتُ الإساءة إليه. كتم غضبه وراح يسيء إليّ بطريقته الخاصَّة. سألني:

– ما هي أخبار غزالتك؟ ألم تحبل بعد؟

– رهوان، أرجوك، أترك هذا الموضوع ولا تتطرَّق إليه.

– يمكنني أن أحبّلها خلال خمس دقائق. أفكُّ أزرار جلبابها، أرفع فستانها إلى ما فوق سرَّتها، أطوّق خصرها بذراعي، ثمّ...

لم أدعْه يكمل، أطبقتُ بيدي على فمه، أزاح يدي ووجَّه إليّ لكمة تحاشيتها. داهمتني الرائحة الكريهة التي كان رهوان سببها الرئيس،

تمالكت أعصابي واحتملتُ الأمر، ضربته بقدمي على ركبته، تأوَّه قليلًا، ضربني بقدمه. اشتبكنا وراح كلّ منا يجرّ الآخر على الرصيف، وزملاؤنا يحاولون الفصل بيننا.

تجمهر المارَّة وكانوا يرقبوننا حائرين. قال أحدهم:

– الناس فقدوا عقولهم.

قال آخر:

– لم يعد أحدٌ يحتمل أحد.

فصل الزملاء بيننا. جاء الجنود المتمترسون عند باب العمود وهم يشهرون أسلحتهم الرشّاشة، حدَّقوا بنا، ثمّ سأل أحدهم موجِّهًا كلامه لي:

– معك سكِّين؟

هززتُ رأسي بالنفي. قال:

– تكلَّم، معك سكِّين؟

– لا.

وجَّه السؤال نفسه إلى رهوان:

– معك سكِّين؟

– لا.

قال:

– سكاكين ممنوعة، ممنوعة على طول.

ثمّ نظر إلى المارَّة الذين ما زالوا متجمهرين، وقال في لهجة متغطرسة:

– تجمُّع ممنوع، كلّ واحد يمشي من هنا.

تفرَّق المارَّة ومضوا إلى شؤونهم، ربّما لكي ينأوا بأنفسهم عن المشكلة، وربّما بحثًا عن أمل ما. ابتعد الجنود وهم ينظرون نحونا بحذر وعدم ارتياح.

وكنّا صامتين، كان المشهد ثقيلًا لا يُحتمل.

بعد لحظات، اقترب منّي رهوان، احتضنني وهو يعتذر ويبكي، يبكي

ويعتذر، ثمّ قال: «قبل أسبوع، تشقّقت جدران بيتنا بسبب الحفريّات التي يقوم بها المحتلّون تحت القدس القديمة. وأبي لا يفتأ يقول إنّه رقم صعب في القدس. بادر إلى إحضار الأسمنت وقام بترميم الجدران التي قد تتشقّق من جديد. أبي وأمّي لا يفكّران بمغادرة البيت.

أنا متردّد في البقاء معهما، لأنّ البيت قد ينهار فوق رؤوسنا في أيّ وقت. فماذا ينفعني الرقم الصعب حين أصبح جثّة هامدة؟! قد أكون جبانًا، أخشى على حياتي من موت مفاجئ، لكنّني لست خائنًا. حرصي على حياتي ليس خيانة. هذا هو اجتهادي وهذا هو تفكيري».

أشفقتُ على رهوان، كان حزينًا بحقّ، وبدا كما لو أنّه يعيد النظر في مسار حياته، أو كمن يعتذر عن هذا المسار أو يبرّره، وكنت أتشكّك في نواياه تجاهي، غيرَ أنّني الآن صرت مقتنعًا بأنّه لا ينطوي على أيّ مكر أو خداع.

***

عصرَ اليوم التالي، كنت جالسًا فوق السور الواطئ في انتظار الركّاب. كانت السماء صافية إلّا أنّها لا تَعِد بأيّ شيء، وكانت عيناي تتفرّسان بين الحين والآخر في وجوه الناس من حولي، وعلى الدرج النازل نحو باب العمود.

فجأة، رأيتُها وشعر رأسها ملموم على هيئة ذيل فرس، كانت ترتدي بلوزة حمراء وبنطال جينز أزرق وفي قدميها حذاء رياضيّ. كانت تنزل درج باب العمود بثبات، وتعلّق على كتفها حقيبتها الجلديّة ذات اللون الرمادي. انتابتني الوساوس، كدتُ أناديها: لمياء، إلى أين أنت ذاهبة؟!

لكنني لم أفعل، بقيتُ أتابعها بعينين قلقتين وهي تقترب من الجنود. استوقفوها للتفتيش، وقفتْ أمام أحدهم، فتحتِ الحقيبة، انتضتْ سكّينًا ودفعتْها نحو رقبة الجنديّ الذي تراجعَ خطوتين ولم تصلْه السكّين، أرسل زملاؤه وابلًا من الرصاص إلى لمياء فتطوَّحَ جسدُها الرشيق على البلاط. ارتبطَ لساني وشُلّتْ قدرتي على التفكير.

شقيقتي لمياء قتلها الجنود وأنا عاجز عن فعل شيء.

صحتُ بأعلى صوتي وعيناي مصوّبتان على جسدها الذي غادرته الحياة:

– لمييييييييياء، أختي لمياء.

ركضتُ نحوها، ركض خلفي ثلاثة من الزملاء وقيّدوا حركتي خوفًا عليّ. أعادوني إلى مكاني وأجلسوني على حافّة السور. كنت أرتجف. تذكّرتها وهي تقف هنا إلى جواري ذات يوم، وكان المستوطنون الإسرائيليّون احتشدوا بالآلاف في شوارع القدس وأسواقها احتفالًا بتوحيد شطرَيِ المدينة وإعلانها عاصمة أبدية لدولة الاحتلال. كنّا نتابع معًا رقصة صاخبة يؤدّيها المستوطنون في ساحة باب العمود، وكانت صامتة واجمة، تتهاطل الدموع غزيرةً من عينيها.

تذكّرتُها حين كانت طفلة تتشاجر مع البنات ومع الأولاد، وحين كانت تنشد مع الطالبات في المدرسة نشيد الصباح باستمتاع، ثمّ تنسخ درسها كلّ مساء من دون تأفّف أو استنكاف. وحين كبرت والتحقت بالجامعة، وكان لها نشاط بارز بين الطالبات والطلاب.

شقيقتي حاولت قتل أحد الجنود انسجامًا منها مع رأيها الذي لطالما ردّدته: الاحتلال هو سبب تخلّفنا. هل كانت تشير بذلك إلى ما فعله أبناء العائلة حين أفسدوا قصّة حبّها؟! لا، لا، أبدًا. أظنّها فعلت ذلك بوحيٍ من قناعة راسخة، وليس بدافعٍ من نزوة عاطفيّة عابرة.

لن تنجُو شقيقتي من ألسنة المتفيهقين الذين يُفلُّون النملة كما يقال، سيقولون: ربّما كانت لديها مشكلة عاطفيّة دفعتها إلى هذا الفعل العنيف، وربّما كانت تعاني من يأسٍ وفقدانِ أمل، وربّما تخاصمت مع أهلها لهذا السبب أو ذاك، وربّما وربّما.

لكنّ الحقيقة المؤكّدة التي أعرفها، هي أنّ شقيقتي لمياء كانت فتاة سويّة محبّة للحياة، إلّا أنّها كانت على قناعة بأنْ لا خلاص لنا من الاحتلال إلّا بالمقاومة العنيفة. كان لديها اعتقادٌ بأنّ عنف المحتلّين يجب أن نجابهه بعنف مضاد.

طوّقَ الجنود بيتنا في المساء. اعتقلوني أنا وأبي. بكت أمّي وهي ترانا مقيَّدَيْن بلا حول ولا طوْل.

أفرجوا عنّا بعد سبعة أيّام، خضعنا أثناءها لتحقيقات مطوّلة وأسئلة. من دفع لمياء لمحاولة القيام بطعن الجنديّ؟ ما الدوافع التي أملتْ عليها القيام بذلك؟ هل هي منتميةٌ إلى تنظيم ما؟ هل تصلّي لربّها؟ وهل تصوم شهر رمضان؟ وعشرات الأسئلة الأخرى.

غادرنا السجن، ونجا بيت أمّي وأبي الذي عاشت فيه لمياء من الهدم، لأنّ الجنديّ لم ينزف قطرة دم واحدة، ولم يفرجوا عن جثمانها إلّا بعد ثلاثة أسابيع، دفنّا الجثمان في الليل، بعدد قليل من الحضور لا يزيد عن عشرين شخصًا وفقًا للتعليمات، وتحت حراسة عسكريّة مشدّدة، في مقبرة باب الساهرة، تحت سماء القدس التي تنام ليلها منذ سنوات طوال على ألم واصطبار، وعلى قلق ومخاوفَ من المجهول.

13

وأنا لديَّ مخاوف تتزايد يومًا بعد آخر ممَّا يمكن أن يفعله قيس، لكنني لم أطلعْ زوجتي سناء على ذلك، كي لا تثور في وجهي وتتّهمني بأنّني كثير الوساوس، شكّاك.

فقد تحدث لديه ردَّة فعل قاسية إنْ لم يظفر بليلى زوجة له. أكاد أجزم بأنّ أهلها لن يوافقوا عليه مهما بذل من جهود للتقرُّب إليهم. قيس سائق سيَّارة أجرة متحدر من أصول بدويَّة، والبداوة فيها ما هو إيجابيّ، مثل الشجاعة والذكاء والكرم، وفيها ما هو سلبيّ، مثل التعصُّب للعشيرة والانتصار لها أكانت ظالمة أم مظلومة. أمّا ليلى فهي متحدرة من أصول مدنيَّة عريقة، أهلها مدنيُّون لهم باع طويل في التجارة، لديهم قدرة على الاستبصار، يميلون حيث الريحُ تميل. فكيف يمكن أن تجتمع البداوة مع المدنيَّة؟! وكيف يمكنهما أن تأتلفا؟!

قد يقول قائل إنّ قيس لم يعد بدويًّا في سلوكه وفي تصرُّفاته وفي ثقافته وفي أسلوب تعاطيه مع الحياة، ثمّ إنّ أمّه تنتمي إلى المدينة. وأنا أقول: هذا صحيح، لكنّ جذوره البدويَّة ستظلّ تشدّه إلى مواقف لن يقرّ بها أهل المدينة ولن يقبلوها بأيّ حال.

وقد يذكِّرني أحدهم بأنّ أهل سناء قبلوا بي زوجًا لابنتهم وسناء مدنيَّة وأنا أنحدر من أصول بدويَّة، فأجيب في الحال: أنا حالة مختلفة، أنا مثقَّف لم تفارقني الكتب منذ كنت تلميذًا في المدرسة. قيس أيضًا يدَّعي أنّه مثقَّف، إلّا أنّني أشكّ في عمق ثقافته وفي جدواها ومدى

تأثيرها في سلوكه، هو في نهاية المطاف سائق سيَّارة أجرة متأثِّر بأخلاق شوفيريَّة السيَّارات. أما أنا فكنت موظّفًا في المحكمة الشرعيَّة، كانت لي وظيفة مرموقة حين تعرَّفت إلى سناء وأحببتها وتزوّجتها، وظيفة صغيرة لكنّها مرموقة بمقاييس ذلك الزمان.

تتزايدُ مخاوفي من فعل فاضح قد يقدم عليه قيس. قد تحدث لديه ردَّة فعل جامحة حين يرفضه أهل ليلى مرّة ثالثة، وإثرَ ذلك يخرج عن خطِّ سيره المعتاد ويلتحق بإحدى الجماعات الأصوليَّة المتطرِّفة ويصبح قاتلًا تحت وهم التصدِّي للشرّ واستئصاله من على وجه الدنيا، وقد يقتل ليلى انتقامًا منها ومن أهلها، أو ربما لن يقدم على قتلها، بل يغتصبها ليضع أهلها تحت إكراهات الأمر الواقع.

14

قُبيلَ الغروب، ذهبتُ للمرّة الثالثة إلى أهل ليلى.

في المرَّة الأولى ذهبنا رهطًا من الرجال والنساء. النساء جلسن مع نساء البيت في صالة داخليّة، ونحن الرجال جلسنا في الصالة الرئيسة العامرة بالثريَّات وبالمقاعد الوثيرة، وبالسجَّاد ذي الوبر الكثيف، وبستائر الحرير المنسدلة على النوافذ بمهابة ووقار.

ولم نجد قبولًا من أهل ليلى.

في المرَّة الثانية ذهبنا إليهم، أنا وأبي وأمِّي وشقيقتي لمياء (قبل استشهادها)، جلسنا في الصالة، وجلستْ أمِّي وشقيقتي معنا. جاءنا والد ليلى مقطِّبَ الجبين، أو كأنّه كان كذلك، ولم نجد قبولًا منه ومن أشقّائها.

في المرَّة الثالثة ذهبتُ وحدي إليهم، وكنت جادًّا في الطلب مصرًّا عليه، ولسان حالي يقول ما قاله مجنون ليلى:

كيفَ السبيلُ إلى ليلى وقد حُجبتْ / عَهدي بها زَمنًا ما دُونَها حُجُبُ

رفضني أهلها لأنّني لا أصلح لأنْ أكون صهرًا لهم. ثمّ إنّهم اعتبروا قدومي إلى بيتهم على هذا النحو استهانة بهم، وتحدِّيًا لهم وانتقاصًا من مقامهم.

قلت لهم لعلّهم يغيّرون رأيهم:

– سأبحث عن وظيفة لائقة، ولن أستمرّ في عملي الراهن.

وقلت:

– لي مستقبل في عالم الكتابة، ستتغيَّر حياتي على نحو ملموس.

سخروا منّي ولم يقنعهم كلامي، ثمّ لاموا ابنتهم التي تمرّدت على الأصول المرعيّة ورفضت الزواج بابن التاجر، وحين تقدّم لطلب يدها مهندسٌ رفضته، وهي الآن توافق على الزواج بسائق سيَّارة أجرة.

ولم يكتفوا بذلك، بل حين وجدوا أنّني مصرّ على مصاهرتهم أخرجوني من الصالة وضربوني لكي أكفّ عن التمادي في إزعاجهم. أمسك بي اثنان منهم قرب سور الحديقة وقيّدا حركتي، وانهال شقيقها (أظنّه مصطفى) عليّ بالضرب، قال لي في لهجة تهديد ووعيد وهو يشهر في وجهي مسدّسًا كان يخفيه تحت قميصه:

– هل تريدني أن أحبسك في قبو البيت؟ هل تريدني أن أفرغ في رأسك سبع رصاصات؟

كرَّر تهديده ثلاث مرَّات، ولم أجبه، ثمّ تناوبوا على كيل اللكمات إليّ، وحين تعبتْ أيديهم كفّوا عن الضرب وقالوا لي:

– لا تعُدْ إلينا.

بكت ليلى وهم يضربونني. قالت بصوت سمعه أهلها وسمعه الجيران وهي تطلُّ على الحديقة من إحدى نوافذ البيت:

– لن أتزوَّج إلّا بقيس.

تصاعد غضب شقيقها، اعتبر كلامها تحدّيًا له ولكلّ رجال العائلة، وأطلق في الهواء ثلاث رصاصات.

ولم تكن ثمَّة ضرورة لإطلاق الرصاص، لكنّه فعل ذلك، كما توقّعت، من باب الرغبة في الاستعراض وتحذير الجيران وغيرهم ممَّن يتابعون المشهد، على نحو غير مباشر من أيّ تجاوز للحدود أو اختراقٍ للجدران.

***

بعد سبع ساعات جاءت، عند الساعة الثانية عشرة ليلًا جاءت. حافية القدمين، وكنت على وشك أن أغادر باب العمود عائدًا إلى البيت. كان

شعر رأسها يتناثر بفوضى محبّبة على صدرها والكتفين، فستانها الليلكيّ ينحسر عن ساقيها والذراعين، ركبتْ إلى جواري وقالت: خذني إلى البرّيّة.

دُهشتُ لقدومها في هذه الساعة من الليل، من دون جلباب يخفي مفاتن جسدها أو منديل يغطّي شعر الرأس. شغّلتُ محرّك السيارة ومضيت. كان الطقس ممتعًا، تتخلّله نداوة منعشة، وثمّة قمر منير في السماء. لم تستغرقني الطريق إلّا دقائق معدودات. أوقفتُ السيّارة قرب أرض الأجداد، كانت أضواء المستوطنة تشعّ من شتّى الجهات، وثمّة كلاب تنبح نباحًا متقطّعًا. قلت لها: يقتلنا المستوطنون.

قالت: لا تخف.

غادرنا السيّارة إلى المكان الذي عاش فيه أجدادي على رعي الأغنام. هنا ناموا مع نسائهم اللواتي لم يتوقّفن عن إنجاب الأطفال. هنا غسلن أجساد الأطفال تحت الشمس وأمام البيوت. هنا أكرم أجدادي ضيوفهم. هنا خطبوا البنات للأولاد، وهنا تركوا عباءاتهم وسيوفهم وخيولهم وماتوا. ماتوا بعد أن خلّفوا أولادًا كثيرين وبنات.

مشينا من دون تردّد، واقتربنا من قبر الشهيد حرّان. كنّا نسمع عواء ذئب بعيد، وبنات آوى يطلقن صياحًا كأنّه عويل أمّهات. تلفّتتْ حولها وكان في عينيها تصميم ما. خلعتْ فستانها وبدا جسدها مثل نخلة باسقة. فرشت الفستان على مقربة من القبر. كانت شلحتها السوداء تنحسر عن فخذين مُدملجيْن. استلقت فوق الفستان وقالت بهمس محموم: تعال، اهبطْ عليّ وتزوّجني.

قلت: يقتلنا شقيقكِ مصطفى.

قالت: لا تخف، تزوّجني في الحال.

مدّت يدها وجذبتني إليها، صرنا متلاصقيْن وشاهدة القبر ترنو إلينا بتعاطف أكيد، وكنت أفقد توازني بالتدريج وأنا أتلمّس حرارة جسدها الموفور.

قلت: أتزوّجك.

فكّتْ أزرار قميصي وجرّدتها من سلحتها، ثمّ دخلنا في غيبوبة لذيذة، غير عابئيْن بالعواء القادم من بعيد، وبما حولنا من كائنات الطبيعة الساعية إلى أرزاقها، التحمنا معًا وتقلّبنا على أرض البرّيّة، وهي تشهق بصوت يملأ الأرجاء، وكنت أفرغ ما في داخلي من مشاعر ظلّت حبيسة طوال أشهر، وأثناء ذلك انفجر الخزّان وفاض وأغرق جسدها، وسال منها دمٌ قانٍ بلّلَ ليلكَ الفستان.

سألتني وهي تلهث: هل نحن في حلم أم في علم؟!

قلت: ما الفرق؟! لا فرق.

بدت كما لو أنّها تذكّرت أمرًا ما. قالت: أتذكّر الآن ما جاء في دفتر عمّ أبيك.

وقالت: هذا الدفتر يحدّد لنا مسارنا كما يبدو.

بقيتُ صامتًا، أراحت رأسها على صدري وبقيت صامتة بعض الوقت، ثمّ قالت: أسمعُ الآن ضجيج السفن المحمّلة ببضائع ينتظرها أجدادي التجّار، تقترب السفن من ميناء يافا، ويافا تفتح صدرها وذراعيها وجسدها لتفرغ السفن شحناتها فيها.

قلت لكي أجاريها في الكلام: أسمعُ الآن وقع خيول عائلة العبد اللات وهي تخبط بحوافرها أديم البرّيّة، وأجدادي على ظهورها وهم ينكزون بطونها بأقدامهم، ونساؤهم يزغردن ويرفعن أصواتهنّ بالغناء، وأنا ألوّح بسيفي، أنا العريس في البرّيّة في هذه الليلة الليلاء.

قالت: هذه ليلة عرسنا.

قلت: نعم، ليلة عرسنا.

وهي ما زالت تريح رأسها على صدري، حدّثتني عن جَدّ أبيها الذي وقع في غرام سائحة بريطانيّة جاءت إلى يافا. أحبّها وأحبّته. ولأنّها تمنّعت عليه، عرض عليها الزواج فوافقت في الحال.

قضى ليلة الزفاف معها في فندق قريب من البحر. وعند الفجر، نقلها إلى المستشفى لوقف نزيف سبّبه لها.

لم يدم زواجهما إلّا بضعة شهور. كان أصدقاؤه يمازحونه وهم يعلّقون

على حادثة النزيف: كنتَ ليلتها تعلن حربك على الانتداب الجاثم على صدر البلاد.

لم يعجبه ذلك المزاح، كان يشعر بالأسى وهو يعزو ممارسته الفجّة إلى لهفته الزائدة وإلى جموح العاطفة.

حدّثتُها عن منّان، جدِّ أبي الذي عاد إلى البرّيّة من سفر بعيد.

عاد بعد منتصف الليل ونساء العائلة ورجالها نيام، ربط فرسه أمام بيت الشَّعْر ووضع لها الشعير ومسّد رقبتها كي تكفيه مغبّة الصهيل.

نهضتْ زوجته مثيلة من فراشها واستقبلته بترحاب، ولم يمهلها حتّى تستلقي في الفراش، بل جعلها تقبض على عمود بيت الشَّعْر، حَنَت جسدها وانحنى عليها مقلّدًا فعل الكلاب، وراح يواقعها بهياج.

ظلّ عمود البيت يهتزّ بضراوة، ويهتزّ معه بيت الشَّعْر بالضراوة نفسها، ما استفزّ الفرس وجعلها ترفع رأسها وتمعن في الصهيل، ما أزعجَ الكلابَ النائمة على حواشي البيت المنسوج من شَعْر الماعز وجعلها تنبح وتواصل النباح إلى أن توقّف بيت الشَّعْر عن الاهتزاز.

في اللحظة الأخيرة رأيناه، هي لم تعرفه، أنا عرفته في الحال وقلت لها إنّه القنفذ، ابن عائلتي، اسمه عبد الرحمن. كان يتجمّع على نفسه ويكمن على مقربة منّا ويراقبنا بفضول، ثمّ لم يلبث أن أدخلَ رأسه بين كتفيه، وأغمض عينيه كما لو أنّه لا يرانا. لم نكترث له، لأنّنا كنّا على وشك أن نغادر حلمنا البهيج.

***

في الصباح، اتَّخذتْ قرارها.

نعم، اتّخذتُ قراري وقلت لنفسي: حياتي ليست أغلى من حياة الأسرى الذين يقاومون المحتلّين بأمعاء خاوية. تذكَّرتُ كوكبة منهم ممّن أمضوا شهرًا أو شهرين أو ثلاثة أشهر وهم مضربون عن الطعام. لم أذهب إلى مائدة الفطور. افتقدني أبي

وهو عابس متكدّر المزاج. قالت أمّي في محاولة لامتصاص غضبه: ليلى مريضة. صدقّها، غيرَ أنّه ظلّ متشكّكًا في الأمر.

مرَّ أسبوع وليلى مضربة عن الطعام. نقلها أهلها إلى المستشفى، وظلَّت مصرَّة على الإضراب.

خاف أبوها من فضول الصحافة وأجهزة الإعلام، ومن المانشيتات المتوقَّعة في الصحف:

مُدرِّسة مضربة عن الطعام لحرمانها من الزواج بحبيبها.

أسرانا في سجون الاحتلال هم الملهمون: أسلوب جديد لمواجهة الأب العنيد.

زارها في المستشفى ووعدها بالاستجابة لرغبتها في الزواج بمن تريد.

غادرت المستشفى وعادت إلى بيت أهلها، وكانت تعاني من ضعف وهزال.

تزوّجتها بعد ذلك بثلاثة أسابيع.

15

بعد شهر من زواجنا، كنّا نشرب قهوة الصباح في شرفة بيتنا.

كنّا نشعر بطمأنينةٍ ما بعد أن حقَّقنا رغبتنا ولم ننهزم أمام سطوة التجارة والاعتبارات الشكليّة التي ما زالت تعشّش في بعض الأذهان. وكنّا نعرف أنّ قصَّة حبّنا هي من النوع البسيط الذي يخصّنا، أنا وليلى، دون سوانا، فلا تترك أثرًا مثلما فعلت قصص الحبِّ التي قرأنا عنها في الكتب. إلّا أنّ قصَّتنا ستظلّ في غاية الأهمّيّة لي ولها، وسنظلّ نتذكَّرها كلّما خطرت ببالنا التفاصيل الحلوة والمرَّة التي عشناها معًا.

وكنتُ تحرّرت من تلك الرائحة التي طاردتني زمنًا، الرائحة التي علقت بي من بيت فريال في الحيّ الشماليّ المتاخم للمستوطنة، تحرّرت منها بعد أن صارحتُ ليلى بتلك التجربة التي لم تكتمل. ابتسمت ليلى وغفرتها لي بعد أن قالت في مزاح: يا غشّاش.

ولم نظفر بالطمأنينة إلّا لوقت قصير، إذ جاءنا الخبر على جناح الكلمات الملهوفة: نسفوا بيت الفتى الشهيد الذي قتل جنديًّا وجرح آخر. أصبح البيت كومة من حديد وحجارة وتراب.

تذكّرتُ أختي الشهيدة لمياء، ثمّ حدَّقتُ في عينيْ ليلى وحدَّقتْ في عينيّ. قالت: لا يمكن أن يمرَّ يوم على بلادنا من دون مفاجآت.

كانت الفكرة نفسها تعتمل في رأسي، أو كأنّها كانت كذلك. نظرتُ نحوها بألفة، واتَّفقنا على أنّنا صرنا معتادين المفاجآت، وليس أمامنا من خيار سوى مواصلة الحياة، بتذمُّر قليل أو من دون تذمُّر في أغلب الأحيان.

ارتدينا ملابسنا على عجل، وكانت حرارة الصيف تعلن عن نفسها بضراوة لافتة للانتباه، انتعلتُ حذائي من دون جوربين، وارتدت ليلى بنطال جينز رماديّ اللون وقميصًا أبيض، وخرجنا إلى الشارع، مشينا مسافة غير قصيرة، وكنّا نهرول بين الحين والآخر كي نصل في الوقت المناسب. صدّنا الجنود عن مواصلة السير، وكان هناك حشد من الناس الذين لم يتمكَّنوا من الوصول.

وقفنا مع الواقفين ونحن نردِّد الهتاف تلو الهتاف ضدّ هذا العسف.

شعرتْ ليلى بدوخة مفاجئة. أسندتُها بذراعي وعدنا إلى البيت.

سألتْني ونحن نتابع الأخبار على شاشة التلفاز في المساء:

– لماذا لا تكونُ لنا أيّام هادئة مثل بقية الشعوب؟

قلت وأنا أدَّعي حكمة معتَّقة:

– ستكونُ لنا، ذاتَ يومٍ ستكون.

خجلتُ من غروري وادِّعائي المعرفة من دون تحفّظات. أعدتُ سؤالها إليها وسألتها:

– نعم، لماذا لا تكون لنا أيَّام هادئة مثل بقية الشعوب؟

قالت بتواضع جمّ:

– لو كنت أدري لما طرحتُ عليك السؤال.

شعرتُ بالحرج، حاولتُ الإشارة إلى أنّني بعيد من الغرور بُعد السماء عن الأرض، وضعتْ رأسها على كتفي وهي تخفِّف من حَرجي، وتطلب منّي أن أكفّ عن تقديم التبريرات التي لا ضرورة لها، ثمَّ تناولنا عشاءنا على ضَجيج الطائرات التي تقتحم سماءنا كي تقول لنا: نحن هنا.

وحين تلاشى الضجيج قلت:

– القضيةُ ليستْ بالغةَ التعقيد برغم ما يحيط بها من تعقيدات: لنا أرض وبيوتٌ وذكرياتٌ ومطارحُ وشرفات، ننسى أنفسَنا إنْ نسيناها.

شدَّت على يدي وهي تردّد كلماتي بهمس حميم:

– ننسى أنفسنا إنْ نسيناها.

وكنّا في تلك اللحظات مشدودَيْن من الانفعال مثل وتريْن في كمان.

بعد يومين، جاءنا خبر مباغت مع الفجر، طوّقَ جنود الاحتلال بيت القنفذ، ومعهم جرّافة راحت تنهش بمنقارها المعدنيّ جدران السقيفة التي بناها القنفذ ليؤوي أغنامه إليها. هدمتها الجرّافة بحجّة عدم الترخيص، وتشرّدت أغنامه في العراء.

في اليوم التالي، تجمّع شباب الحيّ وراحوا يبنون السقيفة من جديد.

قلت لها:

أمضى القنفذ حياته وهو يطلق الأحكام ويتباهى بسلوكه الحسن. مُشكلته أنّه لم يفكّر بالزواج إلّا بعد الأربعين. راجت شائعة تقول إنّه لا ينفع النساء. جرحته الشائعة وقرّر الزواج. لم تقبله كثيرات من بنات العائلة ولا من بنات العائلات الأخرى، ربّما بسبب تقدّمه في السن، وربّما بسبب اللعنة التي اقترنت به، لعنة الرائحة التي تنبعث منه كلّما اقترب من أحد أو جلس بجوار أحد، وها هو ذا على مشارف الخمسين من عمره يظفر بزوجة أدخلت المسرّة إلى قلبه.

تزوَّج أرملة في الأربعين من عمرها اسمها هَزْعة، أنجبتْ من زوجها الذي مات بعد مرض لم يمهله طويلًا خمسة أولاد ذكور. كانت متينة الجسد لها عينان حادّتان تخرقان الصخر، وكانت تنبعث من جسدها رائحة شبيهة برائحة زوجها، ربّما لأنّها كانت مثله تثابر على حلب الأغنام والعناية بها.

كان القنفذ يعشق رائحتها وهي تعشق رائحته. ويزداد تعلّقًا بها حين تعيد سيرة الجدّات اللواتي كنّ يُمضين أوقاتهنّ في غزْل الصوف. مشهدها وهي تغزِل الصوف يروقه، يراقبها باستمتاع وهي ترفع ثوبها عن فخذها لتدحرج المغزل عليه طوال ساعات.

أنجبتْ طفلة بعد ثلاث سنوات من الزواج، ثمّ انقطعت دورتها الشهريّة ولم تعد قادرة على الإنجاب، فلم يكترث القنفذ لذلك، اكتفى بالطفلة التي سمّاها خضرا، وكانت تحمل كثيرًا من صفات أمّها، أخرجها أبوها من المدرسة حين صار عمرها اثنتي عشرة سنة وأخذ نهداها يتكوّران تحت فستانها على نحو ملحوظ. كانت تساعد أباها وأمّها في رَعْي الأغنام

وحلبها، وهي الآن شابّة تناطح بجسدها الحيطان، كما تقول عنها بعض الجارات.

16

ولم يلبث الزمن أن دار دورته ودخلنا في طقس الخريف.

أنا الآن في الثامنة والعشرين. لم أتعرَّض لاضطهاد مثلما تعرّض غيري من شباب العائلة. في عائلتي شهيدة هي شقيقتي لمياء، وخمسة أسرى يعانون من أحكام جائرة في السجون.

أدَّعي أنّ حياتي لم تكن سهلة على الإطلاق، أو كأنّها كانت كذلك. يكفي أنّني وُلدت وما زلت أحيا تحت هيمنة المحتلّين، تنتابني الوساوس بين الحين والآخر بأنّني قد أعتقل مرّة أخرى لأيّ سبب، وقد أتعرّض للقتل على أيدي الجنود أو على أيدي المستوطنين.

أستغرق أحيانًا في تذكّر بعض ما مرّ علينا من أحداث، أغلبها مرٌّ مرارة العلقم. أتذكَّر اتّفاقَ أوسلو ودخولَ ياسر عرفات البلاد مثل حلم غامض. كنت طفلًا آنذاك. أتذكَّر انتفاضة الأقصى التي عسكرها القائمون على أمرها واستبعدوا الناس من ساحات النضال، ولا أنسى انتفاضة السكاكين التي ما زالت حتّى الآن تظهر وتختفي، تختفي وتظهر من جديد. لا أنسى الانقسام الذي ما زال يهدِّد مستقبل البلاد، ولا أنسى الحروب الوحشيّة على غزّة. أتذكَّر الإضرابات والتظاهرات الشعبيَّة والشعارات المكتوبة على الجدران ضدّ الاحتلال. أعيش حياتي في خوف وقلق، إذ كيف يطمئنّ من يرى جنود الاحتلال من حوله كلّ صباح وكلّ مساء!

ليلى الآن في الرابعة والعشرين، تتفجَّر قوّة وحيويَّة وجمالًا وبهاء.

عادت إلى دوامها المدرسيّ بعد انتهاء العطلة الصيفيَّة. كانت عطلة ممتعة لي ولها برغم ما شابها من منغّصات. ذهبتْ بعد الدوام إلى السوق، ومعها زميلتها أسمهان، تنقّلتا من حانوت لبيع الملابس إلى حانوت آخر إلى أن استقرَّ بهما الرأي على شراء فستانين متشابهين، واحد لكلّ منهما، ثمّ غادرتا السوق.

قالت لي في المساء إنّها اشترت فستانًا مرشوقًا بشتَّى الألوان.

ولم تصبر إلى أن أظفر بقسط من الراحة بعد كَدِّ يوم تعب طويل.

راحت تفكُّ الورق الصقيل الذي يغلِّف الفستان، وكنت أرقبها بفضول وأقول لنفسي: كلّ ما تفعله ليلى جدير بالانتباه، وفيه الدليل على أنوثة باهرة. خلعتْ فستانها الذي كانت ترتديه، وانزاحتْ شلحتها الداخليَّة إلى ما فوق سرّتها ربّما على نحو غير مقصود، وربّما قصدتْ أن تستثيرني بهذه الحركة العفويّة، وبالفعل اعترتني هزّة وأنا أرى بياض جسدها الفتّان. قبضتْ على الفستان الجديد بيدين حانيتين، ارتدته ووقفت أمام المرآة، في انتظار أن أبدي رأيًا فيه.

قلت:

– جماله من جمال المرأة التي ترتديه.

مشت نحوي والفستان يهتزُّ من حول جسدها برشاقة. قبَّلتني، وكان مزاجها رائقًا إلى أبعد الحدود.

قلت مازحًا:

– صحيح، إنّه يهبط إلى ما تحت ركبتيك، ويضفي على جمالك مسحة من وقار، لكنّه فضفاض، قد يُطيّره الهواء وأنت في الشارع أو في مكان مكشوف، ما يسبِّب لك حرجًا أمام الناس.

مشت أمامي بشكل استعراضيّ ظريف، كما لو أنّها توقَّعت ذلك وأعدَّت للأمر عدّته. جمعتْ طرف الفستان قريبًا من أسفل فخذها، قبضت عليه وقالت:

– أضمّه هكذا ولا أسمح له بالفلتان.

ضحكنا معًا، ثمّ خلعتِ الفستان.

***

وكنّا في طقس الخريف، في غبش المساء، في بيتنا الصغير، في الحيّ الذي تتعايش فيه التناقضات، بالتغاضي حينًا وبالتنافر في بعض الأحيان، وحيث تحدث المفاجآت على غير ميعاد.

وفيما أهلُ الحيّ لاهون عنّا وأنا وليلى عنهم لاهيان، والطيور تعود إلى أعشاشها في لهفة وحنين، في تلك اللحظات التي تسيطر فيها على الأنفس هشاشة ويعتريها غموض ما، مشتْ ليلى حافية على البلاط، شعرها يغطّي عُرْي الكتفين، ولم تبح بأيّ كلام.

شغَّلتِ الموسيقى ورقصتْ على أنغامها الشجيَّة. تذكّرتُ «ليلة النار» التي لطالما تحدَّث عنها كبار العائلة، وهي الليلة التي ظلَّ فيها الرجال والنساء يرقصون في الساحة الممتدَّة أمام المضارب في البرّيَّة حتّى الفجر، ووقعتْ فيها سبع حالات زواج، في طقوس بدائيَّة مستمدَّة من عهود سحيقة ماضية، تتمحور حول الاحتفاء بجسد المرأة وتكثير النسل والتشبّث بملذّات الحياة. الآن ترقص ليلى وحدها تكريسًا لطقوس الزمن الحديث، الذي لا يخلو من قتل وخراب، برغم ما فيه من رقيّ وحضارة ومنجزات.

خجلتُ من نفسي لأنّني لا أجيد الرقص. قلت: سأتعلَّم الرقص، ستعلّمني ليلى ما لا أعلم، إنْ لم يكن في هذا الشهر ففي الشهر الذي يليه.

وكنت أرقبها بشغف. تثنّت شلحتها الورديّة وبانت تضاريس الجسد، وتكاثف العرق على الجبين وعلى الصدر والبطن والساقين.

واعتراها حنينٌ إلى الماء، وكان الماء مقطوعًا عن بيتنا في ذلك المساء.

***

في الصباح، أخذتُها كالعادة إلى وظيفتها، وكانت السنة الدراسيَّة الجديدة ابتدأتْ منذ أسابيع. نزلتْ من السيَّارة واتَّجهتْ نحو باب العمود، تابعتُها بعينيّ وهي تهبط الدرجات مثل ملاك. وبقيتُ في موقعي المعتاد أنتظر الركَّاب لنقلهم إلى أمكنة شتَّى. اقتربت ليلى من دوريَّة الجنود الواقفين هناك. تنطَّح لها جنديّ وطلب منها أن تفتح حقيبتها المعلَّقة على كتفها، وفيها دفتر تحضير الدروس وكتب مدرسيَّة، فتَّشها بدقَّة فيما زملاؤه يرصدون كلّ حركة قد تبدر منها، ثمّ سمح لها الجنديّ بأن تغلق حقيبتها وتمضي.

كنتُ أرقبها من بعيد وأنا مشفق عليها ولا أستطيع فعل أيّ شيء. نظرتُ حولي في أسى، وكان الخريف يتداخل مع بقايا الصيف على استحياء.

مشت ليلى -كما أخبرتني في ما بعد- في السوق التي تأخذها إلى المدرسة، وكانت الحوانيت تفتح أبوابها لاستقبال يوم جديد، وثمَّة نساء ورجال يمضون إلى شؤونهم وعلى وجوههم انطباعات شتّى. رأته مقبلًا نحوها مثل سحابة من غبار، شعر ذقنه مشعّث طويل، وعيناه تبرقان. كان شعرها الحرير ينسدل على كتفيها باسترخاء وهي تمشي باعتداد في فستانها الفضفاض المرشوق بشتّى الألوان، النازل إلى ما تحت الركبتين بقليل. تذكَّرَتْه جيدًا، لأنّه اعترضها من قبل مرّتين. كان يهمس في أذنها كلّ مرّة: «احتشمي، أقول لك احتشمي»، ثم يغيب في مثل لمح البصر، ولم تكن تعيره أيّ اهتمام.

كانت تصف لي ملامحه المنفّرة، وكنت أتوقّع أنّه أحد أحفاد العمّ فليحان، أو ربّما كان أحد المستعربين الإسرائيليّين، متخفِّيًا في هيئة متطرِّف أصوليٍّ من بني قومنا، وربَّما كان من جماعة «حرّاس الشرف»، أو ربّما كان ذئبًا منفردًا ينشط على عاتقه الشخصيّ للتدخّل في مصائر الناس. لم أكن أقيم وزنًا للأمر وهي ترويه، ثمّ إنّني لم أكن أملك دليلًا مؤكَّدًا لكي أوجِّه أصابع الاتِّهام لأيّ أحد، وحتّى لو ملكتُ الدليل فإنّ هذا قد لا يفيد في زمن الفوضى والانحطاط.

ربّما كان هذا الملتحي مُرسلًا من ابن التاجر، الذي ظلّ ينغِّص عليَّ عيشي، وربّما لم تكن له علاقة بابن التاجر. حين واجهني هذه المرَّة لم يقل شيئًا، لكنّني شككْتُ في أنّ أمرًا خطيرًا سيقع. ضربني على وجهي بآلة معدنيّة لها أسنان حادّة، وطار.

هرعتُ إليها حالما وصلني الخبر. كان وجهها مشوّهًا على نحو مريع، وعينها اليسرى لا ترى سوى ضباب. قلت لنفسي وأنا أتأمَّل وجهها البريء: ليت قيس بن الملوّح وليلى العامريّة كانا هنا ليشهدا ما الذي يجري الآن بعد قرون من انطواء قصة حبِّهما! وقصة حبِّنا بالمقارنة معهما مجرّد قطرة في فنجان، أو كأنّها كذلك، غيرَ أنّها بما يحيط بها من مخاطر علامةٌ دالَّة على ما في مجتمعنا من تخلُّف وجمود.

بعد لحظات، دخلتْ سناء وكانت غير متفاجئة ممَّا جرى. ابتسمتْ ببراءة وقالت:

– هيّا يا ليلى، انهضي وأزيلي هذه الأصباغ عن وجهك. انتهى كلّ شيء وعلينا جميعًا أن ننصرف من هنا.

دُهشنا لكلام سناء، التي كانت تتحدَّث كما لو أنّني وليلى ممثِّلان على خشبة مسرح وما علينا سوى الاختفاء خلف الكواليس والعودة إلى الجمهور المنتظر في القاعة لكي يصفِّق لنا. اعترضتُ على كلامها وقلت لها في تصميم:

– أرجوك يا سناء، لا تجعلي الأمور خياليَّة إلى هذا الحدّ.

لم تجب. سألتها:

– أين العمّ محمّد الأصغر؟

– إنّه في الخارج يتحاور مع أحد أبناء عائلته، وبعد قليل سيأتي إلى هنا.

انتظرناه إلى أن جاء، وكان معه رهوان. جاء الاثنان وهما يحملان باقتَيْ ورد، وحين رأى العمّ محمّد وجه ليلى أصابه ذهول. بادرتُه بما يشبه المداعبة:

– هل جئتَ بهذه الباقة لكي تشكرنا على حسن أداء الأدوار؟!

هزَّ رأسه بما يوحي أنّه لا يفكِّر في شيء من هذا.

قلت لنفسي: ربّما كانت سناء على صواب، وربّما كان محمّد الأصغر غير راغب في التصريح بما صرَّحت به زوجته.

قال:

– جئت لكي أهنِّئ ليلى بالسلامة، ولكي أطلب منها عدم الوقوع في فخّ اليأس.

جاء إميل وزوجته مريم وطفلتهما ماري، وكان ثمة ذهول على وجوههم. جاءت أسمهان، زميلة ليلى في المدرسة، واعتراها الحزن حين شاهدت وجهها المصاب.

فجأة، دخل المؤلّف «ع»، الذي لطالما تذمّر منه العمّ محمّد الأصغر واتهمه بالسطو على جهوده في التدوين. كانت ملامح وجهه تنمّ عن حزن وأسى، كما لو أنّه يعلم مسبقًا حقيقة المشهد الذي سيراه. نظرنا نحوه بصمت وخشوع، حتّى العمّ محمّد الأصغر الذي كان يُفاخر بتحدّيه، وقف في حضرته مثل تلميذ مطيع. حيّانا «ع» بإشارة من يده، رددنا على تحيّته بمثلها. اقترب من ليلى وتلمّس جبينها بباطن كفّه، ذرف دمعتين على مقربة من سريرها، ثمّ انسحب نحو الخارج كما لو أنّه مسؤول عمّا تعرّضت له ليلى من ألم ومعاناة.

نظرنا كلٌّ منا في وجوه الآخرين، ثمّ أغرقنا في ضحك ممطوط.

وحين حلّ الصمت من جديد، تأمّلنا، أنا وليلى، العمّ محمّد الأصغر وزوجته سناء، شكرناهما، ولم يلبثا أن غادرا الغرفة.

شكرنا أيضًا رهوان، الذي مضى في أثرهما. وشكرنا أسمهان، وإميل ومريم وطفلتهما ماري.

جاء أبي وأمّي وشقيقتاي، المحجّبة والأخرى غير المحجّبة. تألّمت أمّي حين شاهدت وجه ليلى الذي كان آية من جمال، وتألّمت شقيقتاي.

جاء أهل ليلى وحشدٌ من أبناء عائلتها، كان الغضب يستبدّ بهم، راح والدها يلحّ عليها بأن تصفَ له ملامح الجاني. وكانت تهديدات أبناء عائلتها

تتطاير في فضاء الغرفة مثل الشرر. هدَّدوا بأن يقتصُّوا منه ومن أهله، وراح بعضهم يشير بأصابع الاتهام إلى عائلتي، وهذا يعني اعتبار كلّ فرد فيها متّهمًا تصحّ معاقبته، انطلاقًا مِن عُرْف عشائريٍّ كان وما زال سائدًا في قرانا ثمّ انتشر في زمن الانحطاط حتّى وصل مدننا وعمّنا أذاه. قلت لنفسي: هكذا ينتعش التعصُّب العائليّ، ويذهب الصالح في ذنب الطالح، ويتشرذم المجتمع المبتلى بأسوأ احتلال، ويقع ضحيّةً لصراعات بائسة لن تنتهي إلّا بعد أن تأكل في طريقها الأخضر واليابس.

***

بقيتُ بالقرب من ليلى بعد أن غادرها أهلها. نظرتْ إليّ بعينها الباقية، ابتسمتْ لي وقالت:

– نتبنّى طفلة، وستكون جميلة مثل ماري، ذكيّة مثلها.

مسَّدتُ شعرها، شددتُ على يدها بحنان، تذكّرتُ ما يردّده عليوان، والد رهوان: أنا رقم صعب في هذه المدينة. تأمّلتُ هذا الكلام ووجدته جديرًا بالانتباه.

بقيتُ قريبًا من سريرها إلى أن غابت شمس ذاك النهار، وكنت مرهقًا، استرخيتُ في الكرسي إلى جوارها ورأيتهم، كانوا أربعة. جاؤوا كما لو أنّهم زوّار، وتساءلت بيني وبين نفسي: هل هم مستعربون إسرائيليّون أم أصوليّون متطرّفون؟! وقبل أن أظفر بجواب قيّدوني من يديّ وكمّموا فمي وشلّوا قدرتي على الحركة. حشروا منديلًا في فم ليلى، مزّقوا فستانها عن جسدها، ثمّ حزّوا رقبتها بسكّين، وذبحوها مثلما تُذبح الشاة، تألّمتُ لذلك وأصابني قلق وانزعاج، فتحتُ عينيّ، فركتُهما وأنا مذهول، حدَّقتُ في سرير ليلى وكانت مستلقية فيه بكامل حضورها، رحتُ أقبّلها بلهفة. ابتسمتْ وقالت لي:

– ما الذي جرى يا قيس؟!

– لا شيء يا ليلى، مجرّد حلم مزعج رأيته حين غفوت.

واصلت ليلى الابتسام.

ثمّ واظبتُ على زيارتها والبقاء قريبًا منها في المستشفى إلى أن غادرتْه إلى بيتنا، وإلى وظيفتها، بشعرها الحرير المنسدل على الكتفين، وبفستانها الفضفاض الذي يهبط قليلًا إلى ما تحت الركبتين، معلِّمة للبنات وللأولاد، في المدرسة التي يملكها فلسطينيّون أرثوذوكس داخل سور القدس.

تمّت

القدس، 25/11/2017

ظلال العائلة — ماذا يعني أن نعيش في القدس اليوم، حاملًا إرث قبيلةٍ عريقةٍ هجرت البرّيّة في حزأين سابقين من ثلاثية محمود شقير «فرس العائلة» و«مديح لنساء العائلة»؟

الأحفاد وأحفاد الأحفاد لا يعرفون كم سقط من إرثهم على الطريق إلى هنا، ولا من سقط من المورثين..

الأحفاد وأحفاد الأحفاد يعيشون الشتات وهم داخل الوطن المسلوب، يتكيفون مع البطالة والعوز وانغلاق الآفاق وقيم التزمت الدخيلة

أحدهم لا يزال مسكونًا بأشباح ماضيه، بشرًا وأمكنة وحكايات، يبحث عن ألفة الأجداد وسكينتهم في الأرض التي سكنوها، وفي عينيْ معشوقة آتية من زمن عابر مثله: قيس وليلى معاصران الآن وهنا في وجه البنادق ومثالب الطبقية والتزمت الاجتماعي والديني عاشقان من حبرٍ وورق في دفتر حكّاء ملوث يرصد تغيرات قبيلة كاملة وحكاياها وشجوها على امتداد الزمن، حيثما ضاع الفاصل بين الخيال والواقع في قصتهما، يحلمان ملحمةً عائلية لتختصر قصة وطن.

ز.ح.

«يواصل محمود شقير تقدّمه واحدًا من أبرز الكتّاب العرب قدرةً على تقديم مناخات إبداعيةً جديدة، وحلولًا سرديةً مبتكرة على الدوام، كما سنلمس في هذه الرواية.»

— إبراهيم نصر الله

محمود شقير — كاتب فلسطيني من مواليد جبل المكبّر، القدس (1941). يكتب القصة والرواية للكبار وللفتيات والفتيان. أصدر حتى الآن ثمانية وخمسين كتابًا، وكتب ستة مسلسلات تلفزيونية طويلة وأربع مسرحيات. تُرجمت بعض قصصه إلى عدّة لغات. شغل مواقع قيادية في رابطة الكتّاب الأردنيين وفي الاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين. حاز جائزة محمود درويش للحرّيّة والإبداع، 2011. تنقّل بين بيروت وعمّان وبراغ، ويقيم حاليًا في مدينة القدس.

ISBN 978-614-469-286-8

9 786144 692868

يوزّع مع حصة الناشر

هاشيت أنطوان

مكتبة نوميديا